ميقات الحج

مجلة نصف سنوية تعنى
بالشؤون الثقافية والتاريخية
والسياسية والاجتماعية للحج

٢٩

محرم - جمادى الثانية
١٤٢٩هـ - السنة ١٥



بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

كاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

میقات الحج-المجلد ۲۹

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات‌الحج : مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه .....محمد محمدی‌ری‌شهری.

مشخصات نشر : [بی‌جا: بی‌نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری : ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک : ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصیفی

یادداشت : عربی.

یادداشت : شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت : پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت : کتابنامه.

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده : قاضی‌عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی : ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

اشارة

ص: ۲

ص: ٣

ملاحظات

ص: ۴

يرجى من العلماء والمحققين الأفاضل الذين يرغبون فى التعاون مع المجلة أن يراعوا عند إرسال مقالاتهم النقاط التالية:

۱- أن تقترن المقالات بذكر المصادر والهوامش بدقّة وتفصيلٍ.

۲- أن لا تتجاوز المقالـة ۴۰ صـفحة وأن تكون مضـروبة على الآلـة الكاتبـة إن أمكن أوأن تكتب بخط اليـد على وجه واحد من كلّ ورقة.

۳- أن تكون المادّة المرسلة للنشر فى المجلة غير منشورة سابقاً وغير مرسلة للنشر إلى مجلة أخرى.

۴- تقوم هيئـة التحرير بدراسـة وتقييم البحوث والـدراسات المقدمـة إلى المجلـة، ولهـاالحقّ فى صـياغتها وتعـديلها بما تراه مناسـباً مع مراعاة المضمون والمعنى.

۵- يعتمد ترتيب البحوث والمقالات فى المجلة على أسس فنيّة وليس لأسباب أخرى.

۶- تعتذر هيئة التحرير عن إعادة المقالات إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.

۷- المقالات والبحوث التى تنشر على صفحات المجلة تمثل وجهات نظر وآراء كتّابها.

۸- ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة فى طهران.

۹- ترحّب هيئة التحرير فى مجلة ميقات الحج بملاحظات القرّاء الكرام ومقترحاتهم.

ص: ۵

الحج رموزٌ و حِکم (۶)

الشيخ عبدالله جوادى آملى

الحجر الأسود

السرّ فى تشبيه الحجرالأسود بمقام الرسول الأكرم ۹

تضم الكعبة المطهرة أربعة اركان و ترتيبها حسب الطواف كما يلى: ركن الحجرالأسود، الركن العراقى، الركن الغربى والركن اليمانى. و المسافة بين الحجرالأسود وباب الكعبة تُعرف ب- «الملتزم». قال الإمام الصادق ۷: «هو الموضع الذى تاب الله فيه على آدم». (۱) و «المستجار» موضع يقع إلى جانب الركن اليمانى، بمحاذاة الملتزم، حيث يتعلق الزائرون بأستار لطف الله تعالى. وقد عبّر أمير المؤمنين الإمام على ۷ عن سرّ التعلق والتشبث بأستار الكعبة ومعنى ذلك بقوله: «هو مثل رجلٍ له عند آخر جناية وذنبٌ فهو يتعلّقُ بثوبه يتضرّع إليه و يخضع له أن يتجافى له عن ذنبه» (۲).

يقع الحجرالأسود إلى يسار الزائر الذى بإزاء باب الكعبة ومقام إبراهيم ۷ على يمينه (وإن كان مقام إبراهيم يقع الآن خلف الزائر المفترض) ولكن بالنسبة للكعبة نفسها، فلو افترضنا أن وجه الكعبة يقع قبالة الناس وجهاً لوجه من الجدار الذى يقع فى باب الكعبة، فإن الحجرالأسود يقع إلى يمين بيت الله الحرام و مقام إبراهيم إلى يساره.

يقول الإمام الصادق ۷ مبيناً سرَّ الأمر المذكور، مجيباً على هذا السؤال: لماذا يستلم الناس الحجرالأسود و الركن اليمانى من بين أركان الكعبة فقط؟ فقال: لأنها بمنزلة يمين عرشه (۳) و الله سبحانه وتعالى أمر باستلام كل ما هو على يمين عرشه.

ثم قال مجيباً عن السبب فى وقوع مقام إبراهيم على الجانب الأيسر: لأن «لكل من النبى إبراهيم ۷ و الرسول الأكرم ۹ مقاماً خاصاً فى يوم القيامة، ومقام محمد ۹ عن يمين عرش ربنا عزوجل و مقام إبراهيم ۷ عن شمال عرشه ...» (۴).

والحجرالأسود، هو المقام الذى يستند إليه الإمام المهدى [عندما يبايعه الناس، فى بداية ثورته العالمية لبسط العدالة. وكما عبر الإمام الصادق ۷ عن ذلك قائلًا: «... وإلى ذلك المقام يسند القائم ظهره، و هو الحجة و الدليل على القائم، و هو الشاهد لمن وافاه فى ذلك المكان، والشاهد على من أدّى إلى الميثاق والعهد الذى أخذ الله عزوجلّ على العباد» (۵).

نزول الحجر الأسود من الجنّة

۱- وسائل الشيعة ۵۳۹: ۳.

۲- نفس المصدر ۱۶۰ ۱۵۹: ۸.

۳- قال الرسول الأكرم ۹: «ما أتيت الركن اليمانى إلاـ وجدت جبرئيل قد سبقنى إليه يلتزمه». وقال الإمام الصادق ۷ أيضاً: «الركن اليمانى باب من أبواب الجنة لم يغلقه الله منذ فتحه». «الركن اليمانى بابنا الذى ندخل من الجنة.» «الركن اليمانى على باب من أبواب الجنة مفتوح لشيعة آل‌محمد، مسدود عن غيرهم، و مامن مؤمن يدعو بدعاء عنده إلّاصد دعاؤه حتى يلصق بالعرش ما بينه وبين الله حجاب.» وسائل الشيعة ۴۱۹: ۹- ۴۲۲.

۴- البحار ۳۳۹: ۷.

۵- الكافى ۱۸۵: ۴.

ص: ۶

بناءاً علی ما جاء فی بعض الروایات، فإن الحجر الأسود قد نزل من الجنة، وکان فی البدایة أبیض اللون، واسودّ تدریجیاً علی أثر استلامه من قبل المذنبین، حتّی أصبح کما هو علیه الآن: «... کان ملکاً من عظماء الملائکة عندالله ...»، «إنّ الحجر کان درّةً بیضاء فی الجنة ...»، «... وکان أشدّ بیاضاً مِنَ اللبن فاسودّ من خطایا بنی آدم، ولولا ما مسّه من أرجاس الجاهلیة ما مسّه ذو عاهةٍ إلا برأ» (۱).

بعض المفسرین الذین یبحثون عن تبریرٍ أو تفسیر مادیّ لأی ظاهرة من الظواهر، قالوا فی معرض نفیهم لهذا النوع من الروایات: نزول الحجر من السماء أو الجنّة، لا معنی له!! (۲).

وفی الردّ علی هذا الکلام و نقده لابد من القول (۳): ما یؤید الروایات التی تدور حولها بعض الإشکالات، الآیات التی ورد الحدیث فیها عن إنزال النعم الإلهیة من خزائن الغیب، کقوله تعالی: (وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُوم)، (۴) (خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِیَةَ أَزْواجٍ) (۵) و (وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ فِیهِ بَأْسٌ شَدِیدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ) (۶) فکلمة «الإنزال» لیست بمعنی الخلق، بل هی بمعنی التنزیل والإنزال الواقعی من وراء الطبیعة إلی عالم الطبیعة کنزول القرآن فی لیلة القدر. ولکن المراد هنا، الإنزال علی نحو التجلّی، و لیس بصورة التجافی، مثل نزول الثلج والمطر. أی لا یعنی الأمر نفاد المخازن الإلهیة و خلوّها من الموجودات، بعد تنزلها إلی عالم الطبیعة من العالم الأعلی؛ لأن خزائن الله لایعتریها النقصان أو النفاد؛ (ما عِنْدَکُمْ یَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللهِ باقٍ) (۷). والوجود الغیبی لهذه الأشیاء وجود نورانی وتحمّل ذلک أمرٌ غیر میسور للجمیع. من هنا فإن ظهورها فی هذه النشأة اقترن بتنزّل مرتبتها الوجودیة. ولکن حرمة و کرامة الموجودات المتنزلة من الخزائن الإلهیة واحدة بلحاظ تباین درجات تلک الخزائن. مثلما یعتبر الحجر الأسود حالةً خاصةً.

وبناءاً علی ذلک، فإن مجرّد الاستبعاد العلمی لمسألة هبوط الحجر الأسود من الجنّة لا قیمة له؛ لأن دراسة السیر الأفقی للموجودات و ماضیها و حاضرها و مستقبلها الطبیعی یتم فی نطاق العلوم ا لطبیعیة، ولکن السیر العمودی للأشیاء والموجودات والنقاش حول العلة الفاعلیة و الغائیة لها تقع خارج نطاق العلوم الطبیعیة، مهما توصلت هذه العلوم إلی تطورات ملحوظة فی هذا الجانب.

ونستنتج من ذلک أولًا: إن الحجر الأسود من أحجار الجنّة والسماء، کما ورد ذلک فی العدید من الروایات المعتبرة.

ثانیاً: لا یوجد دلیل عقلی أو نقلی یدل علی خلاف ذلک.

وبناءاً علی ذلک، فإن إثبات المسائل الاعتقادیة علی الرغم من أنه لا یمکن أن یتحقق بالاستناد إلی الخبر الواحد، ذلک أنها تحتاج إلی القطع والیقین ولا یمکن الاکتفاء فیها بالظّن، لکن بالمقابل لایوجد أیّ وجه لإنکار تلک الروایات و رفضها.

شهادة الحجر الأسود یوم القیامة

الحجر الأسود کالمسجد، یشهد یوم القیامة لصالح البعض، و هو آیةٌ من آیات الله البیّنات إلی جانب الکعبة (۸)، ویمین الله عزّ وجلّ فی الأرض واستلامه بمنزلة البیعة لله تعالی؛ «هو یمین الله عزّ و جلّ فی أرضه یبایع بها خلقه» (۹).

وکما قال أمیرالمؤمنین الإمام علی ۷ فی ردّه علی من قال عند استلام الحجر: أعلم بأنک لا تضر و لا تنفع ولکنی أحبک لحب رسول الله ۹ لک، فقال ۷: والحجر الأسود من الشهداء أیضاً یوم القیامة؛ «فوالله لیبعثنَّه اللهُ یومَ القیامة و له لسانٌ و شفتان فیشهد لمن وافاه» (۱۰)، کما أکّد الإمام الصادق ۷ فی ردّه علی ذلک الظنّ فقال: «کَذِبَ ثمَّ کذب ثمَّ کذب. إنَّ للحجر لساناً ذلقاً یوم القیامة یشهد لمن وافاه بالموافاة» (۱۱).

تنبیه: هذا النوع من الأحادیث المأثورة، والتی تصرّح بمنفعة الحجر الأسود ونحوه، یعود إلی کونه وسیلة ذات تأثیر معین و الذی تجسّد بلطف الله و برکاته علی هذا الحجر، و عدا ذلک فإن أیّاً من أحجار الکعبة وأمثالها لیست ضارّة بذاتها أو نافعة، کما عبّر أمیرالمؤمنین ۷ بشأن سلب تأثیرها الذاتی فقال ۷: «... أحجار لاتَضُرُّ و لا تنفَع و لا تبصر و لا تسمع» (۱۲).

ألحطیم و حجرُ إسماعیل

«الحطیم» منطقـة محـدّدة بیـن الحجر الأسود، وبـاب الکعبـة و مقـام إبراهیـم ٧، ولکـن قیـل فی بعض الروایـات، بأنهـا المسافـة بین الحجرالأسود وباب الکعبـة فقط (۱۳). وحول السرّ فی تسـمیة هـذا المکان بالحطیم، قال الإمام الصادق ٧: «لأن الناس یحطم بعضـهم بعضاً» (۱۴).

والحطیم أفضل الأماکن حول الکعبـة؛ فبعد أن ذکر الإمام الباقر ٧ حدوده قال موضـحاً هذه القضیة المتعلقة بالحطیم: «إنَّ أفضلَ البقاع ما بین الرکن الأسود و المقام وباب الکعبة، و ذاک حطیم إسـماعیل، ووالله لو أنَّ عبداً صفَّ قدمیه فی ذلک المکان و قام اللیل مصلّیاً حتی یجیئه النَّهارُ و صامَ النهار حتی یجیئه اللیل و لم یعرف حقَّنا و حرمتنا أهلَ البیت، لم یقبل الله منه شیئاً أَبَداً» (۱۵).

والحطیم محـل نزول جبرئیل ٧ و وقوفه بین یـدی بقیـة الله الأـعظم إمـام العصـر والزمـان [. کمـا ورد ذلک عن الإمام الصادق ٧ قال: «عندما یأذن الله سبحانه وتعالی بخروج القائم [... یبعث إلیه جبرئیل ٧؛ فیهبط جبرئیل علی الحطیم ... و یقول: أنا أوّل من یبایعک ...» (۱۶).

ویقول الأستاذ العلامة الطباطبائی ١ کغیره من المحققین: الحطیم هو ذلک الجـدار المقوس إزاء المیزاب الذهبی (۱۷). کما یُفهم من بعض الروایـات أن جماعـة یسـمّون «حجر إسـماعیل» الـذی یقع بین الرکن العراقی و الرکن الغربی بالحطیم. و هـذا ما ورد عن الإمام الصادق ٧ فی جوابه للسائل الذی سأل عن حجر إسماعیل، فقال ٧:

۱- وسائل الشیعة ۴۰۳: ۹- ۴۰۷.

۲- البحار ۴۶۶: ۱- ۴۶۸.

۳- المیزان ۱۹۰: ۲- ۱۹۵.

۴- الحجر: ۲۱.

۵- الزمر: ۶.

۶- الحدید: ۲۵.

۷- النحل: ۹۶.

۸- وسائل الشیعة ۳۴۶: ۹.

۹- المصدر نفسه: ۴۰۵- ۴۰۶.

۱۰- المصدر نفسه: ۴۰۶.

۱۱- المصدر نفسه: ۴۰۶.

۱۲- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲، الفقرة ۵۴ ۵۳. و قـد مرَّ ذکر نص هـذا الحدیث الشـریف و ترجمته فی الفصل الثالث من القسم الأول فی موضوع «صورة الحج فی الروایات». فراجع.

۱۳- الکافی ۵۲۵: ۴؛ وسائل الشیعة ۵۳۹: ۳.

۱۴- وسائل الشیعة ۵۳۹: ۳.

۱۵- وسائل الشیعة ۱۲۳: ۱.

۱۶- البحار ۳۳۷: ۵۲- ۳۳۸.

۱۷- المیزان ۳۶۰: ۳.

ص: ۷

«إنَّکم تسمونَهُ الحطیمَ، وَانّما کان لغَنَم إسماعیلَ، وَانَّما دَفَنَ فیه أمَّهُ و کرهَ أن یُوطَأَ قَبرها فحجَر علیه، و فیه قبورُ أنبیاء» (۱).

ومن بین الوجوه المحتملة بشأن السرّ فی تسمیة الحطیم بهذا الإسم، والذی اشیر الیه أیضاً فی الروایة المذکورة، أن النبی إبراهیم ۷ کان یهشّم (۲) التبن والعلف هناک لإطعام أغنامه، ویسمّون العلف بالحطیم والتبن بالحطام؛ لأن المحطوم هو الذی تم تهشیمه وتکسیره. ونقلت فی بعض الکتب اللغویة وجوه أخرى أیضاً فی سبب تسمیة حجر إسماعیل بالحطیم. وفیها: أن هذا الجزء قد فُصِلَ و کُسِرَ عن البیت. والآخر أن الأعراب فی الجاهلیة، کانوا یلقون الملابس التی کانوا یلبسونها حال الطواف فی ذلک المکان و کانت تتحطم و تبلى تدریجیاً (۳).

«حجر إسماعیل» الذی یعدّ من آیات الله البینات (۴)، هو مدفن إسماعیل ومجموعة أخرى من أنبیاء الله (۵)، و هو مدفن أم إسماعیل و بناته:، و قد حجر ۷ أطراف قبر أمه هاجر کی لا یطأه الطائفون (۶)، و حجر إسماعیل لیس قبلة ولکنه فی ضمن المطاف کالکعبة، احتراماً لتلک القبور، و الطواف فی داخله باطل.

وحجر إسماعیل من أفضل الأماکن فی المسجد الحرام لأداء الصلاة فیها (۷). کما کان المکان الذی یصلی فیه شبر و شبیر أولاد هارون ۷ (۸)، وصلّى فیه الأئمة المعصومون: أیضاً (۹)، وکانوا یدعون الله فیه بخالص الدعاء (۱۰). کما کانوا یستقبلون الناس هناک ویجیبون على أسئلتهم واستفساراتهم (۱۱). و قد نصب میزاب الکعبة فوق حجر إسماعیل. وقد ورد الحدیث فی بعض الروایات، عن الشفاء بماء المطر الذی ینزل من هذا المیزاب (۱۲). وآخر الکلام عن حجر إسماعیل أنه یستحب للحاجّ أن یُحرم منه.

مقام إبراهیم ۷

إحدى العلامات والآیات البیّنات لله تعالى فی مکة «مقام إبراهیم». مثلما أشار الإمام الصادق ۷ فی بیان المراد من کلمة «بیّنات» فی الآیة المبارکة: فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ (۱۳)، فقال ۷: «مقام إبراهیمَ حیث قامَ على الحجر فأثَّرت فیه قدماه، و الحجر الأسوَدُ، و منزِلُ إسماعیل ۷» (۱۴). و کان هذا الحجر موضوعاً فی البدایة على وجه الأرض بشکل طلیق إلى جوار الکعبة. ثم وضعوه فی الملتزم لکی لاینقل من مکانه. و موضع المقام الآن مُبرَّزٌ أیضاً وموضوع بداخل صندوق معدنی، ومنقوش على جبهة الشریط المعدنی الذی وضع الحجر على حافته جملة نورانیة تقول: وَ لا یَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ (۱۵) حیث یمکن رؤیتها و قراءتها من قبل الجمیع بکل وضوح، مما یدلل على حُسن تدبیر المسؤولین عن الحرم.

مسألة تغییر مقام إبراهیم وردت فی بعض الأحادیث؛ حیث قال الإمام الباقر ۷:

کان المقام فی البدء، بالقرب فی جدار الکعبة. و قاموا بنقله قبل الإسلام إلى موضعه الحالی. وأعاده الرسول الأکرم ۹ بعد فتح مکة إلى موضعه الأصلی، ولکن تغیّر مکانه مرةً أخرى فی عصر الخلفاء: «کانَمَوضعُ المقام الذی وَضَعَهُ إبراهیم ۷ عِندَ جِدارِ البیتِ فلم یزل هناکَ حَتّى حَوَّلَهُ ...». ولکن بما أنَّ الوضع الموجود اقِرَّ من قبل الأئمة المعصومین: ولم ینتقد أهل بیت النبوة: ما یترتب على هذا الوضع من حکمٍ فقهی، نفهم من ذلک أن إقامة صلاة الطواف عند الموضع مبرءة للذمة.

وقد قال الإمام الباقر ۷ فی صدر الروایة المذکورة: فی السنة التی جرف فیها السیل المسجد الحرام کنت فی مکة مع الإمام الحسین ۷ (۱۶). و خاطب الإمام الحسین ۷ الناس الذین کانوا خائفین من زوال مقام إبراهیم ۷ قائلًا: اعلموا! أنّ السیل لن یجرف مقام إبراهیم أبداً؛ لأن الله قد جعله عَلَماً وآیةً له؛ «أنَّ الله قد جَعَلَهُ علماً لم یکن لیذهَبَ به» (۱۷).

الملاحظة الجدیرة بالإشارة هنا، أنه لایمکن اعتبار جمیع الآیات التی وردت بشأن مکة على أنها وردت من باب المعجزة وخلافاً للعادة و الطبیعة، استناداً إلى هذه الآیة المبارکة فی قوله تعالى: فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ بما فیها هذه الآیة الشریفة؛ لأن المراد بالآیة، لیس فقط المعجزة من قبیل معجزة ناقة صالح ۷، و شقّ القمر و نحو ذلک، بل الآیة بمعنى العلامة والأمارة التی تدلّ على الحق وتذکّر الناس بذلک، سواء کانت تکوینیة أم تشریعیة أم کلیهما معاً. وکما قال بعض المفسرین: إن جملة وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً هی من باب التفصیل

بعد الإجمال ومصداق لآيات بينات مذكِّرَةً بالحق و من العلامات الإلهية، دون أن يكون فى البين أمرٌ خارقٌ للعادة.

فإذا صارَ «مقام إبراهيم» بياناً لقوله تعالى: فِيهِ آياتٌ بيِّناتٌ، فإن المستفاد منه ما يلى: كما أن إبراهيم ٧ كان لوحده أمة؛ إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلهِ حَنِيفاً (١٨)، فإن آثار أقدامه و مقامه أيضاً لوحدهما آيات بيّنات و «أمة واحدة» فى موضوع الإعجاز (١٩).

ولعل السرّ فى التعبير بصيغة الجمع يتمثل فى أنّه:

أوّلًا: إن الحجر الصلد والقوى أصبح كالعجين فى تغيير شكله.

ثانياً: المكان المحدد لذلك أصبح على شكل العجين، و ليس كل الحجر.

ثالثاً: تقبّله لآثار الأقدام إلى عمق معين والبقيّة بقيت بحالتها الصخرية.

رابعاً: بقى محفوظاً من سرقة جميع الطغاة الذين أرادوا إخفاء هذا الأثر ومحوه.

خامساً: بقى محفوظاً من سرقة سرّاق القطع الفنية والأثرية الذين هم بصدد سرقة المواد النفيسة ذات القدم و القدامة (٢٠).

١- وسائل الشيعة ٤٣١: ٩.

٢- البحار ٨۶: ۶۵.

٣- لسان العرب ١٣٧: ١٢- ١۴٠ حطم.

۴- الكافى ٢٢٣: ۴.

۵- وسائل الشيعة ۴٣٠: ٩.

۶- الكافى ٢١٠: ۴.

٧- الكافى ۵٢۵: ٣؛ وسائل الشيعة ۵٣٩: ٢.

٨- وسائل الشيعة ۵٣٩: ٢.

٩- الكافى ١٨٨: ۴؛ وسائل الشيعة ٢٧۴: ۵.

١٠- الكافى ٢١: ٧.

١١- المصدر نفسه ٢۶٠: ١، ٣٧٩، و ٢١: ٧ و ٢٣٢: ٨ و ٢٧١؛ وسائل الشيعة ۴١٩: ١٣.

١٢- الكافى ٣٨٧: ۶.

١٣- آل عمران: ٩٧.

١۴- الكافى ٢٢٣: ۴.

١۵- البقرة: ٢۵۵.

١۶- كما مرَّ، فإن هذه الرواية بحاجة إلى تحقيق تاريخى من حيث مقدار عمر الإمام الباقر ٧.

١٧- الكافى ٢٢٣: ٢.

١٨- النحل: ١٢٠.

١٩- الكشاف ٣٨٧: ١.

٢٠- المصدر نفسه: ٣٨٧- ٣٨٨، مع قليل من التصرف.

ص: ۸

والـذین یقولون بـأن قوله تعـالی: آیاتٍ بَیِّناتٍ إنما هو إشارهٌ لآیاتٍ أخری متعـددهٔ، وبالإضافـهٔ إلی مقام إبراهیم وجعل هـذا البلـد آمناً بسـکانه و زائریه، فـإنهم ذکروا أموراً أخری أیضـاً من الآیات العلنیـهٔ لله سـبحانه وتعالی فی مکـهٔ و الحرم الإلهی، والتی لم یتم ذکرها بشکل منفصل بسبب وضوحها وعدم تصریح الله سبحانه وتعالی بها (۱)؛

أموراً من قبیل: ۱- عـدم تحلیق الطیور فوق الکعبهٔ و انحرافها أثناء الطیران عن فضاء الکعبهٔ، ۲- عدم تلویث الطیور للکعبهٔ، ۳- تعایش أنواع الحیوانات فی الحرم و عـدم تعرض الحیوانات المفترسهٔ لغیرها، ۴- تورط الظلمـهٔ الذین أرادوا سوءاً بالکعبهٔ و قهرهم من قبل الله تعالی، مثل أصحاب الفیل، ۵- عدم إصابهٔ الحجیج بالتعب والإرهاق النفسی، علی الرغم من مجیئهم من أماکن بعیدهٔ و بصعوبهٔ بالغهٔ و بشکل متکرر أیضاً.

وبناءاً علی ذلک، ولغرض بیان أهمیـهٔ مقام إبراهیم خاصـهٔ، فإن الله سـبحانه وتعالی یذکر مقام إبراهیم ۷ بشـکل مستقل، من باب ذکر الخاص بعد العام، بعد ذکر الآیات الأخری علی وجه العموم.

کیفیهٔ تکوّن مقام إبراهیم

هناک عدهٔ احتمالات بشأن کیفیهٔ تکوّن مقام إبراهیم ۷ ومنها:

۱- وقوف النبی إبراهیم ۷ علی هـذا الحجر أثناء القیام ببناء الکعبـهٔ. وعن طریق الإعجاز الإلهی أصبح الحجر آنذاک لیناً و قابلًا لبروز الآثار علیه؛ فبقی أثر الأقدام علیه (۲).

۲- عنـدما عاد للمرهٔ الثانیـهٔ إلی مکـهٔ قالت زوجهٔ إسـماعیل ۷: ترجّـل کی أغسـل رأسک، وعنـدما ترجّلَ ۷، وضع قـدمه علی الحجر وأحدث أثراً فی ذلک الحجر (۳).

وعلی أیهٔ حال، فإن حقیقهٔ وضع إبراهیم ۷ قدمه علی الحجر الصلد وانغماس أثر قدمه المبارکهٔ و بقاء هذا الأثر فی ذلک الحجر.. یعدّ من الأمور المسلّم بها والتی اعتبروها معجزهٔ له ۷ (۴).

وقد ورد ذکر مشابهٍ لهذه الخاصـیّهٔ، بشأن النبی داود ۷، إذ إن الله سـبحانه وتعالی جعل الحدید البارد الصلد بیده لیّناً کالشمع؛ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِیدَ (۵). والملاحظـهٔ التی یجـدر الإشارهٔ لها هنا، أنه ورد حـدیث عن التعلیم فی مسألهٔ صـناعهٔ الحدید؛ قال تعالی: وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَهَ لَبُوسٍ لَکُمْ (۶)؛ لأنـ صـناعهٔ الـدروع یمکن تعلیمهـا و نقلها للآخرین کما هو الحال فی سائر العلوم والمهن الأخری، علی العکس من عملیهٔ إلانهٔ الحدید البارد و القوی بواسطهٔ الید. ومن هنا لم یقل تعالی: «وَعلّمناه إلانهٔ الحدید». ویصدق هذا الأمر بشأن مقام إبراهیم ۷ أیضاً، مع وجود هذا الفرق حیث إن الحدیث هنا یتعلق ب- «وألنّا له الحجر».

وبقیت «آثار» کلتا قدمی إبراهیم ۷ المبارکتین محفوظتین فی مقام إبراهیم ۷ (۷) کما کان الحدید یحافظ علی «بدن» داود ۷.

ملاحظهٔ

قال الإمام السجاد ۷: «أفضل البقاع ما بین الرکن و المقام ...» (۸) أی إن المسافهٔ ما بین الرکن (الحجر الأسود) إلی مقام إبراهیم، هی من أفضـل الأمـاکن، و روی عن الإمام الباقر ۷ أنه قـال: «أنَّ ما بین الرکن و المقام لمشـحونٌ من قبور الأنبیاء» (۹). و هذا المکان، هو منطلق حرکهٔ الإمام الحجهٔ [العالمیهٔ. ویقول الإمام الباقر ۷ بهذا الشأن: «کَأنّی بالقائم یومَ عاشورا یوم السبت، قائماً بین الرکن و المقام، بین یدیه جبرئیلَ ۷ ینادی: البیعهٔ لله. فیملأها عدلًا کما مُلِئَت ظلماً وجوراً» (۱۰).

تنبیه

ومقام إبراهیم ۷ یطلق أیضاً علی قطعـهٔ الأرض التی یقع فیها مقام إبراهیم ۷ فی المسجد الحرام، وهی محل صلاهٔ الطواف (۱۱). مثلما یطلق أحیاناً علی الکعبهٔ أیضاً (۱۲).

زمزم

تدفّق ماء زمزم ببركة ذريّة إبراهيم الخليل ۷؛ لأنه ۷ ترك وليده وأمه هاجر بوادٍ غير ذی زرع وضرع فی أرض مكة بأمر الله سبحانه و تعالی. و علی أثر عطش الوليد، أخذت أمه تبحث عن الماء و تدعو و تنادی: «هل بالوادی من أنيس؟»، فأخذت تسعی بين الصفا و المروة سبع مرات ذهاباً وإياباً. وفجأةً رأت تحت أقدام الوليد عيناً ينبع فيها الماء (۱۳)

ولا زال ذلك الماء يتدفق لحد الآن بعد مضی آلاف السنين عليه، علی الرغم من أنه تمّ حفر آبار إضافية أخری فی ذلك الوادی، هذا أولًا،

وثانياً: إن مكة ليس بلداً تسقط عليها الثلوج، كما أن أمطارها ليست غزيرة، لكی يصبح تدافع الماء من زمزم علی أساس قوله تعالی: فَسلكه ينابيع فی الارض (۱۴). وبناءاً علی ذلك، فإن تدفّق ماء زمزم واستمراره آلاف السنين علی ذلك فی بلدٍ مثل مكة، وما فيه من صفة الشفا وصيانته من الفساد (۱۵)، كل واحدة من هذه الأمور هی معجزة بحد ذاتها، لذا يمكن القول بأن زمزم هو مصداق ل- آياتٍ بيّناتٍ لوحده؛

۱- روضة المتقين ۱۱۳: ۴- ۱۱۴.

۲- المصدر نفسه: ۱۱۴.

۳- البحار ۱۱۶: ۱۲- ۱۱۷.

۴- التبيان ۴۵۲: ۱؛ التفسير الكبير ۵۰: ۳.

۵- سبأ: ۱۰.

۶- الأنبياء: ۸۰.

۷- نقل عن أنس به مالك أنه قال: رأيت أثر أصابع و عمق القدم فی الحجر، ولكن مُسح واستوی بسبب المسح بأيدی الناس التحرير و التنوير ۶۸۱: ۱.

۸- من لايحضره الفقيه ۲۴۵: ۲.

۹- الكافی ۲. ۲۱۴: ۴.

۱۰- البحار ۲۹۰: ۵۲.

۱۱- المصدر نفسه ۲۴۱: ۹۶.

۱۲- التحرير و التنوير ۶۸۱: ۱.

۱۳- استناداً لبعض الروايات، فإن إبراهيم ۷ هو الذی حفر بئر زمزم بأمر الله سبحانه وتعالی الكافی ۲۰۳ ۲۰۲: ۴.

۱۴- الزمر: ۲۱.

۱۵- من مجموع التجارب الفردية وما كان يقوم به المؤمنون و بخاصة خاتم الرسل ۹ تجاه ماء زمزم و تقديمه كهدية، نلاحظ أن ذلك الماء غالباً ما كان يبقی لفترة طويلة من الزمن، لذا يمكن القول بأن ماء زمزم لايفسد بسرعة.

ص: ۹

وقال الرسول الأکرم ۹: «ماء زمزم، أفضل ماءٍ علی وجه الأرض» (۱)، و قال أیضاً:

«ماء زمزم لما شُرِبَ له؛ من شربه لمرضٍ شفاه الله أو لجوعٍ أشبعه الله أو لحاجةٍ قضاها الله» (۲). و کان یقول بعد شرب ماء زمزم: «اللهم إنی أسألک علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاءً من کل داءٍ و سقمٍ» (۳).. و قال الإمام الصادق ۷ بشأن الشفاء من ماء زمزم: «ماء زمزم شفاءٌ من کل داءٍ» (۴).

من هنا، یستحب استحباباً مؤکداً أن یشرب حجاج بیت الله الحرام من ذلک الماء، والتأسی برسول الله ۹ بقراءة هذا الدعاء: «اللهم اجعله علماً ...» (۵).

وکان الرسول الأکرم ۹ یستعمل ماء زمزم فی مکة، وبعد أن هاجر إلی المدینة المنورة کان یستهدی ماء زمزم من الآخرین لشدة تعلقه به. ولهذا السبب کان الزائرون یجلبون معهم ماء زمزم عند عودتهم من مکة هدیة للرسول الأکرم ۹ وکان یقبل منهم الهدیة (۶).

ملاحظة

من أسماء زمزم الأخری، حفیرة عبدالمطلب، المضنونة والمصونة (۷). والسرّ فی تسمیة بئر زمزم بالمضنون (۸) أو المصون أنه فی برهةٍ من التاریخ و منذ أن استولت قبیلة خزاعة علی مکة، دفنوا هذا البئر وأخمدوه، إلی أن تولّی عبدالمطلب شؤون مکة و أمر بإعادة حفره (۹) غارت البئر و لم ینبع منها الماء.

إذن، فالسرّ وراء اشتهارها ببئر عبدالمطلب یعود إلی أن عبدالمطلب هو الذی أعاد فتح البئر وترمیمه.

الصفا و المروة

الصفا و المروة اسمان لجبلین بالقرب من الکعبة. وهذان الجبلان من شعائر الله تعالی: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ (۱۰).

والسرّ فی تسمیة الصفا بهذا الاسم أنه اکتسب تسمیته من وصف الأنبیاء وبخاصة آدم ۷، و هم الذین اصطفاهم الله تعالی: إِنَّ اللهَ اصْطَفی آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِیمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَی الْعالَمِینَ (۱۱).

قال الإمام الصادق ۷: بعد أن هبط آدم ۷ علی جبل الصفا وهو من صفوة الله تعالی، فإنّ الجبل صفا من صفوة الله واصطفاء آدم ۷ (۶۹).(۱۲).

وعلیه؛ فإن الذی یکسب الصفا من هذا الجبل هو ممن اصطفاه الله تعالی: اللهُ یَصْطَفِی مِنَ الْمَلائِکَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ (۱۳).

وقال الإمام الصادق ۷ بشأن السرّ فی تسمیة المروة بهذا الاسم: بعد أن نزلت حواء ۳ وهی امرأة علی جبل المروة، سمی ذلک الجبل «المروة» (۱۴).

وقال بعض اللغویین: إن الصفا حجر أملس (۱۵)، والمروة یطلق علی الحجر الناعم البرّاق، وتسمیة الجبلین بالصفا و المروة إنّما هو بلحاظ نوع أحجارهما (۱۶).

ونصب فی الجاهلیة اثنان من الأصنام علی قمة الصفا والمروة، و اسمهما «أساف» (أثاف) و «نائلة» (۱۷) حیث کان الناس یتمسحون بهما تبرکاً أثناء السعی (۱۸). ولهذا السبب کان بعض المسلمین فی صدر الإسلام یتجنب السعی بین الصفا و المروة. و لغرض إزالة هذا الوهم وتحاشیه قال الله سبحانه و تعالی: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما.

ومن هذا المنطلق فإن الصفا والمروة کالکعبة؛ لأنهم جعلوا الکعبة فی الجاهلیة مقراً لأصنامهم غصباً، ولا ینبغی اعتبار ذلک مانعاً للطواف حول بیت الله.

والصفا و المروة من الرموز العبادیة کسائر أماکن الحج ومناسکه؛ إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِاللهِ، والشعائر جمع «شعیرة» بمعنی العلامة. ولکن لیس معنی ذلک أن الصفا والمروة، هما من العلائم و الرموز التکوینیة للحق تعالی فقط؛ لأنه بلحاظ التکوین، تکون جمیع الموجودات من شعائر الله. فالصفا والمروة مثلها کمثل الکعبة وعرفات والمشعر و منی، شعائر جعلیة و تشریعیة و علائم عبادیة.

عرفات

عرفات، منطقـة خارج دائرة الحرم و بالقرب من المشـعر الحرام الـذی یقع فیه «جبل الرحمة» و «مسـجد نمرة». والوقوف فی هذه البقعة من ظهیرة الیوم التاسع من شهر ذیالحجة الحرام إلی غروبه واجب علی الذین عقدوا الإحرام لأداء حج التمتع، و هو من أرکان الحج.

وهناک عدة وجوه وردت حول السرّ فی تسمیة هذه البقعة باسم عرفات:

۱- أنّ آدم و حواء ۸ تعرّفا علی بعضهما البعض بعد الهبوط فی تلک البقعة (۱۹).

۱- الکافی ۲۴۶: ۳.

۲- البحار ۴۵: ۵۷.

۳- الکافی ۲۵۰: ۴.

۴- المصدر نفسه ۳۸۷: ۶.

۵- المصدر نفسه ۴۳۰: ۴.

۶- وسائل الشیعة ۳۵۰: ۹- ۳۵۱.

۷- المصدر نفسه: ۳۵۱ و ۵۱۵- ۵۱۶.

۸- «ضنَّ» بمعنی بخل و الشیء الثمین والنفیس إذا بخل به یسمی مضنوناً.

۹- الکافی ۲۲۰ ۲۱۸: ۴.

۱۰- البقرة: ۱۵۸.

۱۱- آل عمران: ۳۳.

۱۲- الکافی ۱۹۰: ۴؛ البحار ۱۶۲: ۱۱ و ۱۶۹.

۱۳- الحج: ۷۵.

۱۴- الکافی ۱۹۰: ۴.

۱۵- لسان العرب ۴۶۲: ۱۴- ۴۶۴ صفا.

۱۶- لسان العرب ۲۷۵: ۱۵- ۲۷۶ مرا.

۱۷- البحار ۲۳۵: ۹۶.

۱۸- الکافی ۴۳۵: ۴ «البقرة: ۱۵۸».

۱۹- البحار ۲۴۲: ۴۴ و ۲۴۵: ۵۷.

ص: ۱۰

۲- أنهما اعترفا بذنبهما في تلك البقعة (۱).

۳- أن جبرئيل ۷ عند تعليمه مناسك الحج لإبراهيم ۷، قال له: اعترف بذنوبك بين يدی الله في هذه البقعة (۲).

۴- عندما طلب النبي إبراهيم ۷ من الله سبحانه و تعالى أن يُريَهُ مناسك الحج و يتعلّمها، أرِنَا مَنَاسِكَنا (۳)، نزل جبرئيل ۷ إلى أرض عرفات وكان مأموراً بتعليم إبراهيم الخليل ۷ مناسك الحج، فقال له: «هذه عرفاتٌ فاعرف بها مناسكك واعترف بذنبك» (۴).

وبناءاً على هذا الوجه، فإن سبب تسمية تلك الأرض بعرفات أن جبرئيل ۷ أشار إلى تلك الأرض باسم عرفات.

۵- أن إبراهيم ۷ قد رأى في المنام قبل يوم التاسع من ذي الحجّة أنه يذبح إسماعيل ۷. وبعد أن أفاق من نومه اعترته حالة من التروّي والتفكير، فيما إذا كانت هذه الرؤيا من الله و بمنزلة الأمر السماوي أم لا؟!

من هنا يسمى اليوم الثامن ب- «يوم التروية». وإن كان من المحتمل أن يكون السرّ في تسميته بيوم التروية أنه في ذلك اليوم كانوا يخزنون الماء لسقاية الحاج، لكي يسقون الحجيج بالماء في عرفات والمشعر ومنى. وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق ۷ فقال: «إنّ إبراهيم أتاه جبرئيل عند زوال الشمس من يوم التروية فقال: يا إبراهيم! ارتو من الماء لك و لأهلك. و لم يكن بين مكَّةَ و عرفاتِ يومئذٍ ماء، فسُمِّيت التروية لذلك» (۵).

وتكررت الرؤيا المذكورة لإبراهيم ۷ في ليلة التاسع من ذي الحجة مرة أخرى. وعليه فقد أصبح لزاماً عليه أن يذبح ابنه إسماعيل ۷. وتحققت هذه المعرفة في اليوم التاسع وفي أرض عرفات؛ ولهذا السبب سمي ذلك اليوم بيوم «عرفة» وسميت تلك الأرض ب- «عرفات» (۶).

المشعر الحرام

يقع المشعر الحرام ومنى ضمن حدود الحرم في الحد الفاصل بين مكة و عرفات. و يفيض الجميع من عرفات باتجاه المشعر الحرام بعد غروب الشمس في اليوم التاسع من ذي الحجة في نهاية نصف يومٍ من الوقوف في عرفات ويمضون الليل هناك.

ويسمّون المشعر ب- «المزدلفة» و «جمع» أيضاً، وطبقاً لما ذكره الإمام الصادق ۷ فإن السرّ في تسمية تلك البقعة ب- «المزدلفة» يعود إلى أنّ جبرئيل ۷ في استمراره بتعليم المناسك لإبراهيم ۷ قال له: «يا إبراهيم! إزدلف إلى المشعر الحرام» (۷). كما قال ۷: «وسميت هذه البقعة ب- «جمع» ذلك أن آدم ۷ جمع بين صلاة المغرب و العشاء فيها، وصلّى المغرب والعشاء فيها، وصلّى كلاهما في وقت واحد» (۸).

وعلى طول القرون الماضية يتوجه آلاف الزائرين إلى تلك البقعة، و كل زائر يأخذ على الأقل تسعاً وأربعين حصاة من ذلك المكان لرمي الجمرات. من هنا كان من آيات الله البينات في أرض المشعر أنّ المنطقة على الرغم من أنها ليست مكاناً لحدوث الفيضانات و عبور السيول لكي يظهر بواسطتها الحصى الناعم، لكن مع ذلك توفر كل ذلك الحصى الناعم دائماً، ولم ينفد لحد الآن.

منى

مع شروق شمس اليوم العاشر من ذي الحجة، يرد الحجيج إلى منطقة «منى» لأداء بعض المناسك الخاصة. و حدود منطقة منى تمتد من «العقبة» إلى «وادي محسَّر».

وحول مصدر تسمية هذه المنطقة باسم منى قال الإمام الصادق ۷: «إنّ جبرئيلَ ۷ أتى إبراهيم ۷ فقال: تمنّ يا إبراهيم!» (۹). و قال الإمام علي بن موسى الرضا ۷: «كانت أمنية إبراهيم ۷ والتي أعطاه الله إياها ابتداءً بأن يأمره الله سبحانه و تعالى بذبح كبشٍ بدلًا عن إسماعيل ۷» (۱۰).

وطبقاً لما نقله الطريحي/ فإن منشأ تسمية منى بهذا الاسم، يعود إلى أن الدماء تمنى وتراق في هذه البقعة. وكذلك فإن جبرئيل ۷ عند مفارقته لآدم ۷ قال له: تمنّ شيئاً. فقال آدم ۷: أتمنّى الجنّة (۱۱).

وتقع أماکن الجمرات الثلاث، ومکان التضیحة ومسجد الخیف، فی منی، و استناداً إلی بعض الروایات فإن سبعمائة نبی صلّی فی هذا المسجد (۱۲). ویقع فی مکان مرتفع نسبیاً، ولهذا السبب سمی ب- «الخیف» طبقاً لما جاء فی قول الإمام الصادق ۷؛ حیث إنّ الأرض المرتفعة نسبیاً عن الأراضی المحیطة بها، تسمی خیفاً (۱۳).

یقول الفخر الرازی عن آیات الله سبحانه و تعالی فی أرض مکة وبخاصة فی منی: فی کل عام یقوم ستمائة ألف شخص (فی ذلک الوقت) برمی سبعین حصیّة فی الجمرات، ولکن من کرامات هذه الأرض أنه لا یمضی وقت طویل حتی یعود التقاط الحصیات منها بعد أن تکون قد خلت منها (۱۴). ولکن فی السنوات الأخیرة یقوم موظفوا الدولة بتنظیف أطراف الجمرات وتسویتها، بینما لم یکن الأمر کذلک آنذاک.

ویوجد فی منی مسجدٌ یعرف باسم مسجد الکبش. والسرّ فی تسمیته بالکبش أن کبش الأضحیة وفداء إسماعیل ۷ قد ذبح فی ذلک المکان (۱۵).

وکان إلی جانب هذا المسجد صخرةٌ ذبح علیها الفداء المذکور (۱۶). و نقل عن أمیرالمؤمنین الإمام علی ۷ أنَّ ذبح الفداء کان بین الجمرة الأولی و الجمرة الوسطی علی سفح الجبل المقابل، أی «جبل ثبیر»، ولیس فی المکان السابق. وما یؤید هذا النقل، روایة عن ابن عباس أنّه قال: ضحّی

۱- المصدر نفسه ۱۶۸: ۱۱.

۲- المصدر نفسه ۳۰۷: ۴.

۳- البقرة: ۱۲۸.

۴- الکافی ۲۰۷: ۴.

۵- المصدر نفسه.

۶- الدر المنثور ۱۱۱: ۷.

۷- البحار ۲۶۶: ۹۶.

۸- المصدر نفسه.

۹- البحار ۲۷۱: ۹۶- ۲۷۲.

۱۰- المصدر نفسه.

۱۱- مجمع البحرین ۲۱۴: ۳.

۱۲- الکافی ۲۱۴: ۴.

۱۳- البحار ۲۷۱: ۹۶- ۲۷۲.

۱۴- التفسیر الکبیر ۱۵۹: ۸.

۱۵- مرآة الحرمین ۳۲۶: ۱.

۱۶- المصدر نفسه.

ص: ۱۱

الرسول الأكرم ۹ فی الموضع الذی ضحّی فیه إبراهیم ۷ فاتخذوه موضعاً للذبح، وکلّ أرض منی هی موضعٌ للذبح. وکان موضع ذبح أضحیهٔ الرسول الأکرم ۹ بین الجمرهٔ الأولی والوسطی (۱).

۱- المصدر نفسه.

ص: ١٢

ص: ۱۳

ص: ۱۴

ص: ۱۵

حجة الوداع ... خطب و إرشاد

الشيخ جعفر السبحانى

المقدّمة

فى السنة العاشرة للهجرة عزم رسول الله ۹ على أن يحج بيت الله الحرام، فخرج لخمس بقين من ذى القعدة، و وصل مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة. (۱)

و كان رسول الله ۹ قد حرّض المسلمين على الحج، و قال: «من أراد الحج فليتعجّل، فإنّه قد يمرض المريض، و تضلّ الضالّة، و تعرض الحاجة» (۲).

و بعد أن أمر الله تعالى نبيه بالأذان و الإعلان للحج، أمر النبى ۹ المؤذّنين أن يؤذّنوا بذلك بين المسلمين، و كتب إلى على بن أبى طالب ۷ و جنده، و إلى أبى موسى الأشعرى و أتباعه فى اليمن أن يلتحقوا به ۹ فى مكة المكرّمة.

۱- السيرة النبويّة لابن هشام ۲۴۸: ۴.

۲- مسند أحمد بن حنبل ۴۵۸: ۱؛ سنن ابن ماجة ۹۶۲: ۲؛ المعجم الكبير للطبرانى ۲۹۶: ۱۸؛ السنن الكبرى للبيهقى ۴۶۳: ۶.

ص: ۱۶

و الظاهر أنّ بداية هذا الإخبار والإعلام كانت فى أوائل ذى القعدة الحرام، فقد قال ابن إسحاق: فلمّا دخل على رسول الله ٩ ذو القعدة تجهّز للحج، و أمر الناس بالجهازله (۱).

وخرج النبى الأكرم ٩ من المدينة مغتسلًا متدهناً و خرجت معه نساؤه كلهنّ، و تبعه جمّ غفير من المسلمين الذين حرصوا على مرافقته من المدينة ليتشرّفوا بصحبته.

قال الإمام جعفر الصادق ٧: «فعلم به من حضر المدينة و أهل العوالى والأعراب فاجتمعوا، فحجّ رسول الله ٩، وإنّما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون ويتبعونه، أو يصنع شيئاً فيصنعونه (۲).

وروى عن جابر بن عبدالله الأنصارى أنّه قال: فقدم المدينة بشر كثير كلّهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله ٩ و يعمل مثل عمله (۳).

وكان المسلمون يتوقعون هذا السفر، ليتعلّموا مناسك الحج، فأىّ منسك أدّاه رسول الله ٩ فهو من الحج الإبراهيمى، و ما تركه فهو من أعمال الجاهلية الأُولى.

ويتجلّى هذا التهيّؤ و الانتظار فى رغبتهم و شوقهم و اجتماعهم العظيم حتّى سلكوا طريق مكة رجالًا و ركباناً، طريقاً يقرب من ألف كيلومتر ذهاباً و إياباً.

وقد اختلف المؤرّخون والمحدّثون فى عدد المسلمين آنذاك، فمنهم من قال: إنّهم كانوا مئة و عشرين ألفاً (۴).

وقال المقريزى فى وصف خطبة النبى ٩ فى يوم عرفة: فإنّه شهد الخطبة نحو من أربعين ألفاً (۵).

وقال الطبرسى: وبلغ من حج مع رسول الله ٩ من أهل المدينة و أهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون (۶).

ثم إنّ رسول الله ٩ بعد أن أتم الحج غادر مكة المكرمة متوجّهاً إلى المدينة فى الليلة الرابعة عشرة من ذى الحجة الحرام، فدخلها فى الثالث و العشرين منه.

وخلال مسيرته هذه، كانت له وقفات فى العديد من الأماكن التى مر بها و شهدت له إلقاء الخطب الرائعة و التوجيهات التربوية و الحضارية السامية، والإرشادات التعليمية حيث إنّه كان يجسّد عملياً أهداف الحج التى أرادها الله تعالى من هذه الفريضة الإسلامية الهامة.

وسوف نشير فى هذه الرسالة بالإيعاز الموجز و الإشارة العابرة إلى خطبه و كلماته التى ألقاها فى هذه الرحلة التاريخية، و ننوّه إلى ما تضمّنته كلّ منها إلى مبادئ الإسلام و أُصوله و مقاصد الشريعة و أهدافها.

عدد خطبه ٩ فى حجة الوداع

اختلف أصحاب السير و المؤرّخون فى عدد الخطب التى ألقاها النبى الأكرم ٩ فى حجة الوداع.

فقد قال الحلبى فى السيرة: خطب رسول الله ٩ فى الحجّ خمس خطب: الأُولى يوم السابع من ذى الحجّة بمكّة، و الثانية يوم عرفة، و الثالثة يوم النحر بمنى، و الرابعة يوم القرّ (۷) بمنى، و الخامسة يوم النفر الأوّل بمنى أيضاً (۸).

ويقول المقريزى: خطب ٩ فى حجّته ثلاث خطب: الأُولى قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكّة، و الثانية يوم عرفة بعرفة حين زاغت الشمس على راحلته قبل الصلاة، و الثالثة يوم النحر بمنى بعد الظهر على راحلته القصواء. و قيل: بل خطب الثانية ثانى يوم النحر.

ثم قال: و قال المحب الطبرى: دلّت الأحاديث على أنّ الخطب فى الحج خمسة؛ خطبة يوم السابع من ذى الحجة، و خطبة يوم عرفة، و خطبة يوم النحر، و خطبة القرّ، و خطبة يوم النفر الأوّل (۹).

و مهما كان الحال فعلينا أن نورد ما ذكرته كتب التاريخ و الحديث من خطبه و كلماته ٩، وقد رتّبناها حسب زمانها و مكانها، فكانت كما يلى:

۱- خطبته ٩ فى اليوم السابع و الثامن من ذى الحجة

قال الواقدى فى مغازيه: خطب رسول الله ٩ قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكّة (١٠).

وقال الحاكم النيسابورى فى مستدركه: كان رسول الله ٩ إذا كان قبل التروية بيوم خطب الناس فأخبرهم بمناسكهم (١١).

وجاء فى صحيحة معاوية بن عمّار الطويلة عن الإمام جعفر الصادق ٧: «فلمّا كان يوم التروية عند زوال الشمس أمر ٩ الناس أن يغتسلوا و يهلّوا بالحجّ، و هو قول الله عزّ و جلّ الذى أنزل على نبيّه: فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً (١٢) فخرج النبىّ ٩ وأصحابه مهلّين بالحجّ حتّى أتوا منى، فصلّى الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخرة و الفجر، ثمّ غدا و الناس معه» (١٣).

١- السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٨: ۴.

٢- الكافى للكلينى ٢۴۵: ۴؛ تهذيب الأحكام للطوسى ۴۵۴: ۵.

٣- صحيح مسلم ٧٢۴: ٢؛ المغازى للمقريزى ١٠٨٨: ٢.

۴- تذكرة الخواص: ٣٠.

۵- إمتاع الأسماع ١١٢: ٢.

۶- الاحتجاج للطبرسى ١٣۴: ١.

٧- مراده من يوم القرّ اليوم الحادى عشر من ذى الحجّة.

٨- السيرة النبوية للحلبى ٣٣٣: ٣.

٩- إمتاع الأسماع ١١٧: ٢.

١٠- المغازى ١١٠٠: ٢.

١١- المستدرك على الصحيحين ۶٣٢: ١؛ و جاء مثله فى السيرة النبويّة لابن كثير ٣٣٧: ۴، و إمتاع الأسماع للمقريزى ١١٧: ٢- ١١٨؛ و نيل الأوطار للشوكانى ٣٠٧: ٣، و السيرة النبويّة للحلبى ٢٢٧: ٣، ٣٣٣.

١٢- آل عمران: ٩۵.

١٣- الكافى للكلينى ٢۴۶: ۴- ٢۴٧.

ص: ۱۷

۲- كلماته ۹ في يوم عرفة

وردت لرسول الله ۹ كلمات وأحاديث كثيرةخلال تواجده في يوم عرفة (التاسع من ذي‌الحجة) في عرفات نذكر منها:

۱- جاء في تهذيب الأحكام بسنده عن سعد بن عبدالله، عن محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن محمّد بن سماعة الصيرفي، عن سماعة بن مهران، عن أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق ۷ قال: «... إنّ رسول الله ۹ وقف بعرفات فجعل الناس يبتدرون أخفاف ناقته، يقفون إلى جانبها، فنحّاها رسول‌الله ۹، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أيّها الناس! إنّه ليس موضع أخفاف ناقتي بالموقف، ولكن هذا كلّه موقف، و أشار بيده إلى الموقف و قال: هذا كلّه موقف، فتفرّق الناس، و فعل ذلك بالمزدلفة ...» (۱).

۲- و في صحيحة معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق ۷ أنّه قال: «ثمّ غدا ۹ و الناس معه و كانت قريش تفيض من المزدلفة و هي جَمْع (۲) و يمنعون الناس أن يفيضوا منها، فأقبل رسول الله ۹ و قريش ترجو أن تكون إفاضته من حيث كانوا يفيضون، فأنزل الله تعالى عليه: ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللهَ (۳) يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق: في إفاضتهم منها ومن كان بعدهم. فلمّا رأت قريش أنّ قبّة رسول الله ۹ قد مضت كأنّه دخل في أنفسهم شيء للذي كانوا يرجون من الإفاضة من مكانهم، حتّى انتهى إلى نمرة و هي بطن عرنة بحيال الأراك فضرب قبّته، وضرب أخبيتهم عندها، فلمّا زالت الشمس خرج رسول الله ۹ و معه قريش، و قد اغتسل و قطع التلبية حتّى وقف بالمسجد، فوعظ الناس و أمرهم و نهاهم، ثمّ صلّى الظهر و العصر بأذان و إقامتين، ثمّ مضى إلى الموقف به، فجعل الناس يبتدرون أخفاف ناقته يقفون إلى جنبها فنحاها، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أيّها الناس! ليس موضع أخفاف ناقتي بالموقف، ولكن هذا كلّه و أومأ بيده إلى الموقف فتفرّق الناس، و فعل مثل ذلك بمزدلفة، فوقف الناس حتّى وقع القرص قرص الشمس ثمّ أفاض وأمر الناس بالدّعة حتّى انتهى إلى المزدلفة» (۴).

۳- وفي الكافي عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، و محمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن ابن أبي عمير و صفوان بن يحيى، عن معاوية بن عمّار، عن الإمام جعفر الصادق ۷، مثله (۵).

۴- و في رواية جابر في صحيح مسلم: و أمر بقبّة من شعر تضرب له بنمرة، فسار رسول الله ۹ و لا تشكّ قريش إلّا أنّه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ۹ حتّى أتى عرفة، فوجد القبّة قد ضُربت له بنمرة، فنزل بها حتّى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء، فرحلت له فأتى بطن الوادي، فخطب الناس ... ثمّ أذّن ثمّ أقام فصلّى الظهر، ثمّ أقام فصلّى العصر، و لم يصلِّ بينهما شيئاً، ثمّ ركب رسول الله ۹ حتّى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، و جعل حبل المشاة بين يديه (۶) واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتّى غربت الشمس و ذهبت الصفرة قليلًا حتّى غاب القرص، و أردف أسامة خلفه و دفع رسول الله ۹ (۷).

۵- و روى الشيخ الطوسي عن جماعة عن أبي المفضل عن عبدالله بن إسحاق بن إبراهيم بن حمّاد الخطيب المدائني قال: حدّثنا عثمان بن عبدالله بن عمرو بن عثمان قال: حدّثنا عبدالله بن لهيعة، عن أبي الزبير، قال: سمعت جابر بن عبدالله يقول: بينا النبيُّ بعرفات، و عليّ ۷ تجاهه، و نحن معه، إذ أومأ النبيُّ ۹ إلى علي ۷ فقال: ادن منّي يا عليُّ، فدنا منه، فقال: ضع خمسك يعني كفّك في كفّي، فأخذ بكفّه، فقال: يا عليّ! خلقت أنا و أنت من شجرة، أنا أصلها، و أنت فرعها، و الحسن و الحسين أغصانها، فمن تعلّق بغصن من أغصانها أدخله الله الجنّة برحمته (۸).

۶- روى الشيخ الطوسي بإسناده عن جابر بن عبدالله الأنصاري أنّ رسول الله ۹ ألقى كلمة بعرفة، و إن كانت هذه الكلمة جاءت في خطبته المشهورة بالإجمال، لكن ننقلها تأكيداً و تكميلًا.

ثمّ روى أيضاً رواية أُخرى تؤكد أنّ هذه الكلمة أُلقيت بمنى: أخبرنا جماعة، عن أبي المفضّل قال: أخبرنا أبو جعفر محمّد بن جرير

الطبرى قراءهً، و علىّ بن محمّـد بن الحسن بن كـاس النخعى و اللفظ له قالاـ: حـدّثنا أحمـد بن يحيى بن زكريـا الأودى الصوفى قال: حـدّثنا حسن بن حسـين يعنى العرنى قـال: حـدّثنى يحيى بن يعلى، عن عبـدالله بن موسـى التيمى، عن أبى الزبير، عن جابر بن عبـدالله الأنصارى قال: سمعت رسول الله ۹ فى حجّة الوداع و ركبتى تمسّ ركبته يقول: «لا ترجعوا بعدى كفّاراً يضـرب بعضكم رقاب بعض، أما إن فعلتم لتعرفنّى فى ناحيهٔ الصف» (۹).

۷- وروى البيهقى بسـند ذكره عن عبد الرحمن بن يعمر الدّيلى قال: أتيت رسول الله ۹ و هو بعرفات، فأتاه نفر من أصحابه فأمروا رجلًا فنادى: يا رسول الله! كيف الحجّ؟ كيف الحجّ؟ قال: فأمر رجلًا فنادى: الحجّ يوم عرفهٔ، من جاء قبل صـلاهٔ الصـبح من ليلهٔ جمع فقد تمّ حجّه، أيّام منى ثلاثهٔ: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ (۱۰) ثمّ أردف رجلًا من خلفه فنادى بذلك (۱۱).

۳- خطبهٔ رسول الله ۹ يوم عرفهٔ

فى الضحى من اليوم التاسع استقرّ رسول الله ۹ فى قبّته التى ضُـرِبت له بنمرهٔ قرب عرفات، و قد اغتسل و تهيّأ لأداء أعمال هذا اليوم، و بعد أن زالت الشمس خرج رسول الله ۹ من خيمته و توجّه ليخطب فى الناس.

ففى صحيحهٔ معاويهٔ بن عمّار الطويلهٔ عن الإمام الصادق ۷ بما يتعلّق بمناسك حج رسول الله ۹ وردت إشارهٔ إلى هذه الخطبهٔ، فقد قال ۷: فوعظ الناس و أمرهم و نهاهم (و لم يذكر متن الخطبهٔ) (۱۲).

وقد وردت هذه الخطبهٔ مختصرهٔ فى صحيح مسلم و مصادر أُخرى حسب روايهٔ جابر الطويلهٔ (۱۳).

إنّ هذه الخطبهٔ هى المشهورهٔ والمعروفهٔ فى كتب الفريقين، وفى عالم الأدب لها شأن عظيم، لجزالهٔ ألفاظها، و عظم معانيها.

۱- تهذيب الأحكام للطوسى ۱۸۰: ۵؛ من لا يحضره الفقيه ۴۶۴: ۲.

۲- وهو اسم آخر للمشعر.

۳- البقرهٔ: ۱۹۹.

۴- الكافى ۲۴۷: ۴؛ تهذيب الأحكام ۴۵۶: ۵.

۵- الكافى ۴۶۳: ۴.

۶- فى النهايـهٔ ۳۳۳: ۱ جعل حبل المشاهٔ بين يـديه: أى طريقهم الـذى يسـلكونه فى الرمل. و قيل: أراد صـفّهم و مجتمعهم فى مشـيهم تشبيهاً بحبل الرمل.

۷- صحيح مسلم ۷۲۶: ۲؛ و نحوه فى دعائم الإسلام ۳۱۹: ۱.

۸- أمالى الطوسى: ۶۱۱؛ عنه بحـار الأنوار ۲۰: ۱۵ و ج ۶۵؛ و رواه ابن المغـازلى فى المناقب: ۹۰، ۲۹۷؛ و عنه فى الطرائـف: ۱۱۱؛ و رواه ابن عساكر فى تاريخ مدينهٔ دمشق ۶۴: ۴۲- ۶۶.

۹- أمالى الطوسى: ۵۰۳؛ عنه بحار الأنوار ۲۹۴: ۳۲، و نحوه فى ص: ۳۶۳؛ مجمع البيان للطبرسى ۷۲: ۹؛ تفسير فرات: ۲۸۰.

۱۰- البقرهٔ: ۲۰۳.

۱۱- السنن الكبرى ۳۷۸: ۷.

۱۲- الكافى ۲۴۷: ۴؛ تهذيب الأحكام ۴۵۶: ۵.

۱۳- صـحيح مسلم ۷۲۶: ۲؛ سـنن أبى داود: ۲۹۴- ۲۹۶؛ سـنن ابن ماجهٔ ۱۰۲۲: ۲؛ السـنن الكبرى للبيهقى ۱۴: ۶- ۱۹؛ المصنف لابن أبى شيبهٔ ۴۲۳: ۴- ۴۲۶.

ص: ۱۸

و قد وقع كلام بينهم فى مكانها و زمانها، فهل ألقاها رسول الله ۹ فى عرفة أو منى؟ و فى أىّ يوم من أيام منى؟

فبعضهم أوردها و لم يذكر فى أىّ مكان تكلّم بها رسول الله ۹، كابن شعبة الحرّانى فى تحف العقول (۱)، و الجاحظ فى البيان و التبيين (۲)، وابن عبد ربّه الأندلسى فى العقد الفريد (۳)، بل أوردوها بعنوان «خطبة رسول الله ۹ فى حجّة الوداع».

و بعض آخر أوردها و ذكر أنّها خطبة رسول الله ۹ بعرفة، كابن هشام فى السيرة النبويّة و النسائى فى السنن الكبرى (۴)، ومسلم فى صحيحه كما ذكرناها، ولم يذكر له ۹ خطبة بمنى.

وثالث أوردها وذكر أنّها خطبة رسول الله ۹ أيّام منى، كالبخارى فى صحيحه عن ابن عبّاس، قال: إنّ رسول الله ۹ خطب الناس يوم النحر (۵) و هكذا البغوى فى مصابيح السنّة (۶)، ولم يذكر له ۹ خطبة بعرفة.

وقد أوردها الهيثمى بطرق عديدة بعنوان «باب الخُطب فى الحجّ» (۷).

وروى ابن كثير روايات فى خطبته يوم العيد، و ذكر الخطبة الشريفة الطبرى أيضاً و ابن الأثير (۸).

وفى كنز العمّال و الطبقات الكبرى قد وردت الخطبة بروايات مختلفة (۹).

وروى ابن ماجة بأنّه ۹ خطب فى حجّة الوداع، و أُخرى بأنّه خطب بعرفات، و ثالثة بأنّه خطب يوم النحر بين الجمرات (۱۰).

وفى بعض الروايات: نزلت هذه السورة: إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَ الْفَتْحُ (۱۱) على رسول الله ۹ فى أوسط أيّام التشريق، فعرف أنّه الوداع، فركب راحلته العضباء فحمد الله و أثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس كلّ دم كان فى الجاهلية فهو هدر (۱۲).

وأوردها ابن كثير مختصراً مرّة بعنوان خطبة رسول الله ۹ بعرفة على رواية مسلم وأُخرى بعنوان خطبة رسول الله ۹ بمنى برواية البخارى (۱۳).

وأورد الواقدى فى المغازى بعض فقرات هذه الخطبة فى ضمن خطبة النبى ۹ بمكّة يوم الفتح (۱۴). و كذلك المقريزى فى إمتاع الأسماع (۱۵).

واعلم أنّه بالرغم من الاختلاف بين من ذكر متن الخطبة مطوّلًا أو مختصراً بعنوان أنّها خطبة النبى ۹ فى حجّة الوداع أو بعنوان خطبته بعرفات، أو ذكرها بعنوان أنّها خطبته ۹ بمنى يوم النحر، أو أوسط أيّام التشريق إلّا أنّ كلّها قريبة المفاد و المعنى.

و الذى يبدو جلياً أنّ رسول الله ۹ خطبها بعرفة، ونظراً لأهميتها و عظيم ما تضمنته من معان جليلة و مطالب هامّة فقد أعاد رسول الله ۹ محتوياتها و فقراتها فى مناسبات ومواقف عديدة و أماكن أُخرى فى يوم النحر أو اليوم الحادى عشر، فهى تُعدّ بحق خطبة كاملة و كلمة جامعة وأساساً متيناً لوحدة المسلمين وتبياناً لشؤون دينهم ودنياهم.

و هى وإن اختلفت المصادر التى ذكرتها فى بعض ألفاظها، فإنّ هذا الاختلاف لا يضرّ بالمعنى و المفاد، و إليك نصُّها:

أَلْحَمْدُ لِلهِ نَحْمَدُهُ وَ نَسْتَعِينُهُ وَ نَسْتَغْفِرُهُ وَ نَتُوبُ إِلَيْهِ وَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِىَ لَهُ وَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ وَ أَحُثُّكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَ أَسْتَفْتِحُ اللهَ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ.

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا مِنِّى أُبَيِّنْ لَكُمْ فَإِنِّى لَا أَدْرِى لَعَلِّى لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِى هَذَا، فِى مَوْقِفِى هَذَا.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَ أَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِى شَهْرِكُمْ هَذَا فِى بَلَدِكُمْ هَذَا أَلا هَلْ بَلَّغْتُ اللّهُمَّ اشْهَدْ

فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا وَ إِنَّ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَ إِنَّ أَوَّلَ رِبًا أَبْدَأُ بِهِ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَ إِنَّ دِمَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَ إِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَبْدَأُ بِهِ دَمُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَ إِنَّ مَآثِرَ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ غَيْرَ السِّدَانَةِ وَ السِّقَايَةِ وَ الْعَمْدُ قَوَدٌ وَ شِبْهُ الْعَمْدِ مَا قُتِلَ بِالْعَصَا وَ الْحَجَرِ وَ فِيهِ مِائَةُ بَعِيرٍ فَمَنْ زَادَ فَهُوَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ وَ لَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِأَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فِيمَا تُحَقِّرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ وَ إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ وَ وَاحِدٌ فَرْدٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ وَ الْمُحَرَّمُ وَ رَجَبٌ بَيْنَ جُمَادَى وَ شَعْبَانَ أَلا هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ اشْهَدْ

۱- تحف العقول: ۳۰- ۳۴.

۲- البيان و التبيين: ۲۲۸.

۳- العقد الفريد ۵۷: ۴- ۵۸.

۴- السيرة النبوية لابن هشام ۲۵۰: ۴- ۲۵۲؛ السنن الكبرى ۴۲۱: ۲.

۵- صحيح البخارى ۲۳۱: ۲؛ فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ۲۲۶۰: ۴.

۶- مصابيح السنّة ۲۷۲: ۲.

۷- مجمع الزوائد ۵۸۵: ۳- ۵۹۹.

۸- البداية و النهاية ۱۸۵: ۵- ۱۸۹؛ تاريخ الأُمم و الملوك ۱۵۰: ۳- ۱۵۲؛ الكامل فى التاريخ ۳۰۲: ۲.

۹- كنز العمال ۲۸۶: ۵- ۲۹۷؛ الطبقات الكبرى لابن سعد ۱۸۳: ۲- ۱۸۶.

۱۰- سنن ابن ماجة ۱۰۱۵: ۲- ۱۰۱۶.

۱۱- النّصر: ۱.

۱۲- الخصال: ۴۸۶؛ عنه بحار الأنوار ۱۱۸: ۷۴.

۱۳- السيرة النبويّة لابن كثير ۳۸۷: ۴- ۳۹۲. و انظر أيضاً جمهرة خطب العرب ۱۵۵: ۱- ۱۵۸ الخطبة ۱۳؛ و تاريخ اليعقوبى ۱۰۹: ۲- ۱۱۲؛ و شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱۲۶: ۱- ۱۲۸؛ و السيرة النبويّة للحلبى ۳۲۷: ۳؛ و السنن الكبرى ۱۷: ۷ و ۱۱۱: ۸؛ و دلائل النبوّة للبيهقى ۴۴۱: ۵- ۴۴۲؛ و تفسير القمى ۱۷۱: ۱؛ و بحار الأنوار ۱۱۳: ۳۷.

۱۴- المغازى ۸۳۶: ۲.

۱۵- إمتاع الأسماع ۳۹۲: ۱ و ۱۱۱: ۲- ۱۱۲.

ص: ۱۹

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً وَ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقّاً حَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ وَ لا يُدْخِلْنَ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ بُيُوتَكُمْ إِلّا بِإِذْنِكُمْ وَ أَنْ لا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ وَ تَهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَ تَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ فَإِذَا انْتَهَيْنَ وَ أَطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ وَ اسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكِتَابِ اللهِ فَاتَّقُوا اللهَ فِى النِّسَاءِ وَ اسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْراً

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ وَ لا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ مَالُ أَخِيهِ إِلّا مِنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ أَلا هَلْ بَلَّغْتُ اللّهُمَّ اشْهَدْ فَلا تَرْجِعُنَّ بَعْدِى كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ فَإِنِّى قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا؛ كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِى أَهْلَ بَيْتِى أَلا هَلْ بَلَّغْتُ اللّهُمَّ اشْهَدْ

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَ إِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ لآدَمَ وَ آدَمُ مِنْ تُرَابٍ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ وَ لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ قَدْ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ وَ لا يَجُوزُ لِمُورِثٍ وَصِيَّةٌ أَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ وَ الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَ لِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ وَ لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَ لا عَدْلًا وَ السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَةُ اللهِ.

هذا هو متن الخطبة النبوية القدسية كما ورد فى كتاب «تحف العقول» (۱). و الذى يجب علينا هنا هو الإشارة إلى النقاط المهمة التى وردت فيها، و هى:

۱. حمد الله و ثناؤه و الاستغفار و الاستعاذة و ذكر الشهادتين.

۲. إيصاء عباد الله تعالى بتقواه و العمل بأوامره و التجنّب عن معاصيه.

۳. حثّ المسلمين على الاستماع لكلامه و فهمه.

۴. حرمة دماء المسلمين و أعراضهم و أموالهم، و أداء الأمانة.

۵. تحريم الربا و إلغاء دماء (ثارات) الجاهلية، و إبطال مآثر الجاهلية الرثة.

۶. تثبيت بعض الأحكام و الحدود و الديات فى الشريعة الإسلامية و إبلاغ الناس بها.

۷. إبطال النسىء، و التذكير بحقوق النساء، و النهى عن الظلم فى الوصية.

۸. تثبيت مبدأ الأُخوة الإسلامية.

۹. إيجاب التمسّك بالثقلين.

۱۰. رفض التمييز العنصرى و إقرار مبدأ التفاضل بين المسلمين على أساس التقوى.

و بالإضافة إلى هذه الخطبة فقد ورد أنّ رسول الله ۹ قد ألقى كلمة قصيرة حين غروب الشمس و هو بعرفات، و قد أجمعت كافة المصادر التى روتها على أنّه ۹ دعا عشيّة عرفة لأُمته بالمغفرة و الرحمة فأكثر الدعاء، فأوحى الله تعالى إليه (۲) أنّى قد فعلت، إلّا ظُلم بعضهم بعضاً. (۳)

كما وردت فى بعض الكتب خطبة ألقاها رسول الله ۹ بعرفة فى كرامة الحاجّ عند الله تعالى، و نحن نوردها تتميماً للفائدة. و يظهر من صدر هذه الخطبة أنّه ألقاها عشيّة عرفة بعد ما وقف بالموقف، و الحال أنّ خطبته الشهيرة ألقاها بعد الزوال ببطن عرنة، و هى مكان آخر بجنب عرفة.

ورد فى دعائم الإسلام: عن علىّ ۷ أنّ رسول الله ۹ لمّا حجّ حجّة الوداع وقف بعرفة و أقبل على الناس بوجهه و قال: «مرحباً بوفد الله ثلاث مرّات الذين إن سألو أُعطوا، و تخلف نفقاتهم، و يجعل لهم فى الآخرة بكلّ درهم ألف من الحسنات» ثمّ قال-: «أيّها الناس ألا أُبشّركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «إنّه إذا كانت هذه العشيّة باهى الله بأهل هذا الموقف الملائكة فيقول: يا ملائكتى! أُنظروا إلى

عبادی و إمائی أتونی من أطراف الأرض شعثاً غبراً هل تعلمون ما یسألون؟ فیقولون: ربّنا یسألونک المغفرهٔ، فیقول: أَشهدکم أنّی قد غفرت لهم، فانصرفوا من موقفهم مغفوراً لهم ماسلف» (۴).

وفی المستدرک عن القطب الراوندی فی لبّ اللباب، عن النبیّ ٩ قال: «إذا کانت عشیّهٔ عرفهٔ یقول الله لملائکته: أُنظروا إلی عبادی و إمائی شعثاً غبراً جاءُونی من کلّ فجٍّ عمیق لم یروا رحمتی و لا عذابی یعنی الجنّهٔ و النار- أُشهدکم ملائکتی إنّی قد غفرت لهم الحاجّ و غیر الحاجّ.

فلم یُرَ یوماً أکثر عتقاء من النار من یوم عرفهٔ ولیلتها» (۵).

ثم إن رسول الله ٩ قد أکثر من الدعاء و التضرّع إلی الله تعالی فی عرفات، و لم یکتف بدعائه، بل راح یحثّ المسلمین و یحضّهم علی الدعاء و الذکر و الإنابهٔ إلی الله تعالی.

۱- تحف العقول: ۳۴ ۳۰.

۲- وفی روایهٔ أُخری: فأجابه عز و جل.

۳- السنن الکبری ۱۱۸: ۵ و ۲۵۷: ۷.

۴- دعائم الإسلام ۲۹۳: ۱؛ و عنه بحارالأنوار ۴۹: ۹۶؛ و مستدرک الوسائل ۳۶: ۸؛ و رواه الشجری فی أمالیه ۵۸: ۳.

۵- مستدرک الوسائل ۳۲: ۱۰.

ص: ۲۰

۴- خطبته ۹ يوم النحر

عبّر بعض المصنفين منهم البخارى و النسائى عن خطبة رسول الله ۹ بعرفة بخطبة يوم النحر. كما ذكر بعض المؤرّخين خطبة رسول الله ۹ بمنى، ومفادها يقرب من خطبته بعرفة، ولكن نصّوا على أنّها خطبته بمنى.

من هؤلاء محمّد بن سعد فى الطبقات، قال: أخبرنا عبدالوهاب بن عطاء، قال: أخبرنا سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبدالرحمن بن غنم، عن عمرو بن خارجة قال: خطبنا رسول الله ۹ بمنى و إنّى لتحت جران ناقته، و هى تقصع بجرّتها، وإنّ لعابها ليسيل بين كتفىّ، فقال: «إنّ الله قسم لكلّ إنسان نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصيّة، ألا و إنّ الولد للفراش و للعاهر الحجر، ألا و من ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه رغبةً عنهم فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين».

وقال أيضاً: أخبرنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، أخبرنا الوليد بن مسلم، أخبرنا هشام بن الغاز، أخبرنى نافع، عن ابن عمر: أنّ النبى ۹ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجّة التى حجّ، فقال للناس: «أىّ يومٍ هذا:؟ فقالوا: يوم النحر.

قال: «فأىّ بلدٍ هذا»؟

قالوا: البلد الحرام.

قال: «فأىّ شهرٍ هذا»؟

قالوا: الشهر الحرام.

فقال: «هذا يوم الحجّ الأكبر، فدماؤكم و أموالكم و أعراضكم عليكم حرام كحرمة هذا البلد فى هذا الشهر فى هذا اليوم». ثمّ قال: «هل بلّغت؟»

قالوا: نعم.

فطفق رسول الله ۹ يقول: «اللّهمَّ اشهد». ثمّ ودّع الناس، فقالوا: هذه حجّة الوداع.

وروى ابن سعد مثله بسند آخر، فقال: أخبرنا خلف بن الوليد الأزدى، أخبرنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، حدّثنى أبو مالك الأشجعى، حدّثنى نُبيط بن شريط الأشجعى، قال: إنّى لرديف أبى فى حجّة الوداع إذ تكلّم النبى ۹، فقمت على عجز الراحلة و وضعت رجلى على عاتقى أبى، قال: فسمعته يقول: «أىّ يومٍ أحرم»؟

قالوا: هذا اليوم.

قال: «فأىّ شهرٍ أحرم»؟

قالوا: هذا الشهر،

قال: «فأىّ بلدٍ أحرم»؟ قالوا: هذا البلد.

قال: «فإنّ دماءكم و أموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، هل بلّغت»؟

قالوا: اللّهمَّ نعم. قال: «اللّهمَّ اشهد، اللّهمَّ اشهد، اللّهمَّ اشهد».

وقال أيضاً: أخبرنا يونس بن محمّد المؤدّب، أخبرنا ربيعة بن كلثوم بن جبر حدّثنى أبى، عن أبى غادية رجل من أصحاب رسول الله ۹ قال: خطبنا رسول الله ۹ يوم العقبة، قال: «يا أيّها الناس إنّ دماءكم و أموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا و ألا هل بلّغت»؟ قال: قلنا: نعم، قال: «اللّهمَّ اشهد، ألا لا ترجعنّ بعدى كفّاراً يضرب بضعكم رقاب بعض».

ثم إنّ ابن سعد قال: أخبرنا هاشم بن القاسم، أخبرنا عكرمة بن عمّار، حدّثنى الهرماس بن زياد الباهلى قال: كنت ردف أبى يوم الأضحى و نبىّ الله ۹ يخطب الناس على ناقته بمنى.

وقال: أخبرنا هشام أبوالوليد الطيالسى، أخبرنا عكرمة بن عمّار، أخبرنا الهرماس بن زياد قال: انصرف رسول الله ۹ و أبى مُرْد فى ورائه

على جملٍ له، و أنا صبىّ صغير، فرأيت النبىّ ۹ يخطب الناس على ناقته العَضْباء يوم الأضحى بمنى (۱).

ولا يخفى أنّ مفادها نفس مفاد الخطبة التى ذكرناها سابقاً، و استظهرنا بأنّه أوردها بعرفة، و يمكن إيرادها مرّة ثانية بمنى.

و فى المصنّف لابن أبى شيبة بسندين عن مجاهد و مسروق أنّ النبىّ ۹ خطبهم يوم النحر(۲).

۱- الطبقات الكبرى ۱۸۳: ۲- ۱۸۶؛ و نحوه فى كنز العمّال ۲۹۱: ۵- ۲۹۷.

۲- المصنّف لابن أبى شيبة ۳۳۹: ۴.

ص: ۲۱

وفی السنن الکبری عن رجلین من بنی بَکرٍ قالا: رأینا رسول الله ۹ یخطبُ بین أوسط أیّام التشریق، و نحن عند راحلته و هی خطبة رسول الله ۹ التی خطب بمنی (۱).

وقال أیضاً: أخبرنا علیّ بن أحمد بن عبدان، أنبأ أحمد بن عبید الصفّار، [حدّ] ثنا أبو مسلم إبراهیم بن عبدالله. وأخبرنا أبو نصر عمر بن عبدالعزیز بن عُمر بن قتادة النعمانیّ، أنبأ أبو عمرو إسماعیل بن نُجید السُّلمی، أنبأ أبو مسلم إبراهیم بن عبد الله البصری، [حدّ] ثنا أبوعاصم، عن ربیعة بن عبدالرحمن بن حصن الغنویّ، حدّثتنی سرّاءُ بنت نبهان و کانت ربَّة بیتٍ فی الجاهلیة قالت: سمعت رسول‌الله ۹ یقول فی حجّة الوداع: «هل تدرون أیُّ یومٍ هذا؟».

قال: و هو الیوم الذی یدعون یوم الرؤوس.

قالوا: الله و رسوله أعلم.

قال: «هذا أوسط أیّام التشریق، هل تدرون أیّ بلدٍ هذا؟».

قالوا: الله و رسوله أعلم.

قال: «هذا المَشْعَرُ الحرام». ثمّ قال: «إنّی لا أدری لعلّی لا ألقاکم بعد هذا، ألا و إنّ دماءکم و أموالکم و أعراضکم علیکم حرام کحرمة یومکم هذا، فی بلدکم هذا حتّی تلقوا ربّکم فیسألکم عن أعمالکم، ألا فلیُبَلِّغْ أدناکم أقصاکم، ألا هل بلّغتُ؟» فلمّا قدمنا المدینة لم یلبث إلّا قلیلًا حتّی مات ۹. ثمّ قال: رواه محمّد بن بشّار عن أبی عاصم بهذا الإسناد و قال: قالت: خطبنا رسول الله ۹ یوم الرؤوس (۲).

وفی مسند أحمد بن حنبل عن أبی نضرة قال: حدّثنی من سمع خطبة النبی ۹ فی وسط أیّام التشریق فقال: «یا أیّها الناس! إنّ ربّکم واحد، و إنّ أباکم واحد، ألا- لا- فضل لعربیّ علی عجمیّ، و لا لعجمیّ علی عربیّ، و لا لأحمر علی أسود، و لا لأسود علی أحمر إلّا بالتقوی. أبلّغت؟» قالوا: بلّغ رسول الله ۹ ... إلی آخر الحدیث (۳).

و قد روی فی دعائم الإسلام عن الإمام جعفر الصادق ۷، عن الإمام علیّ ۷ قال: سمعت رسول الله ۹ یخطب یوم النحر و هو یقول: «هذا یوم الثجّ و العجّ. و الثجّ: ما تهریقون فیه من الدماء، فمن صدقت نیّته کانت أوّل قطرة له کفّارة لکلّ ذنب. و العجّ: الدعاء، فعجّوا إلی الله، فوالّذی نفس محمّد بیده لا ینصرف من هذا الموضع أحد إلّا مغفوراً له إلّا صاحب کبیرة مصرّاً علیها لا یحدِّث نفسه بالإقلاع عنها» (۴).

ویُعتقد أنّ هذه الخطبة قد قالها ۹ بمنی یوم النحر فی حجّة الوداع، کما یدلّ علی ذلک لفظة «هذا الموضع».

ولکن یحتمل أن یکون قد ألقاها یوم عید الأضحی بالمدینة المنوّرة فی عام من الأعوام، و مراده من «هذا الموضع» مصلّی العید و مکان الخطبة و مجمع المسلمین، ولکن روایات البیهقی صریحة فی أنّه أوردها بمنی یوم النحر فی حجّة الوداع.

فقد روی البیهقی بسنده عن أبی بکرة قال: خطبنا رسول الله ۹ یوم النحر فقال: «لا ترجعوا بعدی کفّاراً یضرب بعضکم رقاب بعض».

و فیه أیضاً بسنده عن الهرماس بن زیاد قال: رأیت النبیّ ۹ و أنا صبیّ أردفنی أبی یخطب الناس بمنی یوم الأضحی علی راحلته.

و فیه أیضاً بسنده عن أبی أمامة سمعت أبا أمامة یقول: سمعت خطبة رسول الله ۹ بمنی یوم النحر.

و فیه أیضاً بسنده عن رافع بن عمرو المزنی قال: رأیت رسول الله ۹ یخطب الناس بمنی حین ارتفع الضحی علی بغلةٍ شهباء، و علیّ یُعَبِّرُ عنه، والناس بین قائم و قاعد (۵).

و روی الصدوق بسنده عن أبی أمامة یقول: سمعت رسول‌الله ۹ یقول: «أیّها الناس إنّه لا نبیّ بعدی، ولا أُمّة بعدکم، ألا فاعبدوا ربّکم، و صلّوا خمسکم، وصوموا شهرکم، وحجّوا بیت ربّکم، و أدّوا زکاة أموالکم طیّبة بها أنفسکم، و أطیعوا ولاة أمرکم تدخلوا جنّة ربّکم» (۶).

فهـذه الروایة وإن لم تکن فیها دلالة علی أنّ هذا الکلام صدر من النبیّ ۹ فی حجّة الوداع، لکن الروایتین الأخریین تدلّان علی ذلک، فإنّ أحمد بن حنبل فی مسنده و الحاکم فی المستدرک قد زادا فیما رویاه: یقول أبو أمامة: سمعت رسول‌الله ۹ یخطب الناس فی حجّة الوداع، و هو علی الجـدعاء واضع رجله فی غراز الرحـل یتطاول یقول: ألا تسـمعون؟ فقال رجل من آخر القوم: ما تقول؟ قال: اعبـدوا ربّکم ... إلی آخر الحدیث (۷).

۵- خطبته ۹ فی مسجد الخیف

روی الکلینی عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن عیسی، عن أحمد بن محمّد بن أبی نصر، عن أبان بن عثمان، عن ابن أبی یعفور، عن أبی عبدالله ۷: أنّ رسول‌الله ۹ خطب الناس فی مسجد الخیف فقال: «نَضَّر الله عبداً سمع مقالتی فوعاها و حفظها و بلّغها من لم یسـمعها، فربّ حامل فقهٍ غیرُ فقیهٍ، و ربّ حامل فقهٍ إلی من هو أفقه منه، ثلاث لا یغلّ علیهنّ قلب امرئٍ مسلم: إخلاص العمل‌لله، و النصـیحة لأئمّـة المسـلمین، و اللزوم لجمـاعتهم، فـإنّ دعوتهم محیطـة من ورائهم، المسـلمون إخوة تتکافأ دماؤهم، و یسـعی بـذمّتهم أدناهم».

۱- السنن الکبری ۳۳۰: ۷.

۲- المصدر نفسه ۳۳۰: ۷.

۳- مسند أحمد بن حنبل ۱۲۷: ۹؛ نیل الأوطار ۸۲: ۵، باب الخطبة أوسط أیّام التشریق، ح ۳.

۴- دعائم الإسلام ۱۸۴: ۱؛ بحار الأنوار ۳۰۱: ۹۶؛ الجعفریات: ۴۶.

۵- السنن الکبری ۳۰۸: ۷؛ سنن أبی داود: ۳۰۲- ۳۰۳.

۶- الخصال: ۳۲۲.

۷- مسند أحمد بن حنبل ۲۷۴: ۸؛ المستدرک علی الصحیحین ۵۴۷: ۱.

ص: ۲۲

ثمّ قال: و رواه أيضاً عن حمّاد بن عثمان، عن أبان، عن ابن أبى‌يعفور مثله، وزاد فيه: «وهم يد على من سواهم». وذكر فى حديثه أنّه خطب فى حجّة الوداع بمنى فى مسجد الخيف. (۱)

ورواها الشيخ أبو عبدالله المفيد فى الأمالى بسند آخر ذكره عن الإمام الصادق ٧ أنّه قال: «خطب رسول الله يوم منى فقال ... إلى آخره» (۲).

ورواها أيضاً الشيخ الصدوق عن محمّد بن موسى بن المتوكّل قال: حدّثنا على بن الحسين السعد آبادى قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن خالد، عن أحمد بن محمّد بن أبى نصر البزنطى، عن حمّاد بن عثمان، عن أبى عبدالله ٧، ورواها بسند آخر فى الخصال (۳)، و أيضاً وردت فى جمهرة خطب العرب (۴).

ورواها ابن ماجة فى السنن بسند ذكره عن جبير بن مطعم (۵)، أنّه قال: قام رسول الله ٩ بالخيف من منى فقال: «نضّر الله إلى أن قال فإنّ دعوتهم تحيط من ورائهم». وأمّا صدر الحديث فقط، فقد ذكره فى ضمن أحاديث متعدّدة (۶).

وقال الفيروز آبادى: رجع ٩ إلى منزله بالقرب من مسجد الخيف، و خطب خطبة بليغة، بلغ صوته إلى جميع أهل الخيام فى خيامهم، و هذا من جملة المعجزات النبويّة (۷).

وفى سنن أبى داود بسنده عن عبدالرحمن بن معاذ التيمى قال: خطبنا رسول الله ٩ و نحن بمنى ففتحت أسماعنا، حتّى كنّا نسمع ما يقول و نحن فى منازلنا، فطفق يعلّمهم مناسكهم حتّى بلغ الجمار، فوضع إصبعيه السبّابتين، ثمّ قال: بحصى الخذف، ثمّ أمر المهاجرين فنزلوا فى مقدّم المسجد، و أمر الأنصار فنزلوا من وراء المسجد، ثمّ نزل الناس بعد ذلك (۸).

وفى الكافى عن محمّد بن الحسن، عن بعض أصحابنا، عن علىّ بن الحكم، عن الحكم بن مسكين، عن رجل من قريش من أهل مكّة قال: قال سفيان الثورى: اذهب بنا إلى جعفر بن محمّد ٧ قال: فذهبت معه إليه، فوجدناه قد ركب دابّته، فقال له سفيان: يا أبا عبدالله حدّثنا بحديث خطبة رسول الله ٩ فى مسجد الخيف، قال: دعنى حتّى أذهب فى حاجتى فإنّى قد ركبت فإذا جئت حدّثتك، فقال: أسألك بقرابتك من رسول الله ٩ لمّا حدّثتنى، قال: فنزل، فقال له سفيان: مُر لى بدواة و قرطاس حتّى أثبته، فدعا به ثمّ قال: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. خطبة رسول الله ٩ فى مسجد الخيف: «نضّر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها، و بلّغها من لم تبلغه، يا أيّها الناس! ليبلّغ الشاهد الغائب، فربّ حامل فقهٍ ليس بفقيه، و ربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، و النصيحة لأئمّة المسلمين، و اللزوم لجماعتهم، فإنّ دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم، و هم يد على من سواهم، يسعى بذمّتهم أدناهم».

فكتبه سفيان ثمّ عرضه عليه، وركب أبو عبدالله ٧. (۹)

و قد ذكر القمّى هذه الخطبة المباركة وزاد فى آخرها: و صيّة النبى ٩ فى التمسّک بالثقلين (۱۰)، وليس ببعيد؛ لأنّه قد أمر المسلمين بالتمسّک بالثقلين مرّات عديدة و فى مواطن شتّى.

۶- خطبة رسول الله ٩ عند الكعبة

عندما قضى رسول الله ٩ حجّته أتى مودّعاً للكعبة الشريفة، فلزم حلقة الباب و نادى:

أيّها الناس! فاجتمع من فى المسجد الحرام و من فى السوق حوله، فخطب هذه الخطبة البليغة و ذكر الفتن التى تحدث بعده و الفساد الذى يتعرّض له الناس فى أخلاقهم و أعمالهم و عقائدهم، و تحقّق أشراط الساعة.

وجدير بالذكر أنّ لهذه الخطبة المباركة روايات متعدّدة مختلفة فيما بينها فى بعض الألفاظ، و مشتركة فى الأكثر. فقد روى السيوطى فى الدرّ المنثور ذيل الآية الكريمة: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها (۱۱) وقال: أخرج ابن مردويه، عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال: حجّ النبى حجّة الوداع ثمّ أخذ بحلقة باب الكعبة فقال: أيّها الناس ألا أخبركم بأشراط الساعة إلى آخره

(۱۲).

ورواها أيضاً محيى الدّين ابن العربى فى محاضرة الأبرار و مسامرة الأخيار مرسلًا عن عبدالله بن عبّاس، عن النبى ۹ (۱۳).

وأمّا فى كتب الشيعة الإماميّة فرويت فى جامع الأخبار مرسلة عن جابر بن عبدالله الأنصارى أنّه قال: حججت مع رسول الله ۹ حجّة الوداع، فلمّا قضى النبى ۹ ما افترض عليه من الحجّ أتى مودّعاً الكعبة، فلزم حلقة الباب و نادى برفيع صوته: أيّها الناس! فاجتمع أهل المسجد و أهل السوق، فقال: اسمعوا إنّى قائل ما هو بعدى كائن ... إلى آخره (۱۴).

وجاء فى تفسير القمى فى ذيل الآية المباركة: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ قال: حدّثنى أبى، عن سليمان بن مسلم بن الخشّاب، عن عبدالله بن جريج المكّى، عن عطاء بن أبى رباح، عن عبدالله بن عبّاس قال: حججنا مع رسول الله ۹ حجّة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة، ثمّ أقبل علينا بوجهه، فقال:

«ألا أُخبركم بأشراط الساعة؟» و كان أدنى الناس منه يومئذٍ سلمان رحمة الله عليه، فقال: بلى يا رسول الله!

۱- الكافى ۴۰۳: ۱.

۲- الأمالى للمفيد: ۱۸۶؛ بحار الأنوار ۱۴۸: ۲.

۳- الأمالى للصدوق: ۴۳۱؛ الخصال: ۱۴۹.

۴- جمهرة خطب العرب ۱۵۱: ۱، خطبة النبيّ ۹ بالخيف، رقم ۵.

۵- سنن ابن ماجة ۱۰۱۵: ۲.

۶- سنن ابن ماجة ۸۴: ۱- ۸۵.

۷- سفر السعادة: ۱۸۱.

۸- سنن أبى داود: ۳۰۳، و نحوه فى الطبقات الكبرى ۱۸۵: ۲.

۹- الكافى ۴۰۳: ۱؛ بحار الأنوار ۳۶۵: ۴۷.

۱۰- تفسير القمى ۴۴۷: ۲؛ بحار الأنوار ۱۱۴: ۳۷.

۱۱- محمّد: ۱۸.

۱۲- الدرّ المنثور ۴۱۲: ۷.

۱۳- محاضرة الأبرار و مسامرة الأخيار ۶۰: ۱- ۶۲.

۱۴- جامع الأخبار: ۳۹۵- ۳۹۷؛ بحار الأنوار ۲۶۲: ۵۲.

ص: ۲۳

فقال ٩: «إنّ من أشراط الساعة إضاعة الصلوات و اتّباع الشهوات، و الميل إلى الأهواء، و تعظيم أصحاب المال، و بيع الدين بالدنيا، فعندها يذوب قلب المؤمن فى جوفه كما يُذاب الملح فى الماء ممّا يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟!

قال: «إى والّذى نفسى بيده يا سلمان! إنّ عندها يليهم أُمراء جَوَرَة و وزراء فسقة، و عرفاء ظلمة، و أُمناء خونة».

فقال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول الله؟!

قال ٩: «إى و الذى نفسى بيده يا سلمان! إنّ عندها يكون المنكر معروفاً، و المعروف منكراً، و يؤتمن الخائن، و يخوّن الأمين، و يصدَّق الكاذب، و يكذَّب الصادق ... إلى آخر الخطبة الشريفة» (۱).

۷- خطبته ٩ فى غدير خُم

بعد أن أتم رسول الله ٩ و المسلمون حجّهم و قضوا مناسكهم خرجوا من مكة المكرمة فى ضحى اليوم الرابع عشر من ذى الحجة الحرام متوجّهين إلى المدينة المنوّرة، و كان موكب الرسول ٩ يسير نحو المدينة منزلًا بعد منزل و مرحلة بعد مرحلة، حتّى مضى اليوم الخامس عشر و السادس عشر و السابع عشر، و فى ضحى اليوم الثامن عشر و حينما بلغ الموكب الشريف قريباً من الجحفة بغدير خمّ و قد ابتعد ۱۸۵ كيلومتراً عن مكة، و قبل تفرّق الحجاج فى مسيرهم و ذهابهم إلى أوطانهم، نادى منادى الرسول ٩: الصلاة جامعة.

فارتجّ الحجاج من هذا النداء، إذ لم تكن هذه الساعة زمان نزول، و لم يكن هذا المكان منزلًا و موقفاً للاستراحة، فتوقّف الموكب، فلحق من كان فى آخر القافلة، ورجع من كان فى مقدّمها، فاجتمعوا فى الحرّ الشديد ليسمعوا الخبر الهامّ، حتّى وضع كثير منهم رداءه على رأسه من شدّة حرارة الشمس، ووضع البعض رداءه تحت قدميه اتّقاءً لِلَهيب الرمضاء.

فصلّى رسول الله ٩ بالمسلمين صلاة الظهر، ثمّ صنعوا من أقتاب الإبل منبراً رفيعاً لرسول الله ٩، فصار الأُلوف من البشر آذاناً صاغية لكلامه ٩ ليسمعوا و ليعوا كلام خطيب الله تعالى، فرقى المنبر و فتح فمه الطيّب و تكلّم بكلام بلّغ فيه المسلمين ما أمره الله تعالى بتبليغه.

و نحن نورد الخطبة الشريفة عن كتاب المناقب لابن المغازلى الشافعى بسند ذكره، فقال رسول الله ٩:

الحمد لله نحمده و نستعينه، و نؤمن به و نتوكّل عليه، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، الذى لا هادى لمن أضلّ، و لا مضلّ لمن هدى، و أشهد أن لا إله إلّا الله، و أنّ محمّداً عبده و رسوله.

أمّا بعد أيّها الناس! فإنّه لم يكن لنبىّ من العمر إلّا نصف من (۲) عمّر من قبله، و إنّ عيسى بن مريم ٧ لبث فى قومه أربعين سنة، وإنّى قد أسرعت فى العشرين، ألا وإنّى يوشك أن أُفارقكم، ألا وإنّى مسؤول و أنتم مسؤولون، فهل بلّغتكم؟ فماذا أنتم قائلون؟

فقام من كلّ ناحية من القوم مجيب يقولون: نشهد أنّك عبدالله و رسوله، قد بلّغت رسالته، و جاهدت فى سبيله، و صدعت بأمره، و عبدته حتّى أتاك اليقين، جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيّاً عن أمّته.

فقال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له، و أنّ محمّداً عبده و رسوله، و أنّ الجنّة حقّ، و أنّ النار حقّ، و تؤمنون بالكتاب كلّه؟ قالوا: بلى، قال: فإنّى أشهد أن قد صدقتكم و صدّقتمونى، ألا و إنّى فرطكم و إنّكم تبعى، توشكون أن تردوا علىَّ الحوض، فأسألكم حين تلقوننى عن ثقلىَّ كيف خلفتمونى فيهما»؟

قال: فأُعيل علينا (۳) ما ندرى ما الثقلان، حتّى قام رجل من المهاجرين و قال: بأبى و امّى أنت يا نبىّ الله ما الثقلان؟

قال ٩: «الأكبر منهما كتاب الله تعالى، سبب طرفه بيدالله و طرف بأيديكم، فتمسّكوا به، ولا تضلّوا، و الأصغر منهما عترتى. من استقبل قبلتى و أجاب دعوتى، فلا تقتلوهم و لا تقهروهم و لا تقصروا عنهم، فإنّى قد سألت لهم اللطيف الخبير فأعطانى، ناصرهما لى ناصر، وخاذلهما لى خاذل، ووليّهما لى ولىٌّ، وعدوّهما لى عدوٌّ.

ألا ـ و إنّهـا لم تهلك أمّـة قبلكم حتّى تتـديّن بأهوائها، و تظاهر على نبوّتها، و تقتل من قام بالقسط، ثمّ أخـذ بيـد علىّ بن أبى طالب ۷ فرفعها ثمّ قال: مَنْ كنتُ مولاه فهذا مولاه، و مَنْ كنتُ و ليّهُ فهذا و ليّهُ، اللّهمَّ والِ من والاهُ، وعادِ مَنْ عاداهُ». قالها ثلاثاً (۴).

ثـمّ تـوّج رسـول الله ۹ عليّاً ۷ بعمـامته «السـحاب» أمـام جمـوع حاشـدة من المـؤمنين بيـده الشـريفة، فسـدل طرفهـا على منكبه، و أمر المهـاجرين و الأنصـار أن يسـلّموا على علىّ ۷ بإمرة المؤمنين ويهنّئونه بهـذه الفضـيلة العظيمـة. فسـلّم وجوه المسـلمين (۵) عليه بـإمرة المؤمنين و هنّأوه (۶).

ومن يراجـع أغلب المصـادر التاريخيـة و كتب الحـديث يجـد أنّ هـذه الخطبـة قـد احتلّت العديـد من الصـفحات، و أبرزوا و جـوهها المختلفة، و من هؤلاء الطبرى الّذى ألّف كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خمّ فى مجلّدين ضخمين. (۷)

۱- تفسير القمى ۳۰۳: ۲- ۳۰۷، عنه بحار الأنوار ۳۰۵: ۶- ۳۰۹، و تفسير البرهان ۱۸۳: ۴ ذيل الآية الكريمة فَقَدْ جاءَ أَشْـراطُها محمّد ۱۸: ۹.

۲- فى العمدة: ۱۰۵ و البحار ۱۸۴: ۳۷: «ما» بدل «من».

۳- يقال: علت الضالّة أُعيل عيلًا و عيلاناً فأنا عائل: إذا لم تدر أىّ وجهة تبغيها؛ عن أبى زيد، و قال الأحمر: عالنى الشىء يعيلنى عيلًا و معيلًا: إذا أعجزك، و المراد أى: عجزنا عن فهم الثقلين.

۴- المناقب لابن المغازلى: ۱۶، عنه العمدة لابن البطريق: ۱۰۴؛ و بحار الأنوار ۱۸۴: ۳۷؛ وانظر الأمالى للطوسى: ۲۲۷.

۵- أخرج الطبرى فى كتاب الولايـة ۲۱۴- ۲۱۶ حـديثاً بإسـناده عن زيد بن أرقم، أن رسول الله ۹ قال بعد خطبته تلك: معاشـر الناس! قولوا: أعطيناك على ذلك عهـداً، عن أنفسنـا ... إلى أن قال: قولوا ما قلت لكم، و سـلّموا على علىّ بإمرة المؤمنين، و قولوا: الحمد لله الّذى هدانا لهذا ...

قال زيد بن أرقم: فعند ذلك بادر الناس بقولهم: نعم سمعنا و أطعنا على أمر الله و رسوله بقلوبنا.

وكـان أوّل من صافق النبى ۹ و عليـاً: أبوبكر و عمر و عثمان و طلحـة و الزبير و باقى المهاجرين و الأنصار و باقى الناس إلى أن صـلّى الظهرين فى وقت واحد، وامتدّ ذلك إلى أن صلّى العشائين فى وقت واحد، وأوصلوا البيعة والمصافقة ثلاثاً.

۶- مسند أبى داود: ۲۳؛ كنز العمال ۴۸۲: ۱۵؛ الرياض النضرة ۱۷۰: ۳؛ فرائد السمطين ۷۵: ۱؛ الفصول المهمة: ۴۱؛ السيرة الحلبية ۳۴۱: ۳.

۷- البداية و النهاية ۱۵۷: ۱۱.

ص: ۲۴

و قال الشيخ سليمان الحنفى القندوزى فى ينابيع المودّة: حُكى عن أبى المعالى الجوينى الملقّب بإمام الحرمين أستاذ أبى حامد الغزالى أنّه قال: رأيت مجلّداً فى بغداد فى يد صحّاف فيه روايات خبر غدير خمّ مكتوباً عليه المجلّدة الثامنة و العشرون من طرق قوله ٩: من كنت مولاه فعلىّ مولاه، و يتلوه المجلّدة التاسعة و العشرون (۱).

ومتن الخطبة الشريفة يختلف فى الروايات الحاكية لها، و كلّها تشتمل على قول رسول الله ٩ مخاطباً هذا الجمع العظيم:

«ألست أولى بكم من أنفسكم»؟

قالوا: بلى، فأخذ بضبع علىّ بن أبى طالب و رفعها حتّى رُئىَ بياض إبطيهما،

فقال: «من كنت مولاه فهذا علىّ مولاه، اللهمَّ و الِ من والاه، و عادِ من عاداه، وانصر من نصره، و اخذل من خذله».

و فى الاحتجاج و روضة الواعظين و العدد القويّة و اليقين (۲) ذكروا خطبة طويلة جدّاً للنبىّ العظيم فى هذا المشهد العامّ، و بعض المؤلِّفين ذكر نصّاً متوسّطاً بين القصير و الطويل لهذه الخطبة؛ كابن المغازلى (۴۸۳ ه) فى المناقب كما مرّ، و ابن الأثير فى أُسدالغابة (۳)، و الشيخ أحمد أبوالفضل بن محمّد باكثير المكّى الشافعى (المتوفّى ۱۰۴۷ ه) فى وسيلة المآل فى عدّ مناقب الآل (۴)، والشيخ العاملى فى ضياء العالمين عن كتاب الولاية للطبرى المؤرِّخ (۵)، و المتّقى الهندى فى كنز العمّال (۶)، والحموينى فى فرائد السمطين (۷)، و ابن الصبّاغ المالكى فى الفصول المهمّة (۸)، و ابن كثير فى البداية و النهاية (۹)، و ابن حجر فى الصواعق المحرقة (۱۰)، و الحلبى فى السيرة النبوية (۱۱)، و الهيثمى فى مجمع الزوائد (۱۲)، و القرمانى فى أخبار الدول (۱۳)، و بعض المحدِّثين و الرواة ذكروا فقط نقطة هامّة من هذه الخطبة؛ و هى قول رسول الله ٩: من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه.

و بعد إيراد هذه الخطبة قال الشاعر الشهير حسّان بن ثابت لرسول الله ٩: ائذن لى يا رسول الله أن أقول فى علىّ أبياتاً تسمعهنّ، فقال ٩: قُل على بركة الله، فأنشد حسّان بن ثابت شعره المعروف:

يناديهمُ يوم الغدير نبيّهم

بخمّ و اسمع بالرّسول مناديافقال: فمن مولاكمُ و نبيّكمفقالوا و لم يبدوا هناك التعاميا إلهك مولانا و أنت نبيّناو لم تلق منّا فى الولاية عاصيافقال له قم يا علىّ فإنّنيرضيتك من بعدى إماماً و هاديافمن كنت مولاه فهذا وليّهفكونوا له أتباع صدقٍ مواليا هناك دعا: اللّهمّ والِ وليّهوكُن للّذى عادى عليّاً معاديا و قد روى هذه الأبيات الستّة العلامة الأمينى فى كتابه الغدير (۱۴) عن اثنى عشر من علماء أهل السنّة و عن اثنين و عشرين من علماء الإماميه، و نقلها عن كتاب سليمان بن قيس الهلالى و المولى محسن الفيض الكاشانى فى «علم اليقين» (۱۵) بزيادة أبيات أربعة، و قال بعد البيت الأوّل: وقد جاء جبريل عن أمر ربّه

بأنّك معصوم فلا تكُ وانيا و بلّغهم ما أنزل الله ربّهم إليكو لا تخش هناك الأعاديافقام به إذ ذلك رافع كفّهبكفّ علىٍّ مُعلن الصوت عاليا و زاد بعد البيت السادس: فيارَبّ انصر ناصريه لنصرهم

إمام هدى كالبدر يجلو الدياجيا ثمّ قال العلامة الأمينى: و الذى يظهر للباحث أنّ حسّاناً أكمل هذه الأبيات بقصيدة ضمّنها نبذاً من مناقب أميرالمؤمنين ٧ (۱۶). وفى ختام حديثنا عن هذه الخطبة الهامة، ولكى نرفع ما قد يتسرّب إلى نفوس البعض من الشك فيها نذكر شيئاً عن رواتها من الصحابة و التابعين، و ماأُلِّفَ فى حديث الغدير، فنقول:

أوّلًا: روى حديث الغدير من الصحابة مئة و عشرون صحابياً منهم:

۱. أبوبكر بن أبى قحافة التيمى: (المتوفى ۱۳ ه).

۲. أبوهريرة الدوسى: (المتوفّى ۵۷– ۵۹ ه).

۱- ينابيع المودّة ۱۱۳: ۱- ۱۱۴.

۲- الاحتجاج ۱۳۳: ۱- ۱۶۲؛ روضة الواعظين: ۸۹- ۱۰۱؛ العدد القويّة: ۱۶۹؛ اليقين: ۳۴۳- ۳۶۱. و راجع ما نقله العلامة المجلسى عن واقعة الغدير فى بحار الأنوار ۱۰۸: ۳۷- ۲۵۳.

۳- أُسد الغابة ۳۳: ۳- ۳۴.

۴- وسيلة المآل فى عدّ مناقب الآل: ۱۱۶- ۱۱۸.

۵- قال ابن كثير فى تاريخه ۱۴۶: ۱۱ فى ترجمة الطبرى: إنى رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم فى مجلدين ضخمين. انظر: الغدير، للعلامة الأمينى ۴۲۴: ۱- ۴۲۶.

۶- كنز العمال ۱۰۴: ۱۳- ۱۰۵.

۷- فرائد السمطين ۶۲: ۱- ۷۸.

۸- الفصول المهمة: ۴۰.

۹- البداية و النهاية ۱۹۷: ۵- ۲۰۵ و ۳۲۸: ۷- ۳۳۱.

۱۰- الصواعق المحرقة: ۴۲- ۴۹.

۱۱- السيرة النبوية ۳۳۶: ۳- ۳۳۷.

۱۲- مجمع الزوائد ۲۵۹: ۹.

۱۳- أخبار الدول: ۱۰۲.

۱۴- الغدير ۶۵: ۲.

۱۵- علم اليقين: ۳۴۳- ۳۶۱.

۱۶- الغدير ۷۳: ۱

ص: ۲۵

۳. أبوليلى الأنصارى: إستشهد بصفين مع الإمام على ۷ سنة ۳۷ ه.

۴. أبو زينب بن عوف الأنصارى.

۵. أبو فضالة الأنصارى: بدرى استشهد بصفين مع الإمام على ۷.

۶. أبو قدامة الأنصارى.

۷. أبو عمرة بن عمرو بن محصّن الأنصارى.

۸. أبو الهيثم بن التيّهان، إستشهد بصفين مع الإمام على ۷ سنة ۳۷ ه.

۹. أبو رافع القبطىّ.

۱۰. أبو ذؤيب خويلد أو خالد- ابن خالد بن محرث الهذلى.

ثانياً: و رواه أيضاً اثنان و ثمانون من التابعين، منهم:

۱. أبو راشد الحبرانى الشامى، إسمه أخضر، نعمان.

۲. أبو سلمة عبدالله بن عبدالرحمن بن عوف الزّهرى المدنى (المتوفّى ۹۴ ه).

۳. أبو سليمان المؤذّن.

۴. أبو صالح السمّان، ذكوان المدنى (المتوفّى ۱۰۱ ه).

۵. أبو عنفوانة المازنى.

۶. أبو عبد الرحيم الكندى.

۷. أبو القاسم الأصبغ بن نُباتة التميمى، الكوفى.

۸. أبو ليلى الكندى.

۹. إياس بن نُذَير.

۱۰. جميل بن عمارة.

ثالثاً: و قد أيّده و رواه من العلماء و أعلام الحفاظ والمؤرّخين ثلاثمئة و ستون، نذكر منهم:

۱. الحافظ أبو عيسى الترمذى (المتوفّى ۲۷۹ ه). (۱)

۲. الحافظ أبو جعفر الطحاوى (المتوفّى ۲۷۹ ه). (۲)

۳. الحافظ ابن عبد البرّ القرطبى (المتوفّى ۴۶۳ ه). (۳)

۴. الفقيه أبو الحسن بن المغازلى الشافعى (المتوفّى ۴۸۳ ه). (۴)

۵. حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (المتوفّى ۵۰۵ ه). (۵)

۶. الحافظ أبو الفرج بن الجوزى الحنبلىّ (المتوفّى ۵۹۷ ه).

۷. أبو المظفر سبط ابن الجوزى الحنفى (المتوفّى ۶۵۴ ه). (۶)

۸. ابن أبى الحديد المعتزلى (المتوفّى ۶۵۵ ه). (۷)

۱- سنن الترمذى ۵۹۱: ۵.

۲- مشكل الآثار ۳۰۸: ۲.

۳- الاستیعاب ۳۷۳: ۲.

۴- مناقب علی بن أبی طالب: ۲۷ برقم ۳۹.

۵- سرالعالمین: ۲۱.

۶- تذكرة الخواص: ۲۹.

۷- شرح نهج البلاغة ۱۶۶: ۹.

ص: ۲۶

۹. الحافظ أبو عبدالله الكنجى الشافعى (المتوفّى ۶۵۸ ه). (۱)

۱۰. الشيخ أبو المكارم علاء الدين السمنانى (المتوفّى ۷۳۶ ه). (۲)

۱۱. شمس الدين الذهبى الشافعى (المتوفّى ۷۴۸ ه). (۳)

۱۲. شمس الدين الجزرى الشافعى (المتوفّى ۸۳۳ ه). (۴)

۱۳. الحافظ ابن حجر العسقلانى (المتوفّى ۸۵۲ ه). (۵)

۱۴. جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن صلاح الدين الحنفى. (۶)

۱۵. نور الدين الهروى التازى الحنفى (المتوفّى ۱۰۱۴ ه). (۷)

۱۶. زين الدين المناوى الشافعى (المتوفّى ۱۰۳۱ ه). (۸)

۱۷. نور الدين الحلبى الشافعى (المتوفّى ۱۰۴۴ ه). (۹)

۱۸. السيد محمد البرزنجى الشافعى (المتوفّى ۱۱۰۳ ه). (۱۰)

۱۹. السيد ابن حمزه الحرانى الدمشقى الحنفى (المتوفّى ۱۱۲۰ ه). (۱۱)

۲۰. ميرزا محمد البدخشى. (۱۲)

۲۱. مفتى الشام العمادى الحنفى الدمشقى (المتوفّى ۱۱۷۱ ه). (۱۳)

۲۲. أبو العرفان الصبان الشافعى (المتوفّى ۱۲۰۶ ه). (۱۴)

۲۳. محمود الآلوسى البغدادى (المتوفّى ۱۲۷۰ ه). (۱۵)

۲۴. الشيخ محمود الحوت البيروتى الشافعى (المتوفّى ۱۲۷۶ ه). (۱۶)

۲۵. المولوى ولىّ الله اللكهنوى. (۱۷)

۲۶. الحافظ المعاصر شهاب الدين الغمارى المغرب. (۱۸)

۲۷. الشيخ عبدالعزيز محمد بن الصدّيق المغربى. (۱۹)

رابعاً: من ألف فى حديث الغدير.

و إليك قائمة بأسماء بعض من ألف فى حديث الغدير و اسم كتابه أو رسالته و لا ندّعى هنا أننا سنذكر كل ما أُلّف بهذا الصدد لأنّ ذلك لا ولن يتوقف إن شاء الله تعالى:

۱. أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبرى، الآملى، (المتوفّى ۳۱۰ ه) له كتاب «الولاية فى طرق حديث الغدير».

۲. أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمدانى، الحافظ المعروف بابن عقدة (المتوفّى ۳۳۳ ه) له «كتاب الولاية فى طرق حديث الغدير».

۳. أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن سالم التميمى، البغدادى، المعروف بالجُعابى (المتوفّى سنة ۳۵۵ ه) له كتاب «مَنْ روى حديث غدير خم».

۴. أبو طالب عبدالله بن أحمد بن زيد الأنبارى، الواسطى (المتوفّى ۳۵۶ ه) له كتاب «طرق حديث الغدير».

۵. أبوغالب أحمد بن محمد بن محمد الزّرارى (المتوفّى ۳۶۸ ه) له جزء فى خطبة الغدير.

۶. أبو المفضّل محمد بن عبدالله بن المطّلب الشيبانى (المتوفّى ۳۷۲ ه) له كتاب «مَنْ روى حديث غدير خم».

۱- كفاية الطالب: ۶۰- ۶۱.

۲- العروة لأهل الخلوة: ۴۲۲.

۳- تلخيص المستدرك ۶۱۳: ۳.

۴- أسنى المطالب: ۴۸.

۵- فتح البارى ۷۴: ۷.

۶- المعتصر من المختصر ۳۰۱: ۲.

۷- المرقاة فى شرح المشكاة ۴۶۴: ۱۰.

۸- فيض القدير ۲۱۸: ۶.

۹- السيرة الحلبية ۲۷۴: ۳.

۱۰- النواقض للروافض: الورقة ۸.

۱۱- البيان و التعريف ۷۵: ۳.

۱۲- نزل الأبرار: ۵۴.

۱۳- الصلات الفاخرة: ۴۹.

۱۴- إسعاف الراغبين فى هامش نورالأبصار: ۱۵۳.

۱۵- روح المعانى ۱۹۵: ۶.

۱۶- أسنى المطالب: ۴۶۱.

۱۷- مرآة المؤمنين فى مناقب أهل بيت سيد المرسلين: ۴۰.

۱۸- تشنيف الآذان: ۷۷.

۱۹- مجلة الموسم: ۷۴، م ۲- ۱۱۹۰ م، مهرجان الغدير/ لندن.

ص: ۲۷

۷. الحافظ على بن عمر الـدارقطنى، البغدادى (المتوفّى ۳۸۵ ه) قال الكنجى الشافعى فى كفايته عنـد ذكر حديث الغدير: جمع الحافظ الدارقطنى طرقه فى جزء.

۸. الشيخ محسن بن الحسين بن أحمد النيسابورى، الخزاعى، له كتاب «حديث الغدير».

۹. على بن عبدالرحمن بن عيسى بن عروة بن الجراح القنانى (المتوفّى ۴۱۳ ه) له كتاب «طرق خبر الولاية».

۱۰. أبو عبدالله الحسين بن عبيد الله بن إبراهيم الغضائرى المتوفّى (۴۱۱ ه) له كتاب «يوم الغدير».

۱۱. الحافظ أبوسعيد مسعود بن ناصر بن أبى زيد السجستانى (المتوفّى ۴۷۷ ه) له كتاب «الدراية فى حديث الولاية».

۱۲. أبو الفتح محمد بن على بن عثمان الكراجكى (المتوفّى ۴۴۹ ه) له كتاب «عدة البصير فى حجج يوم الغدير».

۱۳. على بن بلال بن معاوية بن أحمد المهلبى: له كتاب «حديث الغدير».

۱۴. الشيخ منصور اللائى، الرازى، له كتاب «حديث الغدير».

۱۵. الشيخ على بن الحسن الطاطرى، الكوفى، صاحب كتاب «فضائل أميرالمؤمنين ۷» له «كتاب الولاية».

۱۶. أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله الحسكانى: له كتاب «دعاة الهداة إلى أداء حق الموالاة»، يذكر فيه حديث الغدير.

۱۷. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى (المتوفّى ۷۴۸ ه) له كتاب «طرق حديث الغدير».

۱۸. شمس الدين محمد بن الجزرى، الدمشقى، المقرى، الشافعى (المتوفّى ۸۳۳ ه) أفرد رسالة فى «إثبات تواتر حديث الغدير».

۱۹. المولى عبدالله بن شاه منصور القزوينى، الطوسى له: «الرسالة الغديرية».

۲۰. السيد سبط الحسن الجايسى، الهندى، اللكهنوى: له كتاب «حديث الغدير» بلغة الأردو طبع فى الهند.

۲۱. السـيد مير حامد حسـين ابن السـيد محمد قلى الموسوى، الهندى، اللكهنوى (المتوفّى سنة ۱۳۰۶ ه)، ذكرحـديث الغدير و طرقه و تواتره و مفاده فى مجلّدين ضخمين فى ألف و ثمان صحائف. و هما من مجلّدات كتابه الكبير «العبقات».

۲۲. السيد مهدى ابن السيد على الغريفى، البحرانى، النجفى (المتوفّى ۱۳۴۳ ه (له كتاب «حديث الولاية فى حديث الغدير».

۲۳. الحاج الشيخ عباس بن محمدرضا القمى (المتوفّى ۱۳۵۹ ه).

۲۴. السـيد مرتضـى حسـين الخطيب الفتحبورى، الهنـدى: له كتاب تفسـير التكميل فى آيـة: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ النازلة فى واقعة الغدير.

۲۵. الشيخ محمدرضا ابن الشيخ طاهر آل فرج الله، النجفى: له كتاب «الغدير فى الإسلام».

۲۶. العّلامة الشيخ عبدالحسين بن أحمد الأمينى النجفى (المتوفّى ۱۳۹۰ ه)، له: «الغدير فى الكتاب و السنة و الأدب» فى ۱۱ جزءاً. (۱)

هذا ما اسـتطعنا أن نعرضه للقارئ الكريم من خطب رسول الله ۹ فى حجـة الوداع، عسـى أن نكون قد ساهمنا فى رسم صورة لما بذله رسول الله ۹ من جهود و تضحيات فى سبيل إرشاد أُمتّه و توضيح معالم الدين الإسلامى الحنيف لأجيال الأُمّة الإسلامية.

نسأل الله أن يوفقنا للاستنان بسنّته و أن يرزقنا شفاعته فى الآخرة و زيارته فى الدنيا، والشكر لله، و له الحمد على توفيقه للصالحات.

۱- يعـد هـذا الكتاب موسوعة شاملة لكل ما يتعلّق بخطبة النبى ۹ فى غـدير خم فى اليوم الثامن عشـر من ذى الحجـة الحرام عام حجة الوداع. و هو شامل لمناقشات تتعلّق بأسانيد الخطبة و دلالتها و ما تثبته و تنفيه.

ص: ۲۸

ص: ۲۹

ص: ۳۰

ص: ۳۱

ص: ۳۲

ص: ۳۳

رسالة «نيات الحج»

الأثر المكتشف حديثاً لابن فهد الحلّی

المقدمة

جمال الدين أبوالعباس أحمد بن محمد بن فهد الأسدی الحلی (۷۵۶- ۸۴۱ ه-) الفقيه والعارف الشيعی البارز فی القرن الثامن والتاسع الهجری، ترک هذا الفقيه أعمالًا متعددة فی مختلف مجالات العلوم الإسلامية، سيما فی الفقه الشيعی.

انظر حول حياته، وأعماله المنابع والمصادر والمخطوطات والنسخ علی الشكل التالی:

۱- موسوعة مؤلفی الإمامية، ج ۵، صص ۸۳- ۱۰۹، ط قم، مجمع الفكر الإسلامی، ۱۴۲۳ ه-.

۲- نسخه پژوهشی، ج ۳، صص ۳۳۵- ۳۹۸، مقالة: «راهنمای پژوهش درباره ابن فهد الحلی/ مرشد بحثی حول ابن فهد الحلی». طهران، مكتبة ومتحف ومركز وثائق مجلس الشوری الإسلامی، ۱۳۸۵ ش، ۲۰۰۶ م.

ففی هذه المصادر هناک حديث عن أكثر من ۵۰ مؤلّفاً لابن فهد، ورسالة «نيات الحج» التی عثر عليها حديثاً لابن فهد الحلی، موجودة بنسخة واحدة مع تسع رسائل أخری له فی مكتبة جامعة لوس‌انجلس تحت رقم. ۱۳۱۳ M وهناک صورة لها فی مكتبة آية‌الله المرعشی النجفی/ تحت رقم: ۱۱۱۹.

ص: ۳۴

وهـذه المجموعة كتبت بيد عبدالمحمود بن محمد بن على الحسينى فى شوال ۸۱۱ ه‍-، أى فى حياة المؤلف، وقـد ذكر فيها المؤلف مع دعاء «أدام الله أيامه» و «أدام الله فضائله».

وفى الورقة ۳۲ من هذه المجموعة توجد رسالة نيات الحج، وقبلها «رسالة وجيزة فى واجبات الحج ونياته»، وبعدها «كفاية المحتاج فى مناسك الحاج»، وربما لصغر حجم هذه الرسالة واقتراب موضوعها من الرسالتين السابقة واللاحقة عليها لم يلحظها المفهرسون وعلماء المصنفات؛ فظلّت بعيدة عن التناول. (۱)

وعلى أى حال، فتحقيق وتصحيح هذه الرسالة القيمة فى هذه الأيام المضطربة منحت هذا العبد الأقل ساعات أنس وسعادة، وأرجو أن تمنح أهل البحث والتحقيق ذلك فى عملهم. والسلام.

أبوالفضل حافظيان

۳۰ مهر ۸۶ ش/ ۲۰۰۷ م

۱. انظر: نشرية نسخه‌هاى خطى ۷۲۴: ۱۱.

رسالة نيّات الحجّ لابن فهد

أتوجَّهُ إلى بيت الله تعالى بمكة لأداء حَجّ التمتع حجّ الإسلام، لوجوبه قربةً إلى الله.

أُحْرِم بالعمرة المتمتّع بها إلى الحجّ عمرة الإسلام وأُلبّى التلبيات الأربع لأعقد بها الإحرام المذكور؛ لوجوب ذلك كلّه قربةً إلى الله.

أطوف طواف العمرة المتمتّع بها إلى الحجّ عمرة الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أُصلى ركعتى طواف العمرة المتمتّع بها إلى الحجّ حجّ الإسلام أداءً؛ لوجوبهما قربةً إلى الله.

أسعى سعى العمرة المتمتّع بها إلى الحجّ عمرة الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أُقَصِّرُ للإحلال من عمرة المتمتّع بها إلى حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أُحْرِمُ بحجّ التمتّع حجّ الإسلام وأُلبى التلبيات الأربع لأعقد بها الإحرام المذكور؛ لوجوب ذلك كلّه قربةً إلى الله.

أَقِفُ بعرفة لحجّ التمتّع حجّ الإسلام، لوجوبه قربةً إلى الله.

أَقِفُ بالمشعر لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أرمى جمرة العقبة الرمى الواجب علىّ فى حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أَذْبَحُ الهدىَ الواجب علىّ فى حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

آكُلُ من الهدى الواجب علىّ فى حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

اهدى ثلث الهدى الواجب علىّ فى حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أتصدَّق بثلث الهدى الواجب علىّ فى حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أَحْلِقُ رأسى حلق حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أُطوف طواف حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربة إلى الله.

أُصلى ركعتى طواف حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربة إلى الله.

أسعى لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أطوف طواف النساء الواجب علىّ فى حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

ص: ۳۵

أُصلّى ركعتى طواف النساء الواجب علىّ فى حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبهما قربةً إلى الله.

أبيت الليلة بِمنى المبيت الواجب علىّ فى حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

أرمى هذه الجمرة الرمى الواجب علىّ فى حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلى الله.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد النبى وآله الطيبين الطاهرين. والحمدلله وحده. ربّ اختم بالخير إنّك على كل شىءٍ قدير.

فليكن هذا آخر الرسالة حذر الإسهاب بالإطالة وصلى الله على محمد و آله و سلم تسليماً والحمد لله ربّ العالمين ربّ يسّر و اختم بالخير إنك على كل شىءٍ قدير و بالإجابة جدير.

ص: ۳۶

توسعة المسعى دراسة فقهية تاريخية بيئية جيولوجية

أ. د. عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان

بعد أن بادرت مجلة «ميقات الحج» لنشر أوائل الدراسات الفقهية حول مشروع توسعة المسعى، أسهم فيها بعض الفقهاء وأساتذة الحوزة العلمية المحترمين، على رأسهم سماحة آية الله العلامة الشيخ جعفر السبحانى، فشارك المجلة هذه المرّة فى هذا البحث بمساهمة مشكورة من سماحة الأستاذ الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، الذى اعتنى بالدراسات التى نشرت فى المجلة، واستفاد من إفادات العلامة السبحانى، فإلى القارئ الكريم نقدم هذه الدراسة الشيّقة.

التحرير

الصفا والمروة فى اللغة والتفسير

جاء شرح كلمة (الصفا) فى كتب اللغة لدى العلامة مرتضى الزبيدى:

«الصفا: من مشاعر مكة المكرمة شرفها الله تعالى جبل صغير بلخف جبل أبى قبيس ومنه قوله تعالى: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ، وابتنيت على متنه داراً فيحاء، أى واسعة، وبها ختم المصنف كتابه هذا» (۱).

«المروة (بهاء): جبل بمكة المكرمة يذكر مع الصفا، وقد ذكرهما الله تعالى فى كتابه العزيز: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ، قال الأصمعى: سمى لكون حجارته براقة». (۲)

ذكر الإمام القرطبى فيما يخص الصفا والمروة قوله:

«أصل الصفا فى اللغة الحجر الأملس، وهو هنا جبل بمكة المكرمة معروف، وكذلك المروة جبل أيضاً» (۳).

ذكر العلامة الفقيه المؤرخ القاضى تقى الدين الفاسى أن:

«الصفا الذى هو مبدأ السعى وهو فى أصل جبل أبى قبيس على ما ذكره غير واحد من العلماء، ومنهم أبو عبيد البكرى، والنووى، وهو موضع مرتفع من جبل له درج، وفيه ثلاثة عقود، والدرج من أعلى العقود، وأسفلها، والدرج الذى يصعد من الأولى إلى الثانية منهن بثلاث درجات وسطها، وتحت العقود درجة، وتحتها فرشة كبيرة، ويليها ثلاث درجات، ثم فرشة مثل الفرشة السابقة تتصل بالأرض، وربما أهيل التراب عليها فغيب ...». (۴)

يذكر العلامة الفقيه فضيلة الشيخ عبدالفتاح بن حسين راوه المكى وهو من علماء مكة المكرمة المعاصرين (۱۴۲۴ ه-)، وعلى معرفة كبيرة بأحيائها وجبالها، فى التعريف بهذين الجبلين: جبل الصفا، وجبل المروة قائلًا:

«الصفا: طرف سفح جبل أبى قبيس...

۱- تاج العروس، مادة صفو.

۲- تاج العروس، مادة مرو.

۳- الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثانية، بيروت: دار إحياء التراث العربى، ۱۷۹: ۱.

۴- شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام، الطبعة الأولى، تحقيق لجنة من العلماء والأدباء مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، عام ۱۹۵۶ م ۲۷۹: ۱.

ص: ۳۷

جبل لعلع: هو الجبل الـذى بسـفحه المروة، وعلى سـطحه محلـة القرارة وشارع الفلق، وأول محلة النقاء، وجبل لعلع: هو جزء من سـفح جبل قعيقعان كأنف له كجبل الصفا لجبل أبى قبيس ...». (۱)

هذه التعريفات (للصفا والمروة) تفيد أنهما جبلان، أما جبل الصفا فممتد إلى جبل أبى قيس ويقع جبل الصفا فى سفحه، وجبل المروة ممتد إلى جبل (لعلع)، ويقع فى سـفحه، وكل جبل له قاعدة من العرض تمتد على جميع جهاته، وما ظهر على وجه الأرض أصـغر مما اختفى منه تحت الأرض، وقد علتهما المساكن فى أجزاء كبيرة منهما من قديم الزمن، يشـهد لهذا ما ذكره العلامة مرتضى الزبيدى أنه بنى على جبل الصفا داراً فيحاء.

يدرك هذه الحقيقة كل من شاهد هذين المشـعرين قبل أن تمتد إليهما يد التغيير قبل التوسـعة السعودية للحرم المكى قبل عام ۱۳۷۵ ه-، وتخطيط الشوارع من جهتهما.

اسـتوجبت التوسـعة السـعودية للحرم الشـريف، وإعادة تخطيط ما حوله من شوارع إلى تكسير الكثير من أجزاء الجبلين: الصفا والمروة تمهيداً لتسوية سـطحهما بالأرض، واتساع الشوارع من حولهما، وقد أبرز هذه الحقائق العلامة المؤرخ فضيلة الشيخ محمد طاهر كردى الخطاط فى العبارة التالية:

«وممـا يشبـه مـا ذكره الإمـام القطبى فى تـاريخه عن مـا أخـذ من أرض المسعى وأدخل فى المسجد الحرام ما أحـدث فى زماننا فى التوسـعة السـعودية للمسـجد الحرام، وتكسـير شىء من جبل الصفا إلى جبل المروة زيادة فى عرض المسعى، وليكون منظره جميلًا فى رأى العين وذلك فى سنة ۱۳۷۷ هجرية ...» (۲)

أيـد هذه الحقائق التى كانت مشاهدة للعيان، وعاصـرها شـيوخ الحاضـر، وأدلى بها الشـهود الثقات من أعيان مكة وكبارها، من الذين كانوا يقطنون تلك المنطقتين، والمعاصـرين الـذين عاشوها منـذ صـباهم ووثقت شـهادتهم المحكمة الشـرعية الكبرى بمكة المكرمة، تؤيد الخرائط والصور القديمة قبل أعمال التوسعة السعودية ما أدلى به أولئك الشهود العدول قبل التغييرات التى طرأت على منطقة ما حول الحرم المكى الشريف.

تميزت العمارة السـعودية فيما يخص جبل الصفا، بقطعه عن أصله جبل أبى قبيس، وأبقت على بعض الصخرات فى نهايته، علامة على موضع المشـعر، وكذلك بالنسبة لجبل المروة، بيد أن وجود مستويين للحرم الشريف فى جهة المروة أُحدث له مدخلان: مدخل أعلى للـدور الأـعلى وهو مساو لارتفاع جبل المروة فى اتجاه الصاعـد إلى القرارة، ومـدخل أسـفل بقى لاتصال المروة المشعر بأصـله جبل قعيقعان واضحاً مؤدياً إلى المدعى وقد نال حظه من القطع والتكسير، والاختزال من جانبيه الشرقى والغربى، وأعلاه.

النصوص الفقهية فيما يخص حدود المسعى

تمثـل النصـوص الفقهيـة حقيقـة قضيـة البحث: (المشـكلة: وهى مـدى امتـداد جبلى الصـفا والمروة عرضـاً فى الساحـة الشـرقية للحرم الشريف) وصحة السعى فى الإضافة الجديدة، مما يراد إثباته فى هذا البحث.

الصفا والمروة فى التراث الإسلامى (جبلان)، والجبل معناه فى اللغة العربية «اسم لكل وتد من أوتاد الأرض إذا عظم وطال من الأعلام والأطواد والشناخيب، وأما ماصغر وانفرد فهو من القنان والقور، والأكم، والجمع أجبل، وأجبال، وجبال» (۳)

تتضح حقيقة (الصفا، والمروة) هل هما جبلان، أو أكمتان، أو مرتفعان من النصوص التالية:

جاء فى كتاب القرى لقاصـد أم القرى للحافظ أبى العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر محب الدين الطبرى المكى (۶۱۵- ۶۹۴ ه-) (فى الباب السادس عشر فى السعى ۱ ما جاء فى سبب شرعية السعى):

«ثم نظرت [هـاجر] إلى المروة فقـالت لـو مشـيت بين هـذين الجبلين، تعللت حـتى يموت الصـبى فمشت بينهمـا ثلاـث مرات، أو أربع مرات، لا تجيز بطن الوادى إلا رملًا، ثم رجعت إلى ابنها فوجـدته ينشغ فعادت إلى الصـفا، ثم مشت إلى المروة حتى كان مشيها سبع

مرات ...» (۴)

جاء فی كتاب تفسير التحرير والتنوير للعلامة سماحة الأستاذ الإمام محمد الطاهر بن عاشور:

«والصفا والمروة اسمان لجبلين متقابلين، فأما الصفا: فهو رأس نهاية جبل أبی قبيس، وأما المروة فرأس هو منتهی جبل قعيقعان ...»

تنص كتب الفقه فی جميع المذاهب علی أن من واجبات السعی استيفاء المسافة بين جبلی الصفا والمروة، ويتعرضون أحياناً إلی تحديد المسافة الطولية دون العرضية، وهذا يوضح أن مناط الحكم، ومتعلقه فی استيفاء المسافة الطولية هو أداء شعيرة السعی بين جبلی الصفا والمروة بصرف النظر عن السعة العرضية مادام يصدق علی الساعی أنه أدی شعيرة السعی بين الجبلين المذكورين، وفی حدودهما، ومن ثم يحكم بالصحة علی السعی إذا أكمل الحاج، أو المعتمر الشعيرة بتلك المسافة حسبما قررها علماء المناسك، أو عدم الصحة إذا لم يستوف تلك المسافة بين الجبلين المذكورين. فالواجب علی الساعی كما هی نصوص كافة الفقهاء تحری كمال المسافة الطولية بين جبلی الصفا والمروة لا غير، وندر من نوه من الفقهاء عن المساحة العرضية، وإذا ذكر الانحراف فی بعض نصوص الشافعية، أو غيرهم فإنما يتحقق بالخروج عن عرض الجبلين الصفا والمروة، ذلك لأنه لم يذكر أحد من الفقهاء نصاً، أو أثراً (فيما أحاط به العلم) يحدد عرض المسعی، وما ورد ذكره هو تقرير للواقع ليس إلا، وليس

۱- الإفصاح علی مسائل الإيضاح علی مذاهب الأئمة الأربعة، الطبعة الثانية مكة المكرمة: المكتبة الإمدادية، عام ۱۴۱۴/ ۱۹۹۴: ۱۹۱، ۲۵۲.

۲- يضيف فضيلة الشيخ طاهر قائلًا: «فإن هذه الحادثة تشبه ما ذكره الإمام القطبی، لكن مع الفارق، فما ذكره القطبی عبارة عن إدخال جزء من المسعی فی المسجد الحرام، وأما ما نذكره فهو عبارة عن إدخال جزء من جبل الصفا إلی حدود المسعی.

فمما لاشك فيه أن هذا الجزء المأخوذ من جبل الصفا فی زماننا هذا، والمدخول فی حدود المسعی لم يكن رسول الله ۹ قد سعوا فی هذا الجزء المستحدث اليوم» هذا صحيح، ولكن الامتداد لعرض المسعی لم يخرج عن حدودها الطبيعية.

يتضح من عبارة العلامة الشيخ محمد طاهر كردی أنه لم يلتفت إلی مناط الحكم فی السعی وهو أن يتم سعی الحاج، أو المعتمر بين جبلی الصفا والمروة وبقدر ما يمتد عرضهما من الناحيتين الشرقية والغربية، ولهذا فمن كان سعيه فی حدود عرض الجبلين فهو ليس خارجاً عنهما إطلاقاً فإن حدود الجبلين هو مناط أحكام السعی ومتعلقها.

۳- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، الطبعة الثالثة، بيروت: دار صادر، عام ۱۴۱۴/ ۱۹۹۴، ۹۶: ۱۱.

۴- عارضه مصطفی السقا، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفی البابی الحلبی وأولاده بمصر، ۳۶۰.

ص: ۳۸

هو فی معرض الاستدلال للعرض ولا یحتج بمثل ذلک فی إثبات عرض المسعی؛ إذ لم یذکره أحد من الفقهاء استدلالًا، بل تحدید لواقع العرض فی زمانه، وهو تحدید تقریبی، وفیما یلی اقتباس لنماذج مختارة من نصوص فقهیة من الکتب المعتمدة:

الصفا والمروة فی کتب المناسک فی المذاهب الأربعة

المذهب الحنفی:

«شرائط صحة السعی.. الأول: (کینونته بین الصفا والمروة) أی بأن لا ینحرف عنهما إلی أطرافهما سواء کان بفعل نفسه، أو بفعل غیره بأن کان مغمی علیه، ولو بغیر أمره.. محمولًا، أو راکباً صح سعیه أی لحصول سعیه کائناً بینهما أی بین المکانین». (۱)

المذهب المالکی:

«وأما الواجب فیحصل بدخوله بنفسه، أو بدایته تحت العقد المشرف علی المروة، وبوقوفه بنفسه، أو بدایته علی الأرض ملاصقاً لأسفل ما ظهر من الدرج، أو قریباً من ذلک، لأنه یصدق علیه أنه استوعب ما بین الصفا والمروة» (۲)

المذهب الشافعی:

«أما واجبات السعی: فالأول منها أن یقطع جمیع المسافة بین الصفا والمروة علی أی صفة من المشی والسیر حتی لو أبقی من المسافة بعض خطوة، أو أقل لم یصح». (۳)

یقول العلامة شمس الدین الرملی الشافعی: «ویشترط قطع المسافة بین الصفا والمروة کل مرة، ولابد أن یکون قطع ما بینهما من بطن الوادی، وهو المسعی المعروف الآن، وإن کان فی کلام الأزرقی ما یوهم خلافه فقد أجمع العلماء وغیرهم من زمن الأزرقی إلی الآن علی ذلک، ولم أر فی کلامهم ضبط عرض المسعی، وسکوتهم عنه لعدم الاحتیاج إلیه، فإن الواجب استیعاب المسافة بین الصفا والمروة کل مرة، ولو التوی فی سعیه عن محل السعی یسیراً لم یضر کما نص علیه الشافعی» (۴)

المذهب الحنبلی:

«ویجب استیعاب ما بین الصفا والمروة لفعله ۹، فإن لم یرقهما ألصق عقب رجلیه بأسفل الصفا، وألصق أبعدهما بأسفل المروة لیستوعب ما بینهما، وإن کان راکباً لعذر فعل ذلک بدابته، وهذا کان أولًا، أما بعد العمارة الجدیدة فالظاهر أنه لا یکون مستوعباً إلا إذا رقی علی المحل المتسع، وهو آخر درجة والله أعلم». (۵)

وقد جاء فی نص القرار ۱۱۸۴ الوارد من الهیئة المشکلة من: السید علوی المالکی، وعبد الملک بن إبراهیم، والشیخ عبد الله بن دهیش رقم ۳۵، فی ۲۳/ ۹/ ۱۳۷۴ ه- مایأتی:

«ولم نجد للحنابلة تحدیداً لعرض المسعی، وجاء فی المغنی صحیفة ۴۰۳، جلد ۳: أنه یستحب أن یخرج إلی الصفا من بابه، فیأتی الصفا فیرقی علیه حتی یری الکعبة، ثم یستقبلها، قال فی الشرح الکبیر صحیفة ۴۰۵، جلد ۳: فإن ترک مما بینهما شیئاً (أی ما بین الصفا والمروة) ولو ذراعاً لم یجزئه حتی یأتی به انتهی، هذا کلامهم فی الطول، ولم یذکروا تحدید العرض» (۶)

وقد جاء ضمن هذا التقریر: «وحیث إن الأصل فی السعی عدم وجود بناء، وأن البناء حادث قدیماً وحدیثاً، وأن مکان السعی تعبدی، وأن الالتواء الیسیر لا یضر؛ لأن التحدید المذکور بعالیه العرضی تقریبی بخلاف الالتواء الکثیر کما تقدمت الإشارة إلیه» (۷)

ذکر العلامة الشیخ عبد الرحمن الناصر السعدی عن بعض اجتماعات الشیخ محمد بن إبراهیم أیام الحج بالعلماء من بلاد الحرمین والمملکة العربیة السعودیة وناقشوا کثرة الحجاج والحلول لکثرة الزحام وتعرضوا من بین المسائل:» لمسألة توسعة المسعی منهم من قال:

«إن عرضه لا یحد بأذرع معینة، بل کل ما کان بین الصفا والمروة فإنه داخل فی المسعی کما هو ظاهر النصوص من الکتاب، والسنة، وکما هو ظاهر فعل الرسول ۹ وأصحابه ومن بعدهم، ومنهم من قال یقتصر فیه علی الموجود، لا یزاد فیه إلا زیادة یسیرة، یعنی فی

عرضه وهو قول أكثر الحاضرين».

يعلق فضيلة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدى قائلًا:

«ويظهر من حال الشيخ محمد أن يعمل على قول هؤلاء؛ لأنه لا يحب التشويش واعتراض أحد» (۸)

التحولات التاريخية لمشعر المسعى

جاء فى تاريخ العلامة أبى الوليد محمد بن عبدالله الأزرقى فيما يتصل بالتحولات التاريخية لمشعر المسعى تحت عنوان: (ذكر زيادة المهدى الآخرة فى شق الوادى من المسجد الحرام) قوله:

۱- حسين عبد الغنى، إرشاد السارى إلى مناسك الملا على القارى، ۱۱۷.

۲- المالكى، حسين بن إبراهيم، توضيح المناسك، ۱۲۹.

۳- ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق محمد بن عبيد، مكة المكرمة: معهد خادم الحرمين الشريفين، عام ۱۴۲۲/ ۲۰۰۱، ۱۳۲.

۴- الرملى، شمس الدين محمد، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده، ۲۹۱: ۳.

۵- عبد الرحمن بن جاسر، مفيد الأنام فى تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام، الطبعة الثالثة الرياض: طبع على نفقة الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود عام ۱۴۱۲/ ۱۹۹۲،: ۲۷۲.

۶- الشثرى، سعد بن ناصر بحث فى مشعر المسعى، نقلًا من مجموع فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم: ۳.

۷- الشثرى، نقلًا من ديوان رئاسة مجلس الوزراء، ۶.

۸- الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، الطبعة الثالثة، الرياض: دار المعالى ودار ابن الجوزى، عام ۱۴۲۰ ه-، ۲۸۴.

ص: ۳۹

«وكان المسعى فى موضع المسجد الحرام اليوم، وكان باب دار محمد بن عباد بن جعفر عند حد ركن المسجد الحرام اليوم عند موضع المنارة الشارعة فى نحر الوادى فيها علم المسعى، وكان الوادى يمر دونها فى موضع المسجد الحرام اليوم». (۱)

كما ذكر العلامة الأزرقى تحت عنوان: (ذكر ذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا، وذرع ما بين الصفا والمروة) قوله:

«وذرع ما بين العلم الذى على باب المسجد إلى العلم الذى بحذائه على باب دار العباس ابن عبدالمطلب، وبينهما عرض المسعى خمسة وثلاثون ذراعاً ونصف، ومن العلم الذى على باب دار العباس إلى العلم الذى عند باب دار ابن عباد الذى بحذاء العلم الذى فى حد المنارة وبينهما الوادى مائة ذراع وواحد وعشرون ذراعاً». (۲)

ما ذكره الأزرقى هنا يقرر فيه واقع المسعى بعد توسعة محمد المهدى فى موضعين:

أولًا: المسافة العرضية بين دار العباس، وباب المسجد مقابله خمسة وثلاثون ذراعاً.

ثانياً: المسافة بين العلم على باب دار العباس إلى العلم الآخر الذى عند دار ابن عباد بحذاء العلم الذى فى حد المنارة، مائة ذراع وواحد وعشرون ذراعاً، وهذا مقدار المسافة بين العلمين طولًا.

يؤكد المؤرخ الفقيه العلامة قطب الدين محمد بن أحمد الحنفى المكى المتوفى عام ۹۸۸ ه- ما ذكره الفقهاء المؤرخون قبله: الأزرقى، والفاكهى، والفاسى (۸۳۲ ه-) وغيرهم لما حدث قبله، وظل واقعاً قائماً حتى عصره فى قوله:

«كان المسعى فى موضع المسجد الحرام اليوم، وكان باب دار محمد بن عباد بن جعفر العبادى عند حد ركن المسجد اليوم عند موضع المنارة الشارعة فى نحر الوادى عن دونها فى بعض المسجد الحرام اليوم، فهدموا أكثر دار محمد بن عباد بن جعفر العبادى، وجعلوا المسعى والوادى فيها، وكان عرض الوادى من الميل الأخضر اللاصق للمئذنة التى فى الركن الشرقى، وكان هذا الوادى مستطيلًا إلى أسفل المسجد الآن يجرى فيه السيل ملاصقاً لجدر المسجد إذ ذاك، وهو الآن بطن المسجد من الجانب اليمانى ... ويجعل مسيلًا محلًا للسعى ...» (۳)

ثم أضاف العلامة الفقيه المؤرخ قطب الدين الحنفى قوله:

«وأما المكان الذى يسعى فيه الآن فلا يتحقق أنه بعض من المسعى الذى سعى فيه رسول الله ۹، أو غيره فكيف يصح السعى فيه، وقد حوّل عن محله كما ذكر هؤلاء الثقات؟

ولعل الجواب عن ذلك: أن المسعى فى عهد رسول الله ۹ كان عريضاً، وبنيت تلك الدور بعد ذلك فى عرض المسعى القديم فهدمها المهدى، وأدخل بعضها فى المسجد الحرام، وترك بعضها للسعى فيه، ولم يحول تحويلًا كلياً، وإلا لأنكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين مع توفرهم إذ ذاك، فكان الإمامان أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، والإمام مالك بن أنس رضى عنه موجودين يومئذ، وقد أقروا ذلك، وسكتوا، وكذلك من صار بعد ذلك الوقت فى مرتبة الاجتهاد كالإمام الشافعى، وأحمد بن حنبل، وبقية المجتهدين، فكان إجماعاً منهم على صحة السعى من غير نكير نقل عنهم». (۴)

البيئة الطبيعية للصفا والمروة وما طرأ عليهما من تغييرات عبر التاريخ

تقديم:

من المسلّمات فى الشرع الإسلامى أن أماكن المشاعر المقدسة، ومنها الصفا والمروة تعبدية، توقيفية لا تقبل التبديل، وعلى الرغم من هذا طال التغيير موضع المسعى المشعر عبر التاريخ، وبالتحديد فى زمن الخليفة المهدى، ولم يثر هذا اعتراض أحد من الأئمة فى ذلك الوقت، على الرغم من وجود كبار أئمة الإسلام وفقهائه، موضحاً هذا فى النص التالى:

«وهاهنا إشكال ما رأيت من تعرض له وهو: أن السعى بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التى أوجبها الله تعالى علينا فى ذلك المحل المخصوص، ولا يجوز لنا العدول عنه، ولا تعتبر هذه العبادة إلا فى ذلك المكان المخصوص الذى سعى رسول الله ۹، وعلى

ما ذكره هؤلاء الثقات أدخل ذلك المسعى فى الحرم الشريف، وحول المسعى إلى دار ابن عباد كما تقدم.

وأما المكان الـذى يسعى فيه الآن فلا يتحقق أنه بعض من المسـعى الذى سـعى فيه رسول الله ۹ أو غيره فكيف يصح السعى فيه، وقد حول عن محله كما ذكر هؤلاء الثقات، ولعل الجواب عن ذلك: أن المسـعى فى عهد رسول الله ۹ كان عريضاً وبنيت تلك الدور بعد ذلك فى عرض المسـعى القديم فهدمها المهدى، وأدخل بعضـها فى المسجد الحرام وترك بعضها للسعى فيه ولم يحول تحويلًا كلياً، وإلا لأنكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين مع توفرهم» (۵)

إن ما توصل إليه العلامـة الفقيه قطب الـدين النهروالى صـحيح، وأن المسـعى، كان عريضاً فى عهـد الرسول ۹، ولـذلك لم يبد الأئمة اعتراضاً على ذلك التحويل، بل هو تحويل فى حـدود ما يسـمى بالمسـعى، ومن أجل تقعيد هذه العبارة وتأصـيلها لابد أن تسـتند إلى حقـائق علميـة موضوعيـة، ووضـع طـبيعى لتشـكل ضابطاً فقهيـاً فى هـذا الموضوع، كمـا هى عـادة الفقهـاء، وأن لا ـ يـترك الموضوع للعموميات، فلا بد لمثل هذه الأمور من ضابط، وهذا ما اعتنى به هذا البحث وتوصل إليه.

۱– الأزرقى، أخبار مكـة وما جاء فيها من الآثار، الطبعـة الثالثـة، تحقيق رشـدى الصالـح ملحس، مكـة المكرمـة: مطابع دار الثقافة، عام ۱۳۹۸/ ۱۹۷۸، ۷۹: ۲.؛ وانظر: الفاكهى، أبو عبد الله محمد إسـحاق، أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، عام ۱۴۰۷/ ۱۹۸۶ ۱۷۰: ۲.

۲– الأزرقى، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ۱۱۹: ۲.

۳– قطب الدين الحنفى، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام فى تاريخ مكة المشـرفة، الطبعة الأولى، تقديم السـيد محمد أمين كتبى، مكة المكرمة: المكتبة العلمية لصاحبها عبد الفتاح قدا وأولاده، ت. د.: ۹۸.

۴– الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: ۹۹

۵– المصدر نفسه

ص: ۴۰

الصفا جبل متصل بجبل أبى قبيس أقيمت عليه المنازل عبر العصورحتى حجبت جزءاً كبيراً منه، يتجلى هذا فى الصور الفوتوغرافية قبل مشروع توسعة الحرم الشريف عام ۱۳۷۵ ه–.

كان جبل الصفا يفصل شمال مكة عن جنوبها، وبالجانب الغربى منه يقع وادى إبراهيم، وفيه الطريق الذى يوصل شمال مكة بجنوبها، ولما بدأت توسعة الحرم المكى الشريف عام ۱۳۷۵ ه– وضم المسعى إلى الحرم الشريف، اضطرت الدولة السعودية إلى إيجاد طريق يصل شمال مكة بجنوبها تسلكه السيارات فبدأت بقطع الجبل من جهة أبى قبيس، والجبل من جهة الصفا، واستعملت فى ذلك الوقت الآلات المتاحة فقامت باستعمال منشار حديدى استغرق شهوراً طويلة حتى تمكنت من شق طريق يتسع للسيارات، ومر على جبل الصفا فى فترات مختلفة تكسير وتمهيد وتسوية بالأرض حتى بلغ إلى الحد الذى اختصر فيه الجبل من أعلاه ما نشاهده فى الوقت الحاضر فى مشعر الصفا من بقايا الجبل، أما قاعدة الجبل فهى أكبر بكثير من المشاهد على سطح الأرض.

أما جبل المروة فظاهر عرضه، وامتداده فى الوقت الحاضر بما يدل على قاعدة عريضة جداً؛ ذلك أن الهابط من شارع المدعى فى الوقت الحاضر يطلع صعوداً إلى جبل المروة، وامتداده شرقاً وغرباً وشمالًا، واضح للعيان بما لا يحتاج إلى دليل.

أصاب الجبلين عبر التاريخ الكثير من التغييرات: تكسيراً، وقطعاً، وإزالة من جميع جوانبهما، وبنيت عليهما البيوت، والقصور الشامخة، وتعرض عرض المسعى إلى التعديات وبناء المساكن مما أدى إلى ضيقه من جميع جوانبه، ومن ثم فرض على ولاة البلد الأمين فى ذلك الوقت إحاطة الصفا والمروة بالبناء من جوانبهما الثلاثة كما هو مشاهد فى صورهما القديمة؛ حتى لايطول التعدى المساحة الطولية لها، وأصبح واضحاً أن العقود فى واجهة الصفا، والعقد الكبير فى واجهة المروة لاتمثل بحال عرض المسعى، وإنما شيدت حماية للمشعر من التعدى، وليس معناها أنها استوعبت عرض المسعى، هذا ما جاء صريحاً فى قرار اللجنة المكونة من كل من:

«الشيخ عبد الملك بن إبراهيم، والشيخ عبد الله الجاسر، والشيخ عبد الله بن دهيش، والسيد علوى مالكى، والشيخ محمد الحركان، والشيخ يحى أمان، بحضور صالح قزاز، وعبد الله بن سعيد مندوبى الشيخ محمد بن لادن ... وقرروا ضمن الكلام على (مساحة الصفا والمروة واستبدال الدرج بمزلقان، ونهاية أرض المسعى فى قرار مشايخ): ولكون العقود الثلاثة القديمة لم تستوعب كامل الصخرات عرضاً، فقد قررت اللجنة أنه لامانع شرعاً من توسيع المصعد المذكور بقدر عرض الصفا» (۱)

وهذا ما سيقف القارئ عليه فى العنصر التالى المتعلق بالجانب التاريخى تفصيلًا.

توّجت واجهة الصفا قديماً بعقود ثلاثة، وواجهة المروة بعقد واحد كبير ممتد من الطرف الشرقى حتى نهاية الطرف الغربى، وقد حرص الخلفاء عبر التاريخ الإسلامى على المحافظة على هذه الحدود بإحاطتهما بالبناء؛ لما لاحظوه من كثرة التعدى بالبناء على جانبيهما الشرقى والغربى، والشمالى، والجنوبى، وليحافظوا على ما تبقى حتى لا يتعدى على فضائهما، وقد أحاطت بهما المنازل من جهاتهما، تحدث عن هذا المؤرخون بالتفصيل (۲).

مشعر الصفا قبل توسعة الحرم عام ۱۳۷۵ ه–

فى وصف تفصيلى للصفا قبل الهدميات التى تمت لتوسعة الحرم الشريف، وقد كان البدء به من جهتهما، يقول الزميل الدكتور عويد بن عياد المطرفى، وهو ممن درج فى رحاب هذه الأماكن الطاهرة منذ الصبا، ومرحلة الشباب، وتابع بدقة ما جرى فى المسعى وبخاصة الصفا والمروة وما طرأ عليهما من تغيرات:

«وهنا أقول: إن الصفا الوارد ذكره فى قول الله عز وجل: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ (۳)، جبل فى سفح جبل أبى قبيس معروف بذاته وصفاته يمتد ارتفاعاً فى سنده (۴)، ويمتد فى أصله وقاعدته الغربية جنوباً إلى منعرجه نحو أجياد الصغير (موضع قصر الضيافة اليوم)، ويمتد شمالًا إلى منعطفه نحو البطحاء (موضع الساحة الواقعة اليوم أمام باب العباس).

وليس الصفا مقصوراً على الحجر الأملس الذى كان موجوداً هنالك، ولا على ما هو مشاهد اليوم فى الموضع الذى يبدأ منه الساعون

سعيهم كما يتبادر إلى بعض الأذهان من مشاهدة العيان؛ إذ لو كان الأمر كذلك لاستدعى الحال أن نضيِق من عرض المسعى!!!. وهذا مما لايقول به عاقل».

وكانت أحداب ومرتفعات جبل الصفا الغربية مما يلى أجياد تمتد ظاهرة للعيان قبل أن تبدأ الهدميات لتوسعة المسعى والمسجد الحرام من ناحيته الجنوبية وغيرها فى شهر صفر عام ۱۳۷۵ ه‍- فى عهد الملك سعود، وكان على أحد أكتافه الممتدة جنوباً المتصلة بأجياد الصغير ثنية يصعد إليها من أجياد الصغير، ثم تنحدر منها طريق تمر وسط سقيفة مظلمة، ومنها تنزل الطريق من فوق هذا الجبل متعرجة بين البيوت المنتشرة على تلك المنطقة من جبل الصفا حتى تصل إلى الصفا الذى يبدأ الساعون منه سعيهم فى غربه.

كما كانت البيوت السكنية شابية على جبل الصفا من كل ناحية تفترش قمته وأكتافه، وظهره، وسفحه الشمالى والجنوبى ووسطه، وما يحيط بموضع ابتداء السعى منه فغطت معالمه ومنحدراته التى تعلوها فى الجبل أصلًا صخور جبل أبى قبيس التى استعصى كثير منها على التسهيل لبناء الناس عليها يوم ذاك.

۱- الشثرى، سعد بن ناصر، بحث فى مشعر المسعى، نقلًا من مجموع فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم: ۲۴

۲- انظر: الفاسى، شفاء الغرام ۲۹۹: ۱.

۳- المطرفى، عويد بن عياد، رفع الأعلام بأدلة توسيع عرض المسعى المشعر الحرام: ۴، مخطوط.

۴- السند هنا ما قابلك من الجبل وعلا سفحه. القاموس المحيط، مادة سند المطرفى، عويد،: ۵.

ص: ۴۱

ولما ابتدأت هدميات هذه التوسعة ظهر للعيان جبل الصفا على حقيقته الجغرافية الطبيعية التى خلقه الله عليها يوم خلق السموات والأرض، وأن امتداد طرفه الغربى الجنوبى المحاذى لمسيل البطحاء من جنوبها كان يصل قبل إزالته فى التوسعة إلى موضع الباب الشرقى للسلم الكهربائى الصاعد اليوم إلى الدور الثانى من المسجد الحرام من ناحية أجياد، وإلى موضع قصر الضيافة الملاصق للبيوت الملكية من الجهة الجنوبية الذى موضعه الحالى جزء مرتفع من جبل الصفا.

فلا تعجب والحال ما ذكرت لك من تسمية كل هذه المنطقة من هذا الجبل باسم (جبل الصفا)؛ لأن أهل مكة فى إبان أرومتهم العربية فى الجاهلية والإسلام هم الذين سموه بهذا الاسم، وتبعهم فى ذلك سكانها من بعدهم؛ إذ كان من عادة واضعى اللغة الذين يحتج بكلامهم فى بيان المراد بمعانى الألفاظ فى تفسير القرآن، وغريب الحديث النبوى، أن يسموا بعض أجزاء جبل ما، أو واد ما باسم خاص به يميز ما سموه منه عن اسم أصله لوصف قائم بذلك الجزء من الجبل أو الوادى، كما هو الحال فى تسميتهم أصل جبل أبى قبيس من ناحيته الغربية، والغربية الجنوبية، وما بينهما من امتداد بالصفا الذى جعله الله عز وجل من شعائره فى قوله: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ ...

وذكر أبو إسحاق الحربى فى وصفه لمكة يوم أن حج إليها فى كتابه (المناسك): جبل الصفا، وذكر أن امتداده أمام جبل أبى قبيس من طرف باب الصفا إلى منعرج الوادى ... وأن طرفا من جبل أبى قبيس يتعرج خلف جبل الصفا) (۱)

وتعرج جبل أبى قبيس الذى يحتضن جبل الصفا من خلفه، والصفا أسفل منه من أول منعرجه من ناحية البطحاء (الساحة الشرقية للمسعى اليوم) إلى منعطفه إلى أجياد الصغير (موضع قصر الضيافة اليوم) تغطيه الدور التى كانت تجثم على قاعدته، وعلوه، وأسفله إلى موضع السعى من الصفا المعروف اليوم كما سبق أن ذكرت آنفاً قد أزيل من موقعه بقصد توسعة المسجد الحرام على مرحلتين:

أولاهما: عام ۱۳۷۵ ه- حين قطعت أكتاف جبل الصفا، وفتح عليها شارع لمرور السيارات يصل بين أجياد والقشاشية التى لم تبق لها اليوم عين أيضاً.

وثانيتها فى عام ۱۴۰۱ ه- أزيل هذا الشارع وقطع الجبل من أصله، وفصل موضع الصفا عن الجبل، وفتح بينه وبين الجبل الأصل طريق متسع للمشاة بين ما بقى من أصل الجبل وبين جدر الصفا من خارجه الشرقى تسهيلًا للحركة والمشى حول المسجد الحرام، يسّر على الناس عناء صعود الجبال والهبوط منها فى ذلك الموضع.

وبهذا أزيل ظاهر جبل الصفا من الوجود، ودخل فى ذمة التاريخ فى هذا العام ۱۴۰۱ ه- بيد أن أصله وقاعدته موجودة تحت أرض الشارع المذكور، ممتدة إلى منعطفه الشمالى الشرقى المواجه لساحة المسعى الشرقية تثبت امتداداته قبل نسفه، وفصله عن أصله، وإزالة الظاهر على وجه الأرض منه.

كما أن قول أبى إسحاق فى تحديده لجبل الصفا (إلى منعرج الوادى) ينص صراحة على اتساع هذا الجبل شمالًا إلى منعطفه من واجهته الغربية إلى منعطفه نحو الشمال المقابل للبطحاء (الساحة الشرقية للمسعى).

ولاريب أن ما بين طرفه الغربى الجنوبى، وطرفه الشمالى عند منعرج الوادى إلى الشرق من ناحية الشمال تشمله التسمية المقصودة بالخطاب فى هذه الآية الكريمة ...

ويترتب على هذا أن المنطلق (أى الساعى) بنية السعى من أى موضع مما يشمله اسم الصفا لغة وعرفاً يكون داخلًا فى عموم المراد بالخطاب بهذه الآية الكريمة ساعياً بحق وحقيقة بين الصفا والمروة إذا ما انتهى به سعيه مما ذكرت إلى مسامت له من جبل المروة المقابل له من ناحية الشمال» (۲).

انتهى فضيلة الدكتور عويد المطرفى إلى القول:

«وإنما ذكرت هذا بياناً لمجمل ما أردت إيضاحه من أن الصفا متسع التكوين عريض الامتدادات من جنوبه الغربى، وشماله المحاذى

للامتداد الشرقی والغربی لجبل المروهٔ، ولیس مقصوراً علی الموضع الذی حجز الیوم بالبناء علیه لبدء الساعین منه سعیهم، کما یتبادر لعین المشتغل بأداء شعیرهٔ السعی فیه لیعلم أن ما یصل بین موضعین متقابلین من هذین الجبلین مشمول بخطاب ما شرعه الله تعالی من التطوف بهما للحاج والمعتمر». (۳)

مشعر المروهٔ قبل توسعهٔ الحرم عام ۱۳۷۵ ه-

وصف فضیلهٔ الدکتور عوید عیاد المطرفی جبل المروهٔ وصفاً دقیقاً لطبیعهٔ الجبل والإحداثات التی کانت موجودهٔ علیه، وأسماء السکان الذین أقاموا منازلهم علیه بما یثبت معرفته التامهٔ بالمنطقهٔ، وأهلها، نلخص منه الآتی:

«وأما المروهٔ المرادهٔ بالخطاب فی قول الله عز وجل: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَهَٔ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فهی کما قال ابن منظور فی کتابه لسان العرب: «جبل بمکهٔ شرفها الله تعالی»، وقال الفیروز آبادی فی القاموس المحیط، والزبیدی فی شرحه تاج العروس: «المروهٔ بهاء جبل بمکهٔ یذکر مع الصفا، وقد ذکرهما الله تعالی فی کتابه: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَهَٔ مِنْ شَعائِرِ اللهِ ثم قال الزبیدی أیضاً: قال الأصمعی: سمی (أی الجبل) لکون حجارته بیضاً براقهٔ ...» (۴)

۱- المطرفی، عوید، رفع الأعلام: ۹، الحربی، أبا إسحاق کتاب المناسک: ۴۷۹.

۲- المطرفی، عوید، رفع الأعلام بأدلهٔ جواز توسیع عرض المسعی المشعر الحرام: ۸، ۹، ۱۰، ۱۱؛ وانظر: الحربی، أبا إسحق، کتاب المناسک: ۴۷۹.

۳- المطرفی، عوید، رفع الأعلام بأدلهٔ جواز توسیع عرض المسعی المشعر الحرام: ۱۲.

۴- المطرفی، عوید، رفع الأعلام: ۱۳.

ص: ۴۲

ثم انتهى بعد ذكر النصوص على أن المروة جبل إلى القول:

«وكل هذا يدل صراحة على أن المروة جبل قائم بذاته وصفاته، ممتد الجوانب، واسع الوجهة المقابلة من الشمال لجبل الصفا، وامتداده إلى منعطفه نحو الوادى المواجه من الشمال الشرقى لبطن المسعى ...»

يؤيد ما أقول من اتساع جبل المروة فى تكوينه الطبيعى الكبير الممتد شرقاً وغرباً عما هو عليه الآن إذ قد أزيلت معالمه الشرقية، وقطعت متونه وأكتافه، وامتداداته العضوية التى خلق عليها فى التوسعة للحجاج والمعتمرين والقاطنين عام ۱۳۷۵ ه-.

وقد كان معروفاً قبل نسف ارتفاعات هذا الجبل وإزالتها أن جميع المبانى والبيوت التى كانت قائمة فى هذه المنطقة كانت مبنية على الجبل، وأن ارتفاعاته التى كانت تحت تلك البيوت قد أزالتها معاول النسف والتفجير تسهيلًا لسير الناس من حجاج وعمار ومواطنين عليها دون إعاقة ولا عنت.

وكانت تلك البيوت السكنية التى لا يزال بعض سكانها أحياء يرزقون والحمد لله أعرف كثيراً منهم تفترش بيوتهم واجهة جبل المروة الممتدة شرقاً إلى الطريق النازل اليوم من المدّعى إلى ساحة المسعى، كما تفترش سفحه ومنحدراته وارتفاعاته الواقعة على واجهته الجنوبية المطلة على المسعى، وعلى الوادى الفاصل بين جبل الصفا وجبل المروة الذى انتطحته البيوت السكنية هو الآخر قبل التوسعة السعودية فأذهبت معالمه، وقطعت ظاهر ما كان بين الصفا وجبل المروة من اتصال متسع ينجو به الساعون من مخاطر ومحاذير الازدحام؛ إذ كانت الجهة الشرقية للمسعى فضاء غير محدود ببناء قبل أن يزحف عليها الناس، ويضيقوا سعته بما أقاموا عليها من دور ومنازل قبل أن تفكك التوسعة السعودية ضائقته، وتطلق أسره من المعتدين عليه.

ومن ثم عاد مهندسو التوسعة السعودية فضيقوا على المسعى ما انفسح به عرضه، ولو تركوه دون أن يقيموا عليه جدراً من الشرق لما ضاق المسعى اليوم بأحد من الساعين، ولما احتاج الأمر منا إلى بيان، ولا إلى رجاء توسيع عرضه.

وأعود فأقول: إن الواجهة الجنوبية الشرقية لجبل المروة المواجهة لجبل الصفا من الشمال كانت مغطاة بالبيوت السكنية منقادة متراصة بعضها بجانب بعض على طول متن الجبل من ملاصقة جدر المروة الشرقى إلى الطريق الصاعد من شرقى الطرف الشمالى للمسعى إلى المدعى.

وقد كانت بيوت السادة المراغنة التى كان يستأجرها صالح بن محمد سابق على جبل المروة ملاصقة جدرانها جدر المروة الشرقى، وعرض بيتهم الملاصق لجدر المروة من الشرق ممتداً نحو الشرق حوالى خمسة عشر متراً.

ويتصل به ملاصقة من الشرق حوش المحناطة الذى كان بائعو الحبوب بالمدعى ينخلون فيه حبوبهم قبل بيعها، وامتداده من دار المراغنة على جبل المروة أيضاً إلى جهة الشرق باتجاه طريق المدعى حوالى خمسة وعشرين متراً.

فهذا بعض عرض واجهة مرتفعات جبل المروة من ناحية الشرق من ملاصقة المروة التى يسعى منها الناس على خط مستقيم نحو الشرق إلى شارع المدعى على متن جبل المروة كان مرتفعاً جبلياً عن مستوى المسعى ارتفاعاً ظاهراً يعرفه العام والخاص قبل تكسيره وتسويته بالأرض، ويلاصق بيت المراغنة الآنف الذكر من الجنوب على امتداد طول المسعى على واجهة المسعى الشرقية على يسار النازل من المروة منحدراً إلى المسعى متجهاً إلى الصفا وقف المراغنة يفتح بابه على داخل المسعى.»

ثم تعرض فى بحثه القيم إلى ذكر أسماء سكان الجهة الشرقية للمسعى وترتيب منازلهم بدقة كاملة، ثم انتهى إلى النتيجة التالية فيما يتعلق بجبل المروة قائلًا:

«والحاصل الذى لا مين ولا مراء فيه، أن المرتفعات الجبلية الصخرية لواجهة جبل المروة الشرقية الجنوبية تمتد شرق موقع المروة الحالى الذى يقف عليه الساعون اليوم زيادة عما هو عليه الحال الآن بما لا يقل عن أربعين متراً من ناحية الشرق حتى تلاقى الطريق النازل من المدعى إلى ساحة المروة الشرقية ...» (۱)

تقرير هيئة المساحة الجيولوجية

أيد العلم الحديث الحقائق السابقة فقد قامت هيئة المساحة الجيولوجية، وكشفت عنها فى تقريرها العلمى المقدم لمعهد خادم الحرمين لأبحاث الحج عندما قامت باختبار العينات فى جبلى الصفا والمروة فى منطقة السعى الحالية، والمنطقة المستهدفة للتوسعة، واستخدمت آلياتها الثقيلة من حفارات نزلت إلى أعماق الصخور فى الأرض لاختبار عينات من جبلى الصفا والمروة فى مكانهما الحالى، والامتداد الشرقى المطلوب التوسعة فيه فتوصلت إلى النتيجة التالية فى (تقرير دراسة الامتداد الشرقى لجبلى الصفا والمروة) مقدم لمعهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج جاء فيه مايلى:

التوصيات: الدراسة الجيولوجية:

قدمت هيئة المساحة الجيولوجية السعودية خريطة جيولوجية لمنطقة المسعى تم إعدادها قبل عشرين عاماً موضحاً عليها الامتدادات السطحية لجبلى الصفا والمروة قبل مشروع التوسعة السعودية الأولى مرفق نسخة الخريطة حيث أثبتت:

۱- المطرفى، عويد، رفع الأعلام بأدلة جواز توسيع عرض المسعى المشعر الحرام: ۱۸، ۲۱.

ص: ۴۳

أن جبل الصفا لسان من جبل أبی قبيس، وأن لديه امتداداً سطحياً بالناحية الشرقية مساماتاً للمشعر بما يقارب ۳۰ متراً.

۱- أن جبل المروة يمتد امتداداً سطحياً مساماتاً للمشعر الحالی بما يقارب ۳۱ متراً» (۱)

وقد أرفقت فی تقريرها الخرائط المتنوعة تحت العناوين التالية:

«صورة توضح الامتداد الطبيعی لجبل الصفا باتجاه دار الأرقم ولا تزال العقود فی مكانها بعد إزالة المبانی.

صورة أخری لنفس المنطقة بعد بدء عمليات إزالة المبانی فی السبعينات الهجرية.

مواقع الحفر لجسات الصخور فی المنطقة الممتدة شرق جبل المروة.

خارطة تبين الامتداد الشرقی لمحلة المروة قبل هدميات ۱۳۷۳ ه-

شهادة أهل الخبرة من المكيين

صدق المثل القائل: (أهل مكة أدری بشعابها)، يؤيد هذا ماهو معروف شرعاً وعرفاً أن:

«النقل بالتوارث من طرق الإثبات، كما بينه العلماء، وحرره ابن القيم فی إعلام الموقعين فقال:

(وأما نقل الأعيان وتعيين الأماكن، فكنقلهم الصاع والمد، وتعيين موضع المنبر، وموقفه للصلاة، والقبر، والحجرة، ومسجد قباء، وتعيين الروضة، والبقيع، والمصلی ونحو ذلك.

ونقل هذا جار مجری نقل مواضع المناسك كالصفا والمروة، ومنی، ومواضع الجمرات، ومزدلفة، ومواضع الإحرام كذی الحليفة والجحفة، وغيرهما، فهذا النقل وهذا العمل حجة يجب اتباعها، وسنة متلقاة بالقبول علی الرأس والعين» (۲)

اتخذ التأكد والتثبت لامتداد المسعی من الجهة الشرقية مسارين فی قناتين رسميتين:

أحدهما: هيئة تطوير مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة برئاسة معالی الدكتور ناصر بن محمد السلوم.

ثانيهما: معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج برئاسة عميده السابق معالی الدكتور أسامة بن فضل البار. فيما يلی تفصيل ذلك:

أولًا: بناءاً علی الأمر السامی الكريم رقم ۸۰۲۰/ م ب وتاريخ ۱۵/ ۶/ ۱۴۲۶ ه-، المتضمن تكليف هيئة تطوير مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة بدراسة توسعة المسعی.

قامت الأمانة العامة للهيئة بعقد حلقات نقاش علمية بمقر معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج بمكة المكرمة مع مجموعة من المشايخ وكبار السنّ المعمرين ومن سكان منطقة المسعی والباحثين والمهندسين لاستقراء وجهة النظر الشرعية والتاريخية حيال موضوع الدراسة وهم:

۱- معالی الشيخ عبدالملك بن عبدالله بن دهيش.

الرئيس العام لتعليم البنات سابقاً ورئيس المحاكم الشرعية الكبری بمكة سابقاً.

۲- فضيلة الأستاذ الدكتور عويد بن عياد المطرفی.

الأستاذ بالدراسات العليا الشرعية بجامعة أم القری والباحث بتاريخ المناسك.

۳- سعادة الدكتور عبدالله بن صالح شاووش.

الباحث فی تاريخ مكة المكرمة وأحد مؤلفی الأطلس التاريخی لمكة والمشاعر.

۴- سعادة الدكتور معراج بن نواب مرزا.

الباحث فی تاريخ مكة المكرمة وأحد مؤلفی الأطلس التاريخی لمكة والمشاعر.

۵- سعادة الدكتور درويش بن صديق جستنية.

۱– تقرير دراسة الامتداد الشرقى لجبلى الصفا والمروة، تقديم الدكتور أسامة بن فضل البار،: ۸.

۲– العبد المنعم، عبد العزيز بن محمد، المسعى تحقيقات تاريخية وشرعية، بحث مقدم لمجلس هيئة كبار العلماء: ۵.

ص: ۴۴

الباحث فی مرکز الاقتصاد الإسلامی ومن سکان المسعی.

کما کلفت الأمانهٔ العامهٔ الباحثین سعادهٔ الدکتور عبدالله بن صالح شاووش وسعادهٔ الدکتور معراج بن نواب مرزا بمعهد خادم الحرمین الشریفین لأبحاث الحج بإعداد دراسهٔ تاریخیهٔ وجغرافیهٔ عن منطقهٔ المسعی إضافهٔ إلی مسح کافهٔ الصور والخرائط التاریخیهٔ.

واستضافت مجموعهٔ من کبار السن المعمرین من ذوی الخبرهٔ بمنطقهٔ المسعی وسکانها ضمت کلًا من:

۱- معالی الدکتور محمد بن عمر الزبیر.

مدیر جامعهٔ الملک عبدالعزیز الأسبق وأحد سکان المسعی.

۲- معالی المهندس محمد سعید بن حسن فارسی.

المشرف علی مکتب تخطیط المدن فی فترهٔ الثمانینات الهجریهٔ وأمین محافظهٔ جدهٔ الأسبق.

۳- الشیخ عبدالرحمن عمر خیاط.

من کبار السن والمعمرین.

۴- الشیخ محمد نور بن محمد سعید عید.

مدیر عام المیزانیهٔ الأسبق بوزارهٔ المالیهٔ وأحد سکان منطقهٔ الصفا.

۵- المهندس محمد بن حسین جستنیهٔ.

أحد سکان منطقهٔ المسعی.

۶- الأستاذ أحمد بن محمد سعید عید.

المراقب المالی بمنطقهٔ مکهٔ المکرمهٔ سابقاً وأحد سکان منطقهٔ الصفا.

حیث تم عقد عدد من الاجتماعات حضر بعضاً منها، إضافهٔ إلی أصحاب الفضیلهٔ والسعادهٔ ومعالی أمین عام الهیئهٔ الدکتور ناصر بن محمد السلوم وعدد من مسؤولی الهیئهٔ وخبرائها.

کما قامت اللجنهٔ بجولات میدانیهٔ علی منطقهٔ المسعی یوم الأحد ۱۲/ ۷/ ۱۴۲۷ ه-، ویوم الاثنین ۸/ ۱۰/ ۱۴۲۷ ه-، بالاجتماع مع المشایخ والمعمرین من کبار السن من سکان منطقهٔ المسعی فی مقر المعهد بالعزیزیهٔ.

واستمعت اللجنهٔ إلی عرض مقارن بین منطقهٔ المسعی قبل مشروع التوسعهٔ السعودیهٔ الأولی عام ۱۳۷۵ ه-، والوضع الحالی من المهندس عبدالله بن محمد فوده، من معهد خادم الحرمین الشریفین لأبحاث الحج، وشاهدت فلماً تاریخیاً عن مشروع التوسعهٔ والهدمیات التی تمت عام ۱۳۷۵ ه-، قدمه المهندس بکر بن محمد بن لادن الرئیس التنفیذی لمجموعهٔ بن لادن السعودیهٔ.

وفیما یلی عرض لأهم نقاط الدراسهٔ والمقابلات الشخصیهٔ مع کبار السن من سکان المسعی:

أن المصادر التاریخیهٔ لم تشر مباشرهً إلی عرض الصفا والمروهٔ وإن أشارت إلی تزاحم المساکن حولها منذ بدایهٔ القرن الثانی الهجری.

أن الصفا والمروهٔ لم یکن علیهما درج أو بناء وکان الساعی یسند فیهما حتی عهد الوالی عبدالصمد بن عبدالله بن العباس (۱۴۶- ۱۴۹ ه-) حیث أمر ببناء درج علیهما.

لم یشر کل من الأزرقی والفاکهی وهما من أوائل مؤرخی مکهٔ إلی العقود المقامهٔ علی الصفا والمروهٔ. وأول من ذکر ذلک هو الرحالهٔ بن جبیر عندما حج عام ۵۷۸ ه-، عند وصف أقواس الصفا وعددها ثلاثهٔ أقواس وقوس واحد علی المروهٔ وحدد عرض عقود الصفا بحوالی أحد عشر متراً وعقد المروهٔ بحوالی تسعهٔ أمتار.

أشار المحب الطبری فی کتابه شرح التنبیه وهو من مؤرخی القرن السابع إلی کثرهٔ الأبنیهٔ حول الصفا والمروهٔ حتی سترتها بحیث لا یظهر منها غیر یسیر فی الصفا.

لم يتغير الوضع الطبيعى لمنطقتى الصـفا والمروة خلال القرون الماضـية لصـعوبة إزالـة وتكسـير الجبال، وعلى سبيل المثال فقـد ظلّت المسالك والأزقة فى منطقة الصـفا منذ عهد الأزرقى (وهو فى القرن الثالث) إلى ما قبل التوسعة السعودية الأولى (١٣٧٥ ه-) لم تتغير، حيث يوجد شعيب

ص: ۴۵

من الناحيـة الغربيـة وهو الزقاق الصاعـد إلى جبل أبى قبيس، ومن الناحيـة الشـرقية يوجـد زقاق غير نافـذ يؤدى إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم وما بعده.

عند تنفيذ التوسـعة السـعودية ببناء المسعى عام ۱۳۷۶ ه-، تم تحديـد خط رابط على استقامة واحدة بين المشـعرين بما أضاف حوالى تسـعة أمتار من جهـة الشـرق ناحيـة الصـفا وعنـدما رأى بعض العلماء اجتهاداً عـدم جواز السـعى فى المساحة المضافة تم وضع حاجز خشبى بعد تنفيذ المشـروع عام ۱۳۷۶ ه- و ۱۳۷۷ ه-، إلاـ أنه قـد تمت إزالـة الحاجز وإجازة السـعى فى تلك المنطقـة بناءاً على قرار اللجنة المشكلة من عدد من العلماء.

الاجتماع مع المشايخ والمعمرين من كبار السن من سكان منطقة المسعى فى مقر المعهد بالعزيزية.

ثانياً: وثقت شـهادة الشـهود بالمحكمة العامة بمكة المكرمة لدى القاضـى الشـيخ عبد الله بن ناصـر الصبيحى، وصدر بها صك شرعى برقم ۱۵۸/ ۴۴/ ۱۱ تاريخ ۲۵/ ۱۲/ ۱۴۲۷ ه- جاء فيه:

«فى يوم الأحد الموافق ۲۴/ ۱۲/ ۱۴۲۷ ه-، حسب تقويم أم القرى حضـر عميد معهد خادم الحرمين الشـريفين لأبحاث الحج الدكتور أسامـة بن فضل البار وأحضـر معه فوزان بن سـلطان بن راجـح العبـدلى الشـريف حامل البطاقة رقم ۱۰۰۱۶۴۰۶۶ وهو من مواليـد عام ۱۳۴۹ ه-، فقرر قائلًا: إننى أذكر أن جبل المروة يمتد شـمالًا متصلًا بجبل قعيقعان وأما من الجهة الشرقية فلا أتذكر، وأما موضوع الصفا فإننى أتوقف، كما حضـر الدكتور عويد بن عياد بن عايد الكحيلى المطرفى حامل دفتر العائلة رقم ۱۰۰۱۷۸۷۷۶۹ وهو من مواليد عام ۱۳۵۳ ه-، وقرر قائلًا: إن جبل المروة كان يمتد شـرقاً من موضـعه الحالى بما لا يقل عن ثمانية وثلاثين متراً، وأمّا الصفا فإنّه يمتدّ شرقاً بـأكثر من ذلـك بكثير، كمـا حضـر (فضـيلة كبير سدنـة البيت الشـيخ) عبـد العزيز بن عبـدالله بن عبـدالقادر شـيبى حامـل البطاقـة رقم ۱۰۰۷۱۳۹۹۴۰ وهو من مواليد عام ۱۳۴۹ ه-، فقرر قائلًا: إن جبل المروة يمتد شـرقاً وغرباً وشـمالًا ولا أتذكر تحديد ذلك بالمتر، وأما الصفا فإنه يمتد شرقاً بمسافة طويلة حتى يقرب من القشاشية بما لا يزيد عن خمسين متراً.

كما حضر حسنى بن صالح بن محمد سابق حامل البطاقة رقم ۱۰۰۴۰۸۰۵۶۸ وهو من مواليد عام ۱۳۵۷ ه-، وقرر قائلًا: إن جبل المروة يمتد غرباً ويمتد شرقاً بما لا يقل عن اثنين وثلاثين متراً. وكنا نشاهد البيوت على الجبل ولما أزيلت البيوت ظهر الجبل وتم تكسيره فى المشـروع، وأما جبل الصـفا فإنه يمتـد من جهـة الشـرق بأكثر من خمسـة وثلاثين أو أربعين متراً. كما حضـر (مدير جامعة الملك عبد العزيز السابق معالى الأسـتاذ الـدكتور) محمـد بن عمر بن عبدالله زبير حامل البطاقة رقم ۱۰۵۰۶۴۰۵۵۴ وهو من مواليـد عام ۱۳۵۱ ه-، وقرر قائلًا:

إن المروة لا علم لى بها، وأما الصفا فالذى كنت أشاهده أن الذى يسعى كان ينزل من الصفا ويدخل فى برحة عن يمينه، وهذه البرحة يعتبرونها من شارع القشاشية ثم يعود إلى امتداد المسعى بما يدل على أن المسعى فى تلك الأماكن أوسع.

كما حضـر (الـدكتور) درويش بن صـديق بن درويش جسـتنية حامل البطاقة رقم ۱۰۱۹۵۵۹۵۸۰ وهو من مواليـد عام ۱۳۵۷ ه-، فقرر قائلًا: إن بيتنا سابقاً كان فى الجهة الشـرقية من نهاية السـعى فى المروة وكان يقع على الصخور المرتفعة التى هى جزء من جبل المروة، وقـد أزيل جزء كبير من هـذا الجبل بما فى ذلك المنطقة التى كان عليها بيتنا وذلك أثناء التوسـعة التى تمت فى عام ۱۳۷۵ ه-، وهذا يعنى امتداد جبل المروة شرقاً فى حدود من خمسة وثلاثين إلى أربعين متراً، شرق المسعى الحالى، وأما الصفا فإنها كانت منطقة جبلية امتداداً متصلًا بجبل أبى قبيس ويعتبر جزءاً منه وكنت أصعد من منطقة السعى فى الصفا إلى منطقة أجياد خلف الجبل.

كما حضـر محمد بن حسـين بن محمد سـعيد جسـتنية حامل البطاقة رقم ۱۰۰۱۷۷۰۲۰۳ وهو من مواليـد عام ۱۳۶۱ ه-، وقرر قائلًا: إن جبل المروة كان يمتـد من الجهـة الشـرقية والظاهر أنه يمتـد إلى المـدعى، وأما جبل الصـفا فإنه يمتد شـرقاً أيضاً أكثر من امتداد جبل المروة، فأمرت بتنظيم صك بذلك، وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. حرر فى ۲۴/ ۱۲/ ۱۴۲۷ ه-.

القاضى عبد الله بن ناصر الصبيحى

القاضى بالمحكمة العامة بمكة المكرمة

تحليل المعلومات السابقة

فى ضوء السابق من الحقائق اللغوية، والطبيعية، والتاريخية، ونصوص الفقهاء، وشهادة الثقات من كبار السن من السادة أهل مكة المكرمة يتبين الآتى:

أن عرض جبلى الصفا والمروة فى أصلهما الطبيعى أكبر مما هو ظاهر على وجه الأرض، وأن امتدادهما فى القاعدة أكبر بكثير مما هو على وجه الأرض خصوصاً وقد طالت قممهما وجوانبهما الظاهرة الكثير من التكسير والتشذيب والتسوية مع سطح الأرض.

۱- أن عرض المسعى لم يحدد نصاً، ولم يتعرض له الفقهاء، ومن حدده من المؤرخين، أو الفقهاء نزر يسير جداً يعدون على أصابع اليد، وقد عبر عن هذه الحقيقة العلامة شمس الدين الرملى، إذ يقول: «ولم أر فى كلامهم ضبط عرض المسعى، وسكوتهم عنه لعدم الاحتياج إليه، فإن الواجب استيعاب المسافة بين الصفا والمروة كل مرة» (۱)، فلزم أن يكون مناط الحكم فى تحديد العرض هو مدلول كلمة (جبل الصفا) و (جبل المروة) بكامل المدلول اللغوى لهذين الاسمين.

۱- نهاية المحتاج ۲۹۱: ۴

ص: ۴۶

أن مسافة عرض المسعى التى ذكرها بعض المؤرخين أو الفقهاء تقرير للواقع فى ذلك الوقت بصورة تقريبية ليس إلا، لم يرد فيها نص من السنة، أو الأثر، يقول العلامة ابن حجر الهيتمى المكى: «ولك أن تقول: الظاهر أن التقدير لعرضه المسعى بخمسة وثلاثين، أو نحوها على التقريب، إذ لا نص فيه يحفظ عن السنة فلا يضر الالتواء اليسير بحيث لم يخرج عن سمت العقد المشرف على المروة لم يضر».

۲- ذكر الفقهاء والمؤرخون المكيون أن المسعى فى الوقت الحاضر منذ العهد بتوسعة الخليفة المهدى العباسى عام ستين ومائة ليست فى الموقع الذى سعى فيه رسول الله ۹، وصحابته من بعده، فمن ثم أبرز العلامة قطب الدين بن علاء الدين النهروالى المكى الحنفى هذا الإشكال وأجاب عليه، كما تقدم ذكر هذا سابقاً. علماً بأن المقصود بكلمة (الموقع الذى سعى فيه رسول الله ۹) هو مكان الهرولة بين الميلين الأخضرين.

الخاتمة

من خلال ما تقدم عرضه من العناصر توصل البحث إلى النتائج التالية:

أولًا: خصت الصفا والمروة بالذكر فى النصوص الشرعية: الكتاب والسنة، ضمن شعائر الحج والعمرة لتكون علامات طبيعية ثابتة لهذه الشعيرة على مدى العصور، وكما هى عادة الشرع الشريف أن يحد المشاعر بعلامات طبيعية.

ثانياً: الصفا: يطلق هذا الاسم على جبل يبدأ من نهاية جبل أبى قبيس وهو أكبر مما هو عليه الآن، حيث يمتد شرقاً فى العرض إلى سور قصور الصفا الملكية القائمة على نهاية جبل الصفا فى امتداد جبل أبى قبيس.

ثالثاً: الصخر البارز الموجود الآن فى مشعر الصفا ليس هو كل الجبل وإنما هو جزء منه، وقد أبرزت جريدة عكاظ فى الصفحة الحادية عشرة، فى عددها الصادر يوم الثلاثاء ۱۷ ربيع الأول عام ۱۴۲۹ ه-، الموافق ۲۵ مارس ۲۰۰۸ م، السنة الخمسون العدد ۱۵۱۸۶ جبل الصفا على طبيعته فى صورتين فوتوغرافيتين فأصبح واضحاً للعيان (بعد تواريه عقوداً طويلة).

رابعاً: تمتد حدود جبل الصفا العرضية قدر امتداده الطبيعى، ذلك أن جبل الصفا يمتد عرضاً من جهتيه الغربية والشرقية، بأكثر مما هو موجود حالياً، وهذا معروف بداهة.

خامساً: قد عبر العلامة الفقيه، المؤرخ تقى الدين الفاسى المكى عن هذا بتعبير دقيق جداً فقال:» وهو الصفا موضع مرتفع.. من جبل «فليس الصفا الحالى، ولا السابق قبل التوسعة السعودية الذى يقف عليه الناس هو كل جبل الصفا.

سادساً: المروة: رأس هو منتهى جبل قعيقعان، أما الجزء البارز الواضح من هذا الجبل فى المروة فى الوقت الحاضر فهو جزء بسيط من أصل الجبل.

سابعاً: يمتد جبل الصفا عرضاً من طرفيه، وكذلك المروة بأكثر من الأجزاء الموجودة فى الوقت الحاضر.

حيث لم يرد فى السنة المطهرة تحديد للصفا والمروة فإن مناط الحكم الشرعى وتعلقه هو ما يطلق عليه جبل الصفا وجبل المروة بقدر امتدادهما. و أن يكون أداء السعى بينهما وفى حدودهما، وهو ما قرره بعض العلماء المعاصرين فى مجلس العلامة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، ونقل هذا العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدى، كما تقدم.

ثامناً: أن ما بين ضفتى هذين الجبلين الشرقية والغربية واد عريض جداً، كانت تدخل منه السيول إلى الحرم، ومن أجل أن ينحرف السيل عن دخول الحرم وضع الخليفة عمر بن الخطاب ما يسمى تاريخاً ب- (الردم) فى المدعى المعروفة اليوم، ولا زال هذا الارتفاع علامة طبيعية بارزة حتى وقتنا الحاضر.

تاسعاً: إن اتساع الوادى عرضاً كان هو المبرر لتحويل المسعى عما كان على عهد رسول الله ۹، والتابعين حتى عهد المهدى الخليفة العباسى، ولا يعد هذا تغييراً لموضع شعيرة السعى.

عاشراً: المهم الأساس فى أداء شعيرة السعى هو نقطة البداية لما يطلق عليه جبل الصفا، ونقطة النهاية فيها هو ما يطلق عليه جبل المروة.

حادى عشر: السعى بين جبلى الصفا والمروة، واستيفاء المسافة بينهما هو مناط الحكم الشرعى ومتعلقه، وهو أحد واجبات السعى الذى أكـد الفقهاء على المحافظـة عليه فى أداء شـعيرة السـعى، واهتموا به الاهتمام الكامل، حتى أنهم ذرعوا الطول بصورة دقيقة، واجتهدوا كثيراً فى تحديد بدايتها ونهايتها قديماً وحديثاً.

ثانى عشـر: ليس من الافتئات على الشريعة دعوى إجماع الفقهاء أن الواجب فى السعى هو استيفاء المسافة بين الصفا والمروة طولًا، أما العرض فـإن السـعى صـحيح ومتحقق فى جميعه مـا دامت المسافـة التى يقطعها الساعى متحققـة بين الجبلين الصـفا والمروة. ولهـذا لم يتعرض الفقهاء للكلام عن العرض، ذلك أن العرض رهين بمحدودية الجبلين عرضاً فى كليهما.

ثالث عشر:

ص: ۴۷

۱. قد عرف عن الشرع الإسلامی الشریف من طریق الاستقراء أن الحدود للمشاعر هی الحدود الطبیعیة من ودیان، وجبال، وأکمات. هذه القاعدة تنطبق تماماً علی جبلی الصفا والمروة بحدودهما الطبیعیة من الجهتین العرضیتین الشرقیة والغربیة،

۲. استیفاء المسافة فی السعی بین الصفا والمروة فی حدودهما الطبیعیة تحقیق للمطلوب الشرعی فی المکان المحدد شرعاً فی کل من الشعیرتین.

لیس هذا بدعاً فی هذه الشعیرة، بل یمتد هذا المعنی فی کافة المشاعر، مثلًا: الوقوف بعرفة، والمزدلفة، ومنی المقصود من ذلک هو الکینونة فی محدود مسماها، والسعی بین الصفا والمروة لیس بدعاً من تلک المشاعر مادام الأداء متحققاً فی حدود العرض الطبیعی لمسمی الجبلین.

آخراً ولیس أخیراً، فإنه من الواجب أن أنوه هنا بالإضافة المهمة المفیدة التی دونها العلامة الفقیه المحقق الشیخ جعفر السبحانی حفظه الله بعد اطلاعه علی البحث المبدئی لتوسعة المسعی؛ لتأیید ماسبق ذکره من حقائق وتأکیدها قائلًا:

«ومع ذلک کله فهناک قرائن تدل علی أن المسعی کان أوسع حتی من الجانب الآخر الذی یقابل المسجد، وهذه القرائن عبارة:

۱. أن الصفا جزء من جبل أبی قبیس کما أن المروة جزء من جبل قعیقعان فمن البعید أن یکون طول الجبل وامتداده حوالی ۲۰ متراً من غیر فرق بین الصفا والمروة، وهذا یدل علی أن الامتداد الحالی لیس هو کما فی السابق لحصول الحفریات علی جانبیه.

۲. توجد حالیاً بقایا من جبل المروة خارج المسعی فی الجانب الشرقی، وهذا یدل علی امتداده سابقاً، ولکنه حفر لإیجاد الطریق.

۳. یظهر من الحاکم فی ترجمة الأرقم بن أبی الأرقم المخزومی قوله: إن دار الأرقم وهو الدار التی کان النبی ۹ یدعو الناس فیها إلی الإسلام، وأسلم فیها قوم کثیر أن داره کانت علی الصفا، وتصدق بها الأرقم علی ولده، فقرئت نسخة صدقة الأرقم بداره: (بسم الله الرحمن الرحیم: هذا ما قضی الأرقم فی ربعه ما حاز الصفا أنها صدقة بمکانها من الحرم لاتباع، ولا تورث). إلی أن قال الحاکم: فلم تزل هذه الدار صدقة قائمة فیها ولده یسکنون ویؤجرون، ویأخذون علیها حتی کان زمن أبی جعفر: قال محمد بن عمر: فأخبرنی أبی عن یحیی بن عمران بن عثمان بن الأرقم أنه یسعی بین الصفا والمروة فی حجة حجها ونحن علی ظهر الدار فیمر تحتنا، لو شئت أن آخذ قلنسوته لأخذتها، وإنه لینظر إلینا من حین یهبط الوادی حتی یصعد إلی الصفا) (۱)

وهذه الوثیقة التاریخیة تدفعنا إلی القول: أن المسعی من جانبه الشرقی کان أوسع مما علیه الآن.

۴. أن دار الأرقم صارت فی السنوات السالفة مکاناً لما یسمی (دار الحدیث المکی)، ولو بذلت جهود لسؤال المسنین والمعمرین الذین شاهدوا دار الحدیث قبل التوسعة، وحددوا مقدار الفاصلة بینه وبین المسعی الحالی لکان ذلک دلیلًا للموضوع. (۲)

هذا وقد نشر المشرفون علی التوسعة مخططاً أوضحوا فیه أن دار الأرقم بن أبی الأرقم (دار الحدیث) کما ورد فی المصادر التاریخیة کانت تقع فی المسعی، وهی الآن تبعد عن المسعی الحالی ۱۸/ ۲۱ متراً، وبما أن مشروع التوسعة الجدید یمتد إلی شرق المسعی ۲۰ متراً فیکون الامتداد ضمن المسعی الواقعی.

وهذا الذی یعانی منه العلماء والمحققون الیوم هو أحد النتائج السلبیة التی سببها هدم الآثار التاریخیة المتعلقة بعصر النبی ۹، وصدر الإسلام، والکثیر من المعالم الإسلامیة فی مکة والمدینة المنورة.

ولو کانت التوسعة مقرونة بحفظ معالم الإسلام وآثاره لما ضاع علینا معرفة حدود المشاعر الإسلامیة».

ثم انتهی حفظه الله إلی القول:

«ما ذکرنا من الدراسة یؤید امتداد جبل الصفا حوالی ۲۰ متراً إلی الشرق» ثم انتقل إلی القول:

«۸. أکدت الدراسات التاریخیة والجغرافیة والجیولوجیة التی قامت بها اللجان المشرفة علی توسعة المسعی أن هناک امتداداً سطحیاً لجبل المروة بما لا یقل یقیناً عن ۲۵ متراً من الناحیة الشرقیة، وهذا ما ثبت بعد دراسة عینات الصخور التی أخذت من الناحیة الشرقیة

لجبل المروة والتى ظهرت مشابهتها لصخور المروة» (٣).

النتيجة:

يعلم مما تقدم من عرض العناصر السابقة: أن جبلى الصفا والمروة يمتدان عرضاً من جانبيهما بأكثر مما هما عليه فى الوقت الحاضر حتى بعد توسعة المسعى، هذا مؤكد لدى كل من عاصر مكة المكرمة قبل أن تبدأ التوسعة السعودية الأولى للحرم الشريف عام ١٣٧٥ ه-، ودرج على ترابها الطاهر طفلًا وشاباً، فالأمر بالنسبة لكل من عاصر الفترة الزمنية قبل التخطيط الحديث والتغيير للمنطقة التى يقع عليها الجبلان، أن الساعى بينهما فى التوسعة الجديدة لم يخرج عن حدودهما العرضية الطبيعية.

فى ضوء ما سبق من النصوص الفقهية، والحقائق التاريخية، والنتائج العلمية الجيولوجية، وشهادة أهل الخبرة الثقات من كبار رجال مكة المكرمة الذين عاشوا فى تلك المنطقة قبل إزالتها، فإنى أرى والله أعلم بالصواب أنه لا مانع من توسعة المسعى من الناحية الشرقية للمسجد الحرام،

١- المستدرك على الصحيحين ٥٠٢: ٣- ٥٠٣.

٢- قد أخذت حكومة المملكة العربية السعودية على عاتقها المبادرة فى هذا، ووثقت شهادة الشهود فى المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة، وصدر بهذا صك شرعى برقم ١٥٨/ ٤٤/ ١١، وتاريخ ٢٥/ ١٢/ ١٤٢٧ ه-، كما سبق تقرير هذا فى هذا البحث تحت عنوان شهادة أهل الخبرة فقد استنفدت حكومة المملكة العربية السعودية كل الطاقات والإمكانات للتحقق والتثبت من سلامة الإجراءات التى اتخذتها لتوسعة عرض المسعى بما لايدع شكاً لأحد فى سلامة إجراءاتها تقديراً لمسؤوليتها الدينية.

٣- الحج فى الشريعة الإسلامية الغراء، الطبعة الأولى مكتبة التوحيد، عام ١٤٢٨ ٥٩٢: ٥؛ ميقات الحج، العدد ١٠: ٢٧- ١٢.

ص: ۴۸

ليس هـذا من قبيل الترخيص، بل هـذا هو الأصل، وكما يعبر عنه الفقهاء (عزيمـة) لا (رخصـة) فإن الحكم لم يتغير، ذلك أن التوسـعة التى يجرى تنفيـذها على أرض المسـعى، وبمساحـة تقدر بنفس المساحة القديمة، وقدرها كما عرفت عشـرون متراً لا تعد خروجاً عن حدود المسعى المقررة شرعاً لهذه الشعيرة بل لازالت داخل حدود جبلى الصفا والمروة.

بدء السعى فى التوسعة الجديدة للمسعى

تم بحمد الله وعونه افتتاح توسـعة المسـعى فى التوسـعة الجديدة من الناحية الشرقية فى موسم حج عام ۱۴۲۸ ه-، وقـد وفقنى الله لأداء شعيرة الحج فشاهدت التوسعة الجديدة للمسعى وقد هيئت للساعين من الحجاج والمعتمرين، وقد جزئت التوسعة إلى مسارين للذاهب من الصـفا إلى المروة، ومسار آخر من المروة إلى الصـفا، وقـد فصل بين المسارين بصف من الحواجز البلاستيكية ذات اللون الأحمر، وظل المسعى القديم كحاله ممتلئاً بالساعين.

لوحـظ فى نهايـة توسـعة المسـعى بالمروة عمل ارتفاع مصـطنع من الاسـمنت مسامت لارتفاع جبل المروة فى المسـعى القـديم لإعطاء الساعى انطباعاً بجبل المروة فى تلك الناحية.

شيد المسعى فى امتدادها الجديد بطراز من الديكور مختلف عنه فى القديم، ولكنه ليس بعيداً عنه.

جاءت التوسـعة مطابقة فى بدايتها ونهايتها للمسـعى القديم على الرغم من أن فى الشـريعة متسعاً؛ ذلك أنه يمكن أن يمتد جدار بداية الصـفا، ونهاية جدار المروة إلى الوراء بأكثر من الحدود القديمة مادام أن الساعى وصل بداية كل من الصـفا والمروة فتأخره وقوفاً فى المروة يوسع للساعين ليتموا سعيهم فى راحة واطمئنان من دون مضايقة لهم ما دام أنه استوفى المسافة الكاملة للسعى بين الجبلين.

وقد تابعت الصـحافة المحلية العمل الجارى فى المسـعى الجديد والقديم فنشرت جريدة عكاظ فى الصفحة الحادية عشرة، الثلاثاء ۱۷ ربيع الأول عام ۱۴۲۹ ه- الموافق ۲۵ مارس عام ۲۰۰۸ م مقالًا بعنوان: (المسعى الجديد نقطة تحول فى تاريخ الحرم المكى) جاء فيه:

«بعـد أيام قليلـة يـدخل الحرم المكى الشـريف مرحلـة تاريخيـة جديـدة بإنجاز واحـد من المشاريعه التوسـعية المتمثلة بإنشاء المسـعى الجديـد الـذى سـيغير كثيراً من ملامـح الحرم وخصوصاً ما يتعلق منها بجبل الصـفا الشـهير الـذى أبرزت عمليات البناء ملامحه بعد أن ظلت متوارية لعقود طويلة.

الشـركة المنفـذة للمشـروع وضـعت اللمسات الأخيرة عليه بعـد تركيب ممرات للعربات وفتـح الأبواب من جهـة المروة تسـهيلًا لخروج المعتمرين، وهى آخر مراحل المشروع الذى بلغت تكلفته نحو ثلاثة مليارات ريال.

ويسـتخدم الزوار والمعتمرون الآن المسـعى الجديد لأداء شـعائرهـم ريثما يتم الانتهاء من إنجاز المسـعى القديم، ومن ثم يتم اسـتخدام الاثنين معاً.

كما شارفت عمليات إزالة المسعى القديم على الانتهاء حيث لم يتبقّ سوى جزء يسير فى منتصفه.

يذكر أنه يواصل أكثر من ألفى عامل ومهندس العمل بالليل والنهار من خلال فترتين، وتشير مصادر عكاظ أنه سيتم الانتهاء من الدور الأول قبل بداية شهر رمضان القادم لتمكين المعتمرين من السعى فيه إضافة إلى المسعى الجديد المستخدم حالياً.

وتتيح التوسعة لنحو ۴ ملايين معتمر وزائر لبيت الله الحرام فرصة السـعى على مدار اليوم، ويتوقع أن ترتفع الطاقة الاستيعابية حال إنجاز كافـة مراحل المشـروع لتصـبح قادرة على استيعاب ۱۱۸ ألف شـخص لكل ساعـة للسـعى، و ۱۱۵ ألفـاً و ۶۰۰ مصل وهو الأمر الـذى أسـهمت فيه زيادة الرقعـة المساحيـة للمسـعى، فمساحة المسعى قبل التوسـعة كانت تقدر ۲۹ ألفـاً و ۴۰۰ متراً مربعاً، أما بعـد التوسـعة فسترتفع لتبلغ ۷۸ ألف متراً مربعاً شاملة كل الطوابق الأرضى والأول والثانى».

والله أعلم بالصواب، وهو الموفق، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ص: ۴۹

ص: ۵۰

ص: ۵۱

قراءة فی سورة الحج

محسن الأسدی

تعدّ هذه السورة المباركة من السور القرآنية العجيبة لأنها وسورة الجمعة تحملان اسماً يدل علی فريضة عبادية، وإذا تمعنا أكثر لوجدنا أن سورة الجمعة تتحدث عن صلاة الجمعة وهی فريضة واحدة من فرائض الصلاة لا عن الصلاة ككل، وعندئذ نعرف أن سورة الحج التی نحن بصددها تفردت بأنها السورة الوحيدة التی سميت بهذا الاسم «الحج»، تخليداً لدعوة الخليل إبراهيم ۷ وندائه للناس لحج بيت الله الحرام، وذلک بعد انتهائه وابنه إسماعيل ۷ من بناء البيت العتيق وتطهيره كما يأتينا فی الآيات التی ذكرناها ضمن المقالة هذه:

فتواضعت الجبال حتی بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع نداؤه من هم فی الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء «لبيک اللهم لبيک ..» كما تذكره كتب المفسرين. ولأن الحج فريضة عبادية ذات مكانة كبيرة ومنزلة رفيعة بمناسكه العديدة وبمبادئه الجليلة فی الشريعة الإسلامية وفی الساحة الإيمانية.. فنالت اهتماماً كبيراً من قبل المسلمين وحظيت باهتمام واسع من قبل العلماء والفقهاء والمؤرخين والمفكرين والأدباء والشعراء والكتاب، وتوفرت علی الكثير من المدونات والمصادر والمؤلفات المتحدثة عنها فقهاً وأحكاماً ومفاهيم وتاريخاً وأهدافاً ومنافع.. قد لا نجد مثيلًا لها فی الفرائض العبادية الأخری ...

وهذا ما جعل لسورة الحج قيمة مضاعفة، فإضافة إلی أن لسورة الحج قيمة بذاتها حالها حال أی سورة قرآنية، تبرز قيمة أخری لها من خلال موضوعها لأن الموضوع الأساسی للسورة كما هو واضح هو الحديث عن هذا الواجب العظيم من واجبات الإسلام. وأهمية الحج أنه من أسمی العبادات التی يترک فيها المسلم كثيراً من عاداته التی تعوّد عليها فی حياته، ليبنی نفسه من جديد ويعودها علی الالتزام والجدية والصبر واقتحام الصعاب وتحمل المتاعب، وأن يجعل نفسه تتذوق معانی العبودية المطلقة الخالصة لله وحده تبارک وتعالی ..

وهنا نحاول أن نعيش أجواء بعض آياتها، وهل هناک من ارتباط بين ما تتضمّنه هذه السورة القرآنية من مواضيع متعددة وفريضة الحج وأجوائها وغاياتها، من خلال تعرّضنا لبعض آيات الحج فی السور: البقرة وآل عمران والمائدة، وفيما تتوفر عليه هذه السورة المباركة من آيات تشكل موضوع الحج فيها والتی كانت كما يبدو السبب فی تسميتها بالحج، وقد كانت مصدر استفادة العديد من أحكام الحج وأحكام مناسكه وآدابه وأهدافه وما يتعلق به. فشأن هذه السورة شأن سائر السور المدنية التی تُعنی بأمور التشريع ..

ومن الأمور اللافتة الأخری لهذه السورة أنها مع مدنيتها إلا أنها يغلب عليها جوّ السور المكية وموضوعات السور المكية كالتوحيد والإيمان، والإِنذار والتخويف من الساعة وإثبات البعث والجزاء وإنكار الشرک ومشاهد القيامة وأهوالها وآيات الكون المبثوثة فی صفحات الكون كلها بارزة فی السورة، حتی ليكاد يُخيل للقارئ أنها من السور المكية..

ص: ۵۲

فیما هناک الموضوعات التی یغلب علیها الطابع المدنی التشریعی من الإذن بالقتال والأمر بالجهاد فی سبیل الله، فالمسلمون لم یؤذن لهم بالقتال والقصاص إلا بعد الهجرة، لردّ أذی المشرکین والدفاع عن حریة العبادة.. کما أنها تتضمن أحکام الحج والهدی وحمایة الشعائر وما وراءها من إثارة مشاعر التقوی فی القلوب لبناء الحاج بناءاً أخلاقیاً صلباً.. ثم تذکر الوعد بنصر الله لمن یقع علیه البغی وهو یرد العدوان، وغیر ذلک من المواضیع التی هی من خصائص السور المدنیة، حتی لقد عدها بعض العلماء من السور المشترکة بین المدنی والمکی.

نزلت هذه السورة بعد سورة النور، ترتیبها فی القرآن ۲۲ بعد سورة الأنبیاء، عدد آیاتها ۷۸، عدد کلماتها ۱۲۷۹، وعدد حروفها ۵۱۹۶، وهی تشکل مع سورة الأنبیاء الجزء ۱۷، ویضمّها حزب واحد وهو الحزب ۳۴.

فضلها

عن أبی بن کعب أنه قال: قال النبی ۹: من قرأ سورة الحج أعطی من الأجر کحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فیما مضی وفیما بقی.

قال أبو عبد الله ۷: من قرأها فی کل ثلاثة أیام لم یخرج من سنة حتی یخرج إلی بیت الله الحرام وإن مات فی سفره دخل الجنة.

وهی تعدّ أیضاً من أعاجیب السور القرآنیة کما یقول الغزنوی: «وهی من أعاجیب السور نزلت لیلًا ونهاراً، سفراً وحضراً، مکیاً ومدنیاً، سلمیاً وحربیاً، ناسخاً ومنسوخاً، محکماً ومتشابهاً، مختلف العدد» (۱).

إن آیات هذه السورة توزعت بین ما هو مکی وما هو مدنی، فمنهم من یقول: کلها مکیة إلا بعض الآیات، فیما یقول غیرهم: إنها مدنیة إلاـ بعض الآیات، وهذا یعنی أن الاختلاف وقع بینهم فی أصل السورة بین کونها مکیة إلا بعضها وکونها مدنیة إلا بعضها فهناک إذن آیات منها نزلت فی مکة فیما نزلت أخری فی المدینة، وفیها آیات نزلت لیلًا وآیات أخری نزلت نهاراً، وآیات نزلت فی السفر وآیات نزلت فی الحضر ...

ابن عباس فی قول ومجاهد یذهبان إلی أن السورة مکیة سوی ثلاث آیات:

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِی رَبِّهِمْ فَالَّذِینَ کَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِیابٌ مِنْ نارٍ یُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِیمُ یُصْهَرُ بِهِ ما فِی بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِیدٍ.

وعن ابن عباس أنهنّ أربع آیات أی بإضافة الآیة التالیة:

کُلَّما أَرادُوا أَنْ یَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِیدُوا فِیها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِیقِ.

وفی مجمع البیان عن ابن عباس وعطاء أنها مکیة إلا آیات. ولم یذکر هذه الآیات.

وفی قول آخر منسوب إلی ابن عباس ومعه الضحاک وقتادة إلی أنها مدنیة إلا أربع آیات:

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِیٍّ .... عَذابُ یَوْمٍ عَقِیمٍ، فهنّ مکیات.

أخرج ابن المنذر، عن قتادة قال: نزل بالمدینة من القرآن الحجّ، غیر أربع آیات مکیات:

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِیٍّ .... عَذابُ یَوْمٍ عَقِیمٍ (۲)

وقال الحسن کما عن مجمع البیان: هی مدنیة غیر آیات نزلت فی السفر، وقال بعضهم: غیر ست آیات، وقال بعضهم: غیر أربع.

وعد النقّاش ما نزل بالمدینة عشر آیات. وقال الجمهور: السورة مختلطة منها مکی ومنها مدنی.

یقول القرطبی فی جامعه: وهذا هو الأصح لأن الآیات تقتضی ذلک، لأن یا أَیُّهَا النَّاسُ مکی و یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مدنی (۳).

آیتا السجود

ذکرت بعض الروایات أن سورة الحج تتضمن آیتین یسجد عند قراءتهما، وقد تمیزت بهما هذه السورة بل وفضلت بوجودهما علی

غيرها من السور القرآنية، وهاتان الآيتان هما:

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (۴).

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۵).

۱- انظر: أحكام القرآن للقرطبى، السورة.

۲- الحج: ۵۲- ۵۵.

۳- انظر كلًا من أحكام القرآن للقرطبى ومجمع البيان للطبرسى: سورة الحج.

۴- الحج: ۱۸.

۵- الحج: ۷۷.

ص: ۵۳

ومن هذه الروایات:

وجاء فی فضلها ما رواه الترمذی وأبو داود والدارقطنی عن عقبة بن عامر قال: قلت: یا رسول الله فضلت سورة الحج بأن فیها سجدتین؟ قال: نعم ومن لم یسجدهما فلا یقرأهما.

أخرج أحمد وأبو داود والترمذی والحاکم والبیهقی فی سننه وابن مردویه، عن عقبة بن عامر قال: قلت: یا رسول الله، أفضلت سورة الحج علی سائر القرآن بسجدتین؟

قال: «نعم. فمن لم یسجدهما فلا یقرأهما».

وأخرج أبو داود فی المراسیل والبیهقی، عن خالد بن معدان: أن رسول الله ۹ قال: فضلت سورة الحج علی القرآن بسجدتین.

وأخرج سعید بن منصور وابن أبی شیبة والإسماعیلی وابن مردویه والبیهقی، عن عمر أنه: کان یسجد سجدتین فی الحج. قال: إن هذه السورة فضلت علی سائر السور بسجدتین.

وأخرج ابن أبی شیبة، عن علی وأبی الدرداء: أنهما سجدا فی الحج سجدتین.

وأخرج ابن أبی شیبة من طریق أبی العالیة، عن ابن عباس قال: فی سورة الحج سجدتان.

فیما أخرج ابن شیبة من طریق أبی العریان المجاشعی، عن ابن عباس أنه قال: فی الحج سجدة واحدة. وهو قول سفیان الثوری ..

إذن وقع الاختلاف بینهم بسبب الروایات المختلفة فی کونها تتضمن سجدتین أو سجدة واحدة. ولکن یبدو أن فیها سجدتین وهو ما علیه المصحف الشریف. لکنهما سجدتان غیر واجبتی السجود، کما علیه الإمامیة الذین حصروا السجود الواجب فقط بآیات سور العزائم الأربع:

السجدة: ۱۵. فصلت: ۳۷. النجم: ۶۲. العلق: ۱۹.

فالسجدة فی سورة العلق کانت أول آیة سجدة فی القرآن وهی خاصة بالرسول ۹ وحده، أما آیة السجدة فی آخر سورة الحج فهی آخر آیة سجدة نزلت وهی موجهة للمؤمنین جمیعاً.

إن أول ما تتکلم عنه هذه السورة هو التقوی ثم عن یوم القیامة، فنراها ترکّز من البدایة علی التقوی عبر خطاب عام لکل الناس، کما أن خطاب الحج للناس کافة، ثم تنص علی خطورة الساعة و زلزلتها التی تنتظرهم جمیعاً وأنه ذلک الیوم العظیم «البعث والنشور والقیامة» قبل أن تنتقل إلی موضوع آخر، وهو الجهاد فی سبیل الله، لتنتقل بعده إلی العبودیة والخضوع لله تبارک وتعالی، وتبین بعد ذلک أن الله تعالی یسجد له من فی السماوات والأرض وأن السجود لیس مختصاً بالإنسان وحده وإنما یعم جمیع مخلوقاته سبحانه وتعالی.

فما هی تلک العلاقة التی تربط بین هذه الأمور ببعضها؟ وما علاقتها بالحج ومناسکه؟

هناک سرّ فی هذه المناسک العظیمة التی شرعها لنا الله تعالی فی مخزون علمه سبحانه وتعالی، ولکن یمکننا أن نستجلی من خلال قراءتنا لأنشطة هذه الفریضة وما ورد فیها من آیات وروایات وأقوال وآراء وکتابات بعض ذلک السرّ.

فالواقع أن الحج هو العبادة التی تبنی الأمة؛ لما فیه من عبر لا یعلمها إلا من حج واستشعر کل معانی الحج الحقیقیة.

إن المسلم عندما یؤدی هذه العبادة العظیمة، أو یعیش مع الحجاج أو یتخیل نفسه معهم إن لم یکن فعلًا معهم یؤدی ما یؤدونه من مناسک الحج، سیفهم ما یریده الله تعالی ربنا من السورة، شریطة أن نفهم أن الحج عبادة لها دور أساسی فی بناء الفرد الذاتی والعقیدی و بناء الأمة وتثبیت وتعمیق عقیدتها. وکأن السورة تقول لقارئیها: حجوا حجة صحیحة، کما هی الحجة التی حجها رسول الله ۹ فهو القدوة والأسوة وهو القائل: «خذوا عنی مناسککم».

لتبنوا أنفسکم البناء الصحیح وتدربوها علی حمل المعانی الرائعة والمفاهیم الأساسیة، لأن هذه الأمور جمیعاً تعد عاملًا أساسیاً لبناء

الأفراد والمجتمعات وبالتالی الأمة كلها ...

فما أنزل الله تعالى الآيات إلا فی مكانها المناسب بتدبير وحكمة لا يعلمها إلا هو، ولكن إذا ما تمعنا فی الآيات وتدبرناها واجتهدنا فی التقصی والتحری لمعانيها فلعلنا نصيب حكمها ونفهم أهدافها ومراد الله تعالى منها ... وعندئذ قد نوفق بلطف من الله سبحانه لمعرفة تلك العلاقة..

فقوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ.

إذن الخطاب فی بداية السورة جاء إلى الناس:

ص: ۵۴

یا أَیُّهَا النَّاسُ ...

وقد ذكرت لفظة (الناس) فی السورة خمس عشرة مرة، وهذه تعد أعلی نسبة فی سور القرآن الكریم بعد سورة الناس التی ذكرت فیها لفظة الناس خمس مرات، والمقصود بأعلی نسبة نسبة تكرار كلمة (الناس) إلی عدد كلمات السورة.. إذن هذا خطاب للناس بأن یتقوا الله تعالی لا إلی فئة معینة دون غیرها..

فیما جاءت الآیة ۹۷ من سورة آل عمران وهی توجب فریضة الحج:

... وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ.

وقوله تعالی فی سورة الحج الآیة ۲۷:

وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ ....

إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدیً لِلْعالَمِینَ ... (۱).

إن خطاب الإیجاب للحج فی آیة الحج المذكورة من سورة آل عمران وَلِلَّهِ عَلَی النَّاسِ .. یدل علی أن فریضة الحج هی العبادة الوحیدة التی عبر عنها بهذه الصیغة، وهذه الصیغة لا نجدها فی إیجاب فریضتی الصلاة والصیام وأیضاً الزكاة، فقد توجه الخطاب فیهما إلی المؤمنین فی سورتی النساء والبقرة:

إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ كِتاباً مَوْقُوتاً (۲).

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَیْكُمُ الصِّیامُ كَما كُتِبَ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۳).

لَیْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ... وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَی الزَّكاةَ .. (۴).

وَ وَیْلٌ لِلْمُشْرِكِینَ الَّذِینَ لا یُؤْتُونَ الزَّكاةَ ... (۵).

ولم یأت الخطاب: لله علی الناس إقامة الصلاة أو إیتاء الزكاة أو لله علی الناس أن یصوموا..

كما أن تقدیم اللفظ (لله) علی المبتدأ المؤخر یدل علی أن السیاق یفید معنی الحصر، أی إن هذه العبادة هی لله وحده، وهذه خصوصیة انطوت علیها هذه العبادة من بین سائر العبادات، ولهذا نجد بعض الروایات تبین أن الحج فرار إلی الله وحده، فعن أبی جعفر ۷ فی قوله تعالی:

فَفِرُّوا إِلَی اللهِ إِنِّی لَكُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ.

قال: «حجوا إلی الله» (۶).

فالحاج أسلم نفسه وحیاته بكل حالاتها ولحظاتها لله تعالی وحده لا شریك له، یأمره فیأتمر وینهاه فینتهی، وجوده كله یصرفه فی سبیل الله وقربة إلیه وبالتالی فهو یصوغ حیاته كلها وفق هدی الله ومنهجه ویبعدها عن كل ما یصرفه عن ذلك، وحتی یصل الحاج إلی هذه النتیجة علیه أن یلتزم بما یقوله الإمام الصادق ۷: «إذا أردت الحج فجرد قلبك لله عز وجل من قبل عزمك من كل شاغل وحجاب حاجب، وفوض أمورك إلی خالقك، وتوكل علیه فی جمیع ما یظهر من حركاتك وسكناتك وسلّم لقضائه وحكمه وقدره ودع الدنیا والراحة» (۷)

أو كما فی تفسیر للآیة الكریمة ۲۶: وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِیمَ مَكانَ الْبَیْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِی شَیْئاً وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْقائِمِینَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ أی طهر قلبك لدخول السكینة فیه ولتحل فیه الأنوار الإلهیة ..

وقد قال القرطبی: والقائمون هم المصلون، ذكر تعالی من أركان الصلاة وأعظمها وهو القیام والركوع والسجود (۸).

فبمثل هذه الحالة والتجرید النفسی والتطهیر القلبی والتوجه الخالص والتسلیم الكامل والتفویض المطلق یدخل الحاج الذی یرید أن یستفید من فریضة الحج ویبنی بها كیانه بجدّ وصدق، یدخل أیام الحج وموسمه وبمثل ذلك یخرج لیستقبل حیاته من جدید وبتاریخ

جدید یستأنف نشاطه.. لهذا ورد عن رسول الله ۹: «للحاج والمعتمر إحدی ثلاث خصال: إما أن یقال له: قد غفر لک ما مضی، وإما أن یقال له: قد غفر لک ما مضی فاستأنف العمل، وإما أن یقال له: قد حفظت فی أهلک وولدک وهی أخسهنّ».

أو کما جاء فی الحدیث الذی یذکره الطبرانی عن ابن عمر عن رسول الله ۹: «... وأما وقوفک بعرفة ... فلو کان علیک مثل رمل عالج أی متراکم أو مثل أیام الدنیا، أو مثل قطر السماء ذنوباً غسلها الله عنک. وأما رمیک الجمار فإنه مدخور لک. وأما حلقک رأسک، فإن لک بکل شعرة تسقط حسنة. فإذا طفت بالبیت خرجت من ذنوبک کیوم ولدتک أمک» ..

۱- آل عمران: ۹۶.

۲- النساء: ۱۰۲.

۳- البقرة: ۱۸۳.

۴- البقرة: ۱۷۷.

۵- حم السجدة: ۷.

۶- سفینة البحار: ۲۱۰.

۷- المصدر نفسه: ۲۱۱.

۸- انظر: تفسیر وبیان مفردات القرآن د. الحمصی. أحکام القرآن: الآیة.

ص: ۵۵

أو وكما تحمله لنا رواية أخرى عن الإمام الصادق ۷: «من أمّ هذا البيت حاجاً أو معتمراً مبرءاً من الكبر رجع من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه، والكبر هو أن يجهل الحق ويطعن على أهله، ومن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه» (۱).

فالإنسان المؤمن يخرج من الحج ومن مناسكه إنساناً آخر بحياة أخرى، وكأنه يبدأ عمراً جديداً وشوطاً جديداً يحمل كل معانى الخير والعطاء لنفسه ولأسرته ولمجتمعه وأمته ولدنياه وآخرته ..

ونلاحظ أن الخطاب فى آية الحج جاء للناس دون سائر الأركان العبادية الأخرى، وهذا يدل على أن فريضة الحج كما يظهر هى استحقاق ربانى، حيث إن التعبير عام كما فى الآية يقول تعالى:

لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ... (۲).

وهكذا

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ.

.. وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ.

وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.

وحتى البيت نفسه مركز فريضة الحج هو مثابة للناس كما فى الآية:

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً ..

وحتى الأذان بالحج كان للناس كما فى الآية: وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ ... (۳).

فهو للناس وللعالمين وعلى الناس وعن العالمين.. كلها ألفاظ تميزت بها هذه الفريضة مكاناً وزماناً وتاريخاً ودعوة، وتدل على عمومية الخطاب وهى فضيلة اختصّت بها دون سواها..

يقول الشيخ السيورى فى كنزه: (على الناس) عام أبدل منه (من استطاع) بدل بعض من الكل للذكور والإناث والخناثى، خص بمنفصل إما عقلًا وهو اشتراط الفهم للخطاب لاستحالة تكليف غير الفاهم، أو نقلًا وهو قوله ۹:

«رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبى حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق، والنائم حتى ينتبه».

ولما كان العبد محجوراً عليه لا قدرة له على التصرف فى نفسه لم يكن مستطيعاً فخرج أيضاً من العموم (۴).

إنه استحقاق، وهو دَين على الناس، كل الناس، كيف لا والمسجد الحرام هو أول بيت وضع لعبادةالله؟! كيف لا ومكة هى أم القرى، أى أمّ الأمم، فمنها كان انطلاق الإنسان فى خلافته الأرض؟! من هنا كان الخطاب للناس كل الناس.

فكما خوطب الإنسان أن يعبد ربه وحده، وفق ما بيّنه الله تعالى فى رسالاته، خوطب أيضاً بأن يقصد البيت الحرام الذى فيه عبد الآباء الأوائل ربهم، والذى منه انطلقوا ليكونوا خلفاء الأرض، ومن أراد أن يستجيب إلى هذا الأذان فعليه أن يقبل شروط أداء هذا الاستحقاق. من هنا ندرك بعض أسرار ختم الآية (۹۷) من آل عمران بقوله تعالى: ... وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.

ثم إذا عدنا إلى قراءة الآية (۹۶) من سورة آل عمران، والتى تسبق الآية (۹۷) تقول:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ نلاحظ:

وُضِعَ لِلنَّاسِ ... هُدىً لِلْعالَمِينَ.

والآية (۹۷) ... وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ... غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.

ونرجع إلى الآية (۲۷) من سورة الحج وهى آخر آية ذكر فيها لفظ الحج فى القرآن الكريم نجد أن أذان إبراهيم ۷ بالحج كان أذاناً عالمياً عاماً للجميع بعد أن هيأته له السماء ووطأته كما فى الآية الكريمة ۲۶ من السورة نفسها: وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ.

و أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً.

فهو بیت لله وحده دون سواه.

۱- انظر: من لا یحضره الفقیه ۱۳۶: ۲.

۲- آل عمران: ۹۷.

۳- الحج: ۲۷.

۴- انظر: کنز العرفان فی فقه القرآن، کتاب الحج؛ وانظر السراج المنیر ۳۱۷: ۲، من حدیث عائشة وعمر وأخرجه فی الوسائل عن الخصال الباب ۴ من أبواب العبادات ح ۱۱ ...

ص: ۵۶

ثم یأتی التطهیر وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْقائِمِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ فلهؤلاء أنشئ البیت، الذین یعبدون الله تعالی ولا یشرکون فی عبادتهم له أحداً فی طوافهم بالکعبة وفی قیامهم ورکوعهم وسجودهم.. کل هذا کان تمهیداً للأذان المبارک.

وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ.

یأتون یسعون علی أقدامهم من طرق بعیدة وعلی کل إبل وقد جهدها السیر والبعد والجوع فهزلت وضمرت حتی ورد أنه لا یدخل بعیر ولا غیره الحرم إلا وقد هزل ..

وفی ثواب السعی إلی البیت المبارک روی سعید بن جبیر عن ابن عباس أنه قال لبنیه: یا بنی حجوا من مکة مشاة حتی ترجعوا إلیها مشاة فإنی سمعت رسول الله ۹ یقول: للحاج الراکب بکل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللحاج الماشی بکل خطوة یخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم. قیل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف حسنة (۱).

وبدلالة وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ ... و ... مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ..

أی ناد فی الناس وأعلمهم بوجوب الحج وإن تعددت أماکنهم وتباعدت بلدانهم وتناءت أمصارهم ..

ولا بأس بنقل هذا الخبر: قال محمد بن یاسین: قال لی شیخ فی الطواف: من أین أنت؟ فقلت: من خراسان. قال: کم بینکم وبین البیت؟ قلت: مسیرة شهرین أو ثلاثة. قال: فأنتم جیران البیت. قلت: أنت من أین جئت؟ قال: من مسیرة خمس سنوات وخرجت وأنا شاب فاکتهلت. قلت: والله هذه الطاعة الجمیلة والمحبة الصادقة. فقال:

زر من هویت وان شطت بک الدار

وحال من دونه حجب وأستار

لا یمنعنک بُعد عن زیارته

إن المحب لمن یهواه زوار (۲)

وسواء أکان المخاطب نبی الله إبراهیم أم رسول الله محمد صلوات الله علیهما، فقد وقع الاختلاف بین المفسرین فی من الذی یؤذن بالحج؟

فجمهور المفسرین ذهب إلی أن المخاطب هو نبی الله إبراهیم ۷ وقالوا: أسمع الله تعالی صوت إبراهیم کل من سبق علمه بأنه یحج إلی یوم القیامة ... عن ابن عباس قال: لما أمر الله سبحانه إبراهیم أن ینادی فی الناس بالحج صعد أبا قبیس «وهو جبل» ووضع إصبعه فی أذنیه وقال: یا أیها الناس أجیبوا ربکم فأجابوه بالتلبیة فی أصلاب الرجال وأول من أجابه أهل الیمن.

فیما ذهب غیرهم إلی أن المخاطب بالآیة هو نبینا محمد ۹ أی وأذن یا محمد فی الناس بالحج فأذن ۹ فی حجة الوداع، أی أعلمهم بوجوب الحج (۳)..

إن الحج إلی البیت العتیق کما یبدو لمن تتبع تاریخ الحج کان فی شریعة الأنبیاء والرسل وأنه کان عبادة مألوفة منذ عصور قدیمة، فقد صحت آثار علی ذلک، منها:

ما ورد من أن هوداً وصالحاً ۸ قد مروا بوادی عُسفان یلبون ویحجون البیت العتیق... ومن أن یونس وموسی ۸ قد حجا أیضاً (۴).

وأیضاً یمکن الاستفادة من الآیة (۲۷) من سورة القصص التالیة علی أن الحج کان معروفاً لهم حیث اعتادوا أن یعدوا السنین بالحج، وفی ذلک یقول نبی الله شعیب لموسی الکلیم ۸:

قالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ عَلی أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ ....

المقصود هنا ثمانیة أعوام، وإنما سمی العام حجة علی اعتبار أن فی کل عام حجة إلی بیت الله الحرام، وهذا قد یصح أن یکون دلیلًا علی أنهم کانوا یحجون. ویقال فی لغة الشهور: «ذو الحجة»؛ لوقوع حج البیت فی هذا الشهر ..

وإذا ما نظرنا إلى الحديث النبوى الشريف:

«الحج عرفة».

وإلى ما عليه الناس من الاجتماع فى صعيد واحد أرض عرفة وزمن واحد يوم عرفة، ندرك عندئذ الطابع الجماعى وهو ما يحمله الخطاب الجماعى لهذه الشعيرة والعبادة المباركة الوارد فى آياتها، بل إن مناسك الحج وأعماله ترمز بأجمعها إلى السنن الفاعلة فى الاجتماع الإنسانى أو

۱- انظر: مجمع البيان للشيخ الطبرسى: الآية.

۲- هامش تفسير وبيان مفردات القرآن: الآية الكريمة. إعداد د. الحمصى.

۳- هذا تلخيص ما ورد فى مجمع البيان للطبرسى: الآية.

۴- انظر: مسند أحمد و صحيح مسلم.

ص: ۵۷

البشری. وإذا کان بالإمکان أن یصلی الإنسان أو یصوم وحده فقد لا یکون بالإمکان أن یحج الإنسان وحده أو لا یجد نفسه إلا وهو محاط بالکثیر ممن یحجون معه، ولم یحدثنا تاریخ هذه العبادة إلا عن الحج وهم مجتمعون، فالحج عبادة جماعیة یرجی أن تحقق آثاراً تتعلق بالمجموع الإنسانی، وهو نفیر عام فی جمیع المواقف والمناسک فی الإحرام وفی التلبیة والطواف والسعی والوقوف فی المشاعر المقدسة عرفات والمزدلفة ومنی والجمرات، یعلن فیه الجمیع استجابته لمتطلبات رسالة الإسلام وأحکامه وقیمه، ورفضه لغیر الإسلام من الکفر والانحراف ومناهج الشیاطین من الإنس والجن.

یقول السید الشهید محمد باقر الصدر+: ألا تری أنّ أهم ما یبدو للإنسان فی هذا المنسک الرائع منسک رمی الجمار هو هذا الرمی المجموعی لرموز الشیطان واحداً بعد الآخر تعبیراً حسیاً عن لزوم نفی الشر من الأرض بعد اتباع طریق الخیر، والطواف حول رمز الخیر الکعبة، والجمیل فی الأمر أن المسلم یشعر إذ یطوف حول مرکز واحد، ویرمی رموزاً للشر ثلاثة بأن طریق الله واحد فی حین أن طرق الشیطان متعددة، وباستحباب التکبیر له عند کل رمیة یشترک اللفظ فی الموقف لیؤکد فی شعور الإنسان عهده لله تعالی بأن یرمی الشر والشیطان ولا یتبعهما، ویبقی وفیاً لعقیدته بأن الله خالق کل شیء وفوق کل قوة (۱).

إنه بحق مؤتمر إیمانی إنسانی کبیر لا نظیر له تحت شعار واحد ونداء واحد واستجابة واحدة:

«لبیک اللهم لبیک لبیک لا شریک لک لبیک ...».

ویأمل المخلصون من أبناء الإیمان أن یساعد تطور الوعی والمعرفة عند الناس خصوصاً الأمة الإسلامیة علی إدراک جوهر الحج ومرامیه وأهدافه، لتعود فعالیة هذه الأمة کما بدأت فی حمل رسالة الإسلام الحق إلی البشریة جمعاء.

هذا فیما یتعلق بالخطاب الأول لسورة الحج یا أَیُّهَا النَّاسُ ... فهو خطاب عام وخطاب الحج خطاب عام أیضاً.

التقوی

إن أول ما بدأت به هذه السورة المبارکة: یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمْ .. وفی الآیة الثانیة والثلاثین التی تتوسط تقریباً آیات الحج فی هذه السورة ذلِکَ وَ مَنْ یُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ وللشعائر تفاسیر منها:

إنها معالم دین الله والأعلام التی نصبها لطاعته، ثم اختلف فی ذلک فقیل: هی مناسک الحج کلها.. وقیل: هی البدن.. وقیل: دین الله کله، وتعظیمها التزامها (۲) ..

وسواء هی معالم دین الله أم هی مناسک الحج ومنها البدن أم هی دین الله کله وتعظیمها یعنی التزامها، فإن الغایة منها هو هذا الأمر العظیم والذی هو أساس کل شیء فی حیاتنا «التقوی» أن لا یراک الله تعالی حیث نهاک ولا یفقدک حیث أمرک. أو احترسوا بطاعته عن عقوبته ... وکل ما نجده فی عرصات ومیادین هذه الفریضة من مناسک کلها طاعة لله تعالی ومواضع عبادة تحت السماء وجودنا فیها وتثبیتنا علیه.. وهی تؤسس للتقوی وتبنیها فی النفوس وتثبتها فی القلوب عبر طاعة خالصة لأوامر وأحکام علی جمیع الحجیج الالتزام بها وإلا ترتبت علی مخالفتها عقوبات.. إن الحج مدرسة نتیجتها التقوی وهو الفوز الکبیر.. وإضافة التقوی إلی القلوب فَإِنَّها مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ لأن حقیقة التقوی تقوی القلوب ..

وتربط بین الهدی الذی ینحره الحاج وتقوی القلوب إذ إن التقوی والقول لسید قطب هی الغایة من مناسک الحج وشعائره. وهذه المناسک والشعائر إن هی إلا رموز تعبیریة عن التوجه إلی رب البیت وطاعته. وقد تحمل فی طیاتها ذکریات قدیمة من عهد إبراهیم ۷ وما تلاه، وهی ذکریات الطاعة والإنابة والتوجه إلی الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة، فهی والدعاء والصلاة سواء (۳)..

ثم تأتی التقوی أیضاً فی الآیة الخاتمة لآیات الحج، وهی السابعة والثلاثون: لَنْ یَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لکِنْ یَنالُهُ التَّقْوی مِنْکُمْ ....

وهم حین یؤمرون بنحرها باسم الله لَنْ یَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها، فإن اللحوم والدماء لا تصل إلی الله سبحانه إنما تصل إلیه تقوی

القلوب وتوجهاتها لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة (۴) ...

وجاءت الآيـة تـذكيراً للناس جميعاً وتحـذيراً لهم من هول تلك الساعـة وعظيم حـدوثها وشدة خطرها، وأنه لا بد لهم من ذلك اليوم الرهيب يوم الحساب الأكبر، إنه يوم القيامة. فمن أول آية نقرأ قوله تعالى: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.

إن فريضة الحج المباركة فى أغلب مناسكها ومفاصلها تذكرنا مشاهدها بذلك اليوم العظيم وهذه المشاهد تجسّد لنا العلاقة بين الحج والحديث عن القيامة..

فلباس الإحرام والغسل الذى قبله يذكرنا برحلة الموت وقد بدأت بالتغسيل ثم التكفين.. لباس الحج البسيط يذكرنا بالكفن الذى يلبس للموتى ...

يذكرنا بأننا لا نخرج من الدنيا إلا بهاتين القطعتين.. وندع كل شـيء خلف ظهورنا، كل ما جهدنا أنفسنا للحصول عليه وكل ما اختلفنا من أجله أو تنازعنا عليه أوتقاتلنا بسببه وتقاطعنا نذره وراءنا..

إن الحج ولباسه يطلب منا العودة إلى حيث البداية، بل إن الحاج يتمثل الحالة التى كانت أولًا من البساطة فى المظهر واللباس..

۱- انظر: نظام العبادات فى الإسلام. الحج.

۲- انظر: مجمع البيان: الآية.

۳- انظر: فى ظلال القرآن: الآية.

۴- المصدر نفسه.

ص: ۵۸

وزحمة الحج والناس يملأون أرجاء أرض المناسک وکلهم متجهون إلی مکان واحد فی لباس واحد فی حر الشمس، والنزول من عرفة والنفرة من مزدلفة والتوجه لرمی الجمرات تذکرنا بزحمة ذلک الیوم یوم القیامة. الشمس الضاربة المحرقة والحر الشدید والعرق والزحام الخانق وما یترتب علی هذا کله من متاعب وحرج وضیق و أذی.. یذکرنا ببأس یوم القیامة وهوله..

والطواف بالبیت المبارک والسعی بین الصفا والمروة وما یرافق ذلک من الزحام الخانق والضغط الشدید، والانتظار الطویل والصبر والتحمل والتقید بالتعلیمات الخاصة بکل منسک والابتعاد عما یسبب الأذی للآخرین ومراعاة مریضهم وکبیرهم وصغیرهم.. یذکرنا بیوم القیامة .. بل إن القیامة لتتجسّم بمثل هذه المواقف المهابة فی عمرة الحج ومتعته حیث الصحاری المملوءة بالحجیج والمشاعر المکتظة بهم ... تعلو أجسامهم ثیاب بیض کالأکفان وتصهرهم أشعة الشمس وتری وجوههم تفیض عرقاً وأجسامهم کادحة وقد عنت للحی القیوم.. کما هی حالتهم حینما یقفون بین یدیه تعالی للحساب وهم ینظرون إلی رحمته ولطفه بهم وهم شعث غبر، قد أخذ الجهد والإرهاق منهم مأخذه والعرق یتصبب منهم ینتظرون مغفرته ورضوانه وَ یَخافُونَ یَوْماً کانَ شَرُّهُ مُسْتَطِیراً (۱) منتشراً یخشون أن یصیبهم بشرّه وضرره ویختم أمرهم إلی نار وقودها الناس والحجارة.. لکن هذه العبادة والصدق فیها تعطی الأمل لهؤلاء وهم یجوبون عرصاتها وهم یحرمون یلبون یطوفون یصلون یسعون یقصرون یدعون یذبحون یحلقون یرجمون ... فلا یقنطون کما تعطیهم رحمة الله تعالی هناک فی عرصات یوم القیامة الأمل والرجاء والبشری بالمغفرة والرضوان والجنة التی وعدهم إیاها رب العزة رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلی رُسُلِکَ وَ لا تُخْزِنا یَوْمَ الْقِیامَةِ إِنَّکَ لا تُخْلِفُ الْمِیعادَ وحاشا لله أن یخلف میعاده لأولیائه ..

عن أنس بن مالک قال: سمعت رسول الله ۹ یقول:

«إن الله تعالی یباهی بأهل عرفات الملائکة یقول: یا ملائکتی انظروا إلی عبادی شعثاً غبراً أقبلوا یضربون إلی من کل فج عمیق فأشهدهم أنی قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسیأهم لمحسنهم وأعطیت محسنهم جمیع ما سألونی غیر التبعات التی بینهم ...».

أو کما فی روایة أخری عن رسول الله ۹ یذکرها الطبرانی: «أما خروجک من بیتک تؤم البیت الحرام، فإن لک بکل وطأة تطؤها راحلتک، یکتب الله لک بها حسنة، ویمحو عنک بها سیئة. وأما وقوفک بعرفة، إن الله عز وجل ینزل إلی السماء الدنیا، فیباهی بهم الملائکة، فیقول: هؤلاء عبادی، جاءونی شعثاً غبراً من کل فج عمیق، یرجون رحمتی، ویخافون عذابی ولم یرونی، فکیف لو رأونی؟ ...».

جاء ذلک بسبب الدعاء المتواصل والدموع المنحدرة والقلوب المشدودة إلی بارئها والأعناق المشرئبة إلی ربها.. آلاف یتضرعون إلی الله یتوسلون إلیه، أن ینجیهم من هول المطلع ونداؤهم یعلو یؤکدون استجابتهم: «لبیک اللهم لبیک ... لبیک لا شریک لک لبیک ...». یعترفون له أن کل شیء فانٍ إلا وجهک الکریم وأن کل شیء هو ملکک وحدک لا شریک لک لیست النعمة و المال إلا لک ولیست القوة إلا بک ولیس السلطان إلا لک وإنک المالک الحقیقی الذی یستوجب منا الحمد و الشکر دون أن یکون هناک أحد سواک.. وهو مشهد یحکی لنا وقوفنا بین یدیه تعالی وحده وحده.

یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ (۲).

وأکثر الروایات تؤکد أن التلبیة تعبر عن استجابة بشریة کبری لنداء تاریخی عظیم طلب من إبراهیم شیخ الموحدین أن یعلنه فی الأرض وأعطی وعداً بأن یستجیب له المؤمنون. وهو ما وقع بالفعل منذ أول أذان بالحج وإلی یومنا هذا ..

أما مشاهد ذلک الیوم ووصف أهواله فنترک الآیة تصوره لنا وهل هناک تصویر أبلغ منها وأدق وأصدق حتی کأنک تراها أمام عینیک:

یَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ کُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ کُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَی النَّاسَ سُکاری وَ ما هُمْ بِسُکاری وَ لکِنَّ عَذابَ اللهِ

شَدِیدٌ.

وما مشاهد الحج إلا صورة عملیة ومصغرة نحیاها کل عام من مشاهد القیامة.

ثم تنتقل الآیات إلی البعث یوم الفزع الأکبر حین نفخة البعث لتقرّر بلا أدنی شک ولا ریب أن تلک الساعة واقعة لا محالة، وأن الله العزیز القدیر سیبعث الموتی ویخرجهم من أماکنهم التی طال انتظارهم فیها والتراب یعلو وجوههم وأجسادهم.

وَ أَنَّ السَّاعَهَ آتِیَهٌ لا رَیْبَ فِیها وَ أَنَّ اللهَ یَبْعَثُ مَنْ فِی الْقُبُورِ.

لتذکرنا أن أمر الساعة والبعث واقع لا محالة، وإن ارتبنا فی قدرة الله تعالی أن یبعث أشلاءنا وهی رمة أو رمیم فإن الله القادر یذکرنا أن أصلنا کان من تراب، وأن خلقنا الأول کان من ذلک التراب وأننا أبناء الأرض التی تکونّا من ترابها ومنها نشأنا وکذلک علیها عشنا ومن عناصرها استفدنا وما زلنا ..

یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ.

إن انتابکم الشک فی بعثکم ونشورکم فإنا خلقنا أباکم وهو آدم ۷ من تراب، فمن قدر علی أن یصیّر التراب بشراً سویاً حیاً فی الابتداء، قدر علی أن یحیی العظام وهی رمیم ویعید الأموات ویحشرهم إلیه.. أیها الناس وإن من کان قادراً علی الابتداء فهو قادر علی الإعادة ..

وفی الحج أیضاً، تذکرة لنا فی الدنیا عن ذلک الیوم عندما تنظر لنفسک بعد یوم أو یومین من ارتداء ملابس الإحرام، تری أنک أصبحت شعثاً وقد علاک التراب والغبرة. فإذا نویت المبیت فی مزدلفة، تری الکثیر من الناس تعباً، لا بل کأنه من التعب والمشقة والإعیاء میت فعلًا. فمنظر

۱- الإنسان: ۷.

۲- الشعراء: ۸۸- ۸۹.

ص: ۵۹

الحجیج فی مزدلفة وهم نیام بعد وقوفهم فی عرفة وأداء أعمالها ثم إفاضتهم منها بذلک الزحام الشدید وعلیهم آثار التعب ویعلوهم التراب والغبار والضنک. وما أن یؤذن لصلاة الصبح فی المزدلفة حتی تراهم یقومون وینفضون عنهم التراب وینشطون من جدید کما لو أنهم بعثوا من قبورهم یوم البعث. نعم إذا أتی وقت الفجر یستیقظ الناس کأنهم یبعثون من القبور: الکل بالثیاب البیض یتحرک هنا وهناک یستعد إلی حرکة أخری وهی رمی الجمرات وما یرافقها من أعمال منی ...

لذلک تأتی الآیة السابعة لتذکرنا بالبعث من القبور:

وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِیَةٌ لا رَیْبَ فِیها وَ أَنَّ اللهَ یَبْعَثُ مَنْ فِی الْقُبُورِ.

وهکذا نری أول أثر من آثار الحج فی تربیة الأمة: تربیتها علی الیوم الآخر والاستعداد له، بأن یعیش أفراد الأمة بعض لحظاته ومعالمه العملیة أثناء أیام الحج..

الکل ساجد لله

ومن روعة الحج أنه یجعلک تستشعر أن الکون کله عبد لله وأنک خاضع لله مع من حولک. ففی یوم عرفة تشعر أنک لست وحدک من یسجد لله فی هذا الکون ویدعوه، بل تشعر أن کل شیء ساجد فالخیمة التی تستظل تحتها ساجدة، وأن جبل عرفات الذی تعلوه ساجد، بل الکون کله ساجد، فتنضم أنت أیها الإنسان الضعیف إلی هذه المخلوقات وتشارکها فی سجودها وخضوعها لله تعالی. وهذا ما نراه بوضوح فی الآیة ۱۸:

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ یَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ کَثِیرٌ مِنَ النَّاسِ وَ کَثِیرٌ حَقَّ عَلَیْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ یُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُکْرِمٍ إِنَّ اللهَ یَفْعَلُ ما یَشاءُ.

فی عرفة الجمیع فی الحج یدعون إلهاً واحداً حتی الشجر والدواب والطیر والسموات والأرض کلهم یدعون ربهم ویسبحونه لکن لا نفقه تسبیحهم..

.. وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لکِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ ....

إن الحج یذکرنا بالعبودیة الخالصة لله تعالی فهذه حیاة الأمة المسلمة تقع بین سجدتین فی سورة الحج، فأول سورة نزلت فیها سجدة مع بدایة البعثة کانت سورة العلق، التی جاء فیها قوله تعالی:

کَلَّا لا- تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ بینما آخر سورة نزلت فیها سجدة کانت سورة الحج، التی نزلت مع نهایة البعثة، والتی تری فیها قوله تعالی:

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا ارْکَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّکُمْ وَ افْعَلُوا الْخَیْرَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ.

والفرق بین السجدتین یظهر النقلة العظیمة التی انتقلتها الأمة، من السجدة الأولی الموجهة للنبی ۹ وحده فی سورة العلق، إلی السجدة الأخیرة التی وجهت للأمة کلها فی سورة الحج. فهی نقلة نوعیة فی فترة محدودة، من النبی وحده فی غار حراء یعبد الله تعالی ویتفکر فی ملکوته وفی أوضاع قومه وما آلت إلیه أمورهم من عبادة الأصنام والأوثان والظلم والطغیان والتسلط والقهر والحروب، فاعتزلهم وما یعبدون، فنقلوا نقلة نوعیة إلی أمة مؤمنة عابدة مجاهدة ..

ثم تنتقل الآیات (۲۶- ۳۷) إلی ذکر مناسک الحج المختلفة، لتأتی خلالها الآیة المحوریة: ذلِکَ وَ مَنْ یُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ.

وإذا عدنا إلی سورة البقرة إلی الآیة ۱۹۷ التی تنص علی أن خیر ما یتزود به العبد المؤمن لآخرته هو التقوی ... وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزَّادِ التَّقْوی وَ اتَّقُونِ یا أُولِی الْأَلْبابِ خصوصاً إذا عرفنا أن العرب تطلق کلمة الزاد علی طعام السفر لا طعام الحضر، ولهذ نجد الإمام علیاً ۷ یتأوه:

«آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطریق وهول المطلع ..».

وقد جاء هذا بعد أن نفت الآیة نفسها کلًا من الرفث و الفسوق والجدال، وأن لا تکون هذه الأمور حاضرة فی ساحة الحج لما تسببه من إفساد للحج وآثام ومخالفات حیث قالت:

فَمَنْ فَرَضَ فِیهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِی الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ یَعْلَمْهُ اللهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزَّادِ التَّقْوی وَ اتَّقُونِ یا أُولِی الأَلْبابِ.

ولورود هذه الکلمة فی سورة الحج نحن نقف فقط عند (ولا جدال) الذی یعنی فیما یعنیه أنه لا خصام فی الحج ولا مماراة فی الحج ولا ملاحاة فی الحج ولا مشادة فی الحج؛ لما فیه من مخالفة للتقوی وإفساد لهذا العمل العظیم.. إذن فلا جدال فی الحج. الجدال المنبوذ الذی یترک البغضاء والحقد فی القلوب والسوء فی العلاقات والغضب الذی تمتلأ به النفوس ...

والجدال مصدر جادل.. والجدال: أشد الخصام وهو مشتق من الجدالة، وهی الأرض فکأن کل واحد من الخصمین أو المتجادلین یقاوم صاحبه حتی یغلبه فیکون کمن ضرب به الجدالة أو یرمیه بالجدالة قال الشاعر:

ص: ۶۰

قد أركب الآلة بعد الاله

وأترك العاجز بالجداله

منعفراً ليس له محاله

ومنه الأجدل: الصقر لشدته. والجدل فتل الحبل، ومنه زمام مجدول أی محکم الفتل (۱).

وتأتی الآیـة نفسـها لتحبب إلینا فعل الجمیل عبر: وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ یَعْلَمْهُ اللّهُ ثم راحت الآیـة تـدعو الجمیع إلی الزاد الأکبر النافع عبر: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزّادِ التَّقْوی وَ اتَّقُونِ یا أُولِی الْأَلْبابِ.

ومن اللافت أن سورة الحج تتعرض إلی الجدال الخالی من الدلیل والمعرفة.. جدال التطاول المجرد من البرهان، جدال الضلال والانحراف المتبع لشیطان عاتٍ متبجح بعید عن الحق مخالف له.. وقد جاء هذا النوع من الجدال مرتین فی الآیة الثالثة وفی الآیة الثامنة من هذه السورة:

وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ یَتَّبِعُ کُلَّ شَیْطانٍ مَرِیدٍ ...

وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدیً وَ لا کِتابٍ مُنِیرٍ ...

یقول صاحب مجمع البیان فی الآیة الأولی التی تحمل رقم ۳: هذا إخبار عن المشرکین الذین یخاصمون فی توحید الله سبحانه ونفی الشرک عنه بغیر علم منهم، بل للجهل المحض وقیل: إن المراد به النضر بن الحرث بأنه کان کثیر الجدال وکان یقول: الملائکة بنات الله والقرآن أساطیر الأولین، وینکر البعث ...

وکأن السورة باعتبارها سورة الحج تحذرنا من الجدال وتبین خطورته علی هذه الفریضة وعلی من یؤدیها وإن أخذ شکلًا آخر ومنحی آخر، وأنه منبوذ فی کل الأوقات ومحرم إلا أنه فی موسم الحج أکثر خطورة وأشد حرمة حتی لا یشغلنا عن مناسکه وأدائها بالشکل السلیم وحتی لا یمنعنا من الاستزادة من معانی الحج الجمیلة ولا یبعدنا عن قیمها وحلاوتها شیء.. ولهذا جاءت الآیة: فَمَنْ فَرَضَ فِیهِنَّ الْحَجَّ فَلا ... وَ لا جِدالَ فِی الْحَجِّ.

إن مناسک الحج تعدّ غایة الطاعة لله تعالی.. إنک فی خلال الحج، تنفذ أوامر وتعلیمات محددة ومشددة من الله تعالی، إن لم تنفذها بدقة تفسد الحج. فالمسلم فی الحج یطوف سبع مرات حول حجر، ویسعی سبع مرات بین حجرین الصفا والمروة، ثم عند رمی الجمرات، فهو یرمی بحجر علی حجر ویکبر مع کل حصاة یرمیها ... فهو یطبق مناسک عدیدة قد لا یفهم الحکمة من ورائها، لکنه ینفذها فقط طاعة لله تعالی، واستسلاماً لأوامره، وانقیاداً لأحکامه مع صبر رائع وتحمل کبیر لا یداخله ملل ولا ریب.. وفی هذا قمة العبودیة والطاعة لله تعالی، وقد شارکت الألفاظ الأعمال، ففی کل موقف کان اللفظ یشترک مع العمل والحرکة توکیداً للطاعة والتزاماً بعهده لله تعالی، بأن یرمی الشر والشیطان ولا یتبعهما ویبقی وفیاً لعقیدته بأن الله خالق کل شیء وفوق کل قوة.. إن الحج باختصار شدید وبنظرة إجمالیة وبنظرة تفصیلیة یشکل أروع الأسالیب التربویة التی جاء بها الإسلام لتهذیب النفوس وتأکید سیرها علی خط التکامل.. إن الحاج یطوف بتلک المشاهد یستقرؤها ویتملّی فیها ویعاهدها علی البقاء والثبات ویرجم کل ما عداها شیاطین الإنس والجن ..

إن الحج یعد دورة تدریبیة لأداء فریضة أخری من فرائض الإسلام تحتاج إلی الصبر والحکمة والتحمل، إنه الجهاد:

والمتدبر لکتاب الله العزیز یدرک أن مفهوم الجهاد یشمل کل جهد یبذل من أجل إعلاء کلمة لا إله إلا الله ..

الجهاد فی سبیل الله، الجهاد الذی یستوجب الطاعة وبدونها لا یؤدی الجهاد دوره ولا ینتج لنا نتائجه المرجوة.

لذلک تأتی بعد آیات الحج مباشرة آیات الجهاد فی سبیل الله، فنلاحظ أن الحدیث حول الحج فی سورة الحج یبدأ بالآیة السادسة والعشرین وینتهی بالآیة السابعة والثلاثین، ومن اللافت للانتباه أن الآیة التی تلیها مباشرة هی:

إِنَّ اللَّهَ یُدافِعُ عَنِ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ خَوَّانٍ کَفُورٍ (۲).

تمهیداً کما یبدو للإذن بالقتال وقد جاء لأول مرة فی التشریع الإسلامی:

أُذِنَ لِلَّذِینَ یُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلی نَصْرِهِمْ لَقَدِیرٌ (۳).

سبب نزول آیة الإذن بالقتال

قال المفسرون: کان مشرکو أهل مکة یؤذون أصحاب رسول الله ۹ فلا یزالون یجیئون من مضروب ومشجوج فشکوهم إلی رسول الله ۹ فیقول لهم: اصبروا فإنی لم أومر بالقتال، حتی هاجر رسول الله ۹ فأنزل الله تعالی هـذه الآیة. وقال ابن عباس: لما أخرج رسول الله ۹ من مکة قال أبو بکر: إنا لله لنهلکن فأنزل الله تعالی: أُذِنَ لِلَّذِینَ یُقاتَلُونَ الآیة. قال أبو بکر: فعرفت أنه سیکون قتال.

۱- انظر: الدر المصون فی علوم الکتاب المکنون، للسمین الحلبی، والجامع لأحکام القرآن للقرطبی، الآیة.

۲- الحج: ۳۸.

۳- الحج: ۳۹.

ص: ۶۱

وفي مجمع البيان: وهي أول آية نزلت في القتال (۱).

ومن هم الذين ينص القرآن على أنهم مظلومون؟

إنهم الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ (۲).

وفي الذين أخرجوا احتمالان كما يذكر صاحب مجمع البيان:

أخرجوا إلى المدينة فتكون الآية مدنية. ويحتمل إلى الحبشة فتكون الآية مكية، وذلك بأنهم تعرضوا لهم بالأذى حتى اضطروا إلى الخروج ... لم يخرجوا من ديارهم إلاـ لقولهم: ربنا الله وحده، وقال أبو جعفر ۷: نزلت في المهاجرين وجرت في آل محمد: الذين أخرجوا من ديارهم وأخيفوا..

ثم يأتي الكلام عن سنّة التدافع التي شرعت للدفاع عن الحق وحفظ معالمه:

... وَ لَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان.. والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع، والصلوات أماكن العبادة لليهود والمساجد أماكن العبادة للمسلمين، وهي كلها معرضة للهدم على قداستها وتخصيصها لعبادة الله لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ويعتدون على أهلها (۳)..

وبعد وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ هذا وعد من الله بأنه سينصر من ينصر دينه وشريعته إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف يأتي لأهل الصلاح في الأرض الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (۴).

«والتمكين إعطاء ما يصح معه الفعل ...» والقول لصاحب مجمع البيان.

فجهاد معسكر الإيمان يكون لأهداف سامية تتعلق برفع الظلم، وإحقاق الحق، وإصلاح الأرض. ولا يجوز أن يكون من أجل التسلط والاستضعاف.

أمّا خاتمة سورة الحج فهي الآية ۷۸:

جاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ.

لقد جاءت آيات الجهاد في السورة بعد آيات الحج لأن الحج تدريب أساسي وقاس على الجهاد في سبيل الله، لأنه عبارة عن حركة شاقة وانتقال من مكان إلى آخر، والحاج كالمجاهد تماماً كثير الارتحال بين الأماكن والمناسك دون أن يعرف الاستقرار، وفي هذا تعب ومشقة والتزام بأوقات ومشاعر أمر بها الله تعالى وعلمنا إياها رسولنا الكريم ۹ ..

وختاماً إن من يريد أداء هذه الفريضة العظيمة، أو على الأقل العمرة، عليه أن يعدّ نفسه ويربيها على المعاني التي أتت في هذه السورة الكريمة. وأن يقرأ سورة الحج بنية من يريد أن يستفيد من دروس الحج ومعانيه، حتى لو لم تتح له الفرصة بعد.

وتلك هي ملامح قراءة بعض آيات هذه السورة المباركة وارتباطها ببعضها وبأنشطة فريضة الحج المعطاء.

۱- انظر: الواحدى فى أسباب النزول لمزيد من الاطلاع.

۲- الحج: ۴۰.

۳- انظر: فى ظلال القرآن: الآية.

۴- الحج: ۴۱.

ص: ۶۲

ص: ۶۳

فقه الحج الضرورات و الحاجات (۱)

حيدر حب الله

تمهيد

تعدّ فريضة الحج من الفرائض الكبرى فى الإسلام، و هى أحد الأركان الخمسة التى بنى عليها هذا الدين، فقد جاء فى الرواية التى تعدّدت طرقها عند السنّة و الشيعة: «بنى الإسلام على خمس: الصلاة، و الزكاة، و الحج، والصوم، والولاية ...» (۱).

أو «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله و أن محمداً رسول الله، و إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، و صوم رمضان» (۲).

ومهما اختلفت صيغ هذا الحديث عند السنّة و الشيعة، و هو حديث دعائم الإسلام، فإن الحج إلى بيت الله الحرام، يمثل القاسم المشترك بين صيغه إلى جانب بعض الفرائض الأخرى، و هذا ما يعطى للحج أهمية إضافية، إذ تجعله بمثابة العمود الذى يقوم عليه البناء، كما يقوم على الشهادتين و الصلاة والولاية و ...

و من منطلق الأهمية التى يحظى بها الحج فى النصوص الإسلامية و التراث الإسلامى، يبدو من الضرورى أن يكون للفقه الإسلامى دوره فى الاهتمام بهذه الفريضة العظيمة، و أن تكون للفقه مساهمةتعطى هذه الفريضة مكانتها الطبيعية التى يخبرنا عنها حديث الدعائم، كما نفهمها قبل هذا الحديث من ذيل الآية الكريمة التى تشرّع هذه الفريضة، وحيث قال تعالى: (... وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ) (۳).

وكأننى أريد هنا أن أضع ميزاناً لقيمة فقه الحج الذى يمارسه الفقيه المسلم؛ فإذا قدّم الفقه حجاً مفرّغاً من كل قيمة يساعد على تهاوى الإسلام و المسلمين، و يعزّز من تخلّف الأمة الإسلامية؛ فلن يكون هذا الحج هو الحج الإبراهيمى المحمدى؛ لأن هذه الحالة التى يعانى منها لن تضعه فى مصاف العبادات التى يقوم عليها الإسلام الذى قدّم الإنسان و حرّره، وصنع منه حضارةً كبرى فى تاريخ الإنسانية؛ و هذا ميزان و مؤشر لصواب حركة الفقه الإسلامى فى نتائجه.

ونحاول هنا أن نتحدّث عن حاجات الدراسات الحجية المعاصرة؛ و نقدّم بعض الملاحظات العابرة، رغبةً فى المساهمة بتفعيل دور هذه الدراسات لخدمة الأهداف الكبرى للشريعة الإسلامية.

الحج وفقه النوازل والمستحدثات

يواجه الفقه الإسلامى على الدوام طوارئ و مستجدات تحصل فى الواقع؛ و تلحّ عليه أن يجيب عنها، و تسمّى هذه المستجدات فى الفقه الشيعى بمستحدثات المسائل، فيما يغلب فى الفقه السنى تسميتها بفقه النوازل، و فى العصر الحديث و نتيجة التحوّلات الكبرى فى العالم على مختلف الصعد و المجالات، ظهرت مستحدثات كثيرة، ولكثرتها تكاد تكون أرهقت الفقه الإسلامى و أتعبته، ففى المجال الطبى تظهر كل سنة وقائع جديدة تطالب الفقهاء بالجواب عنها، و فى المجال الاقتصادى لاتكاد تقف كرة الثلج المتدحرجة لتكبر يوماً بعد يوم فى حجمها وإيقاعها و هكذا ...

و لم يكن الحج و العمرة بمعزل عن هذا الواقع الجديد، فالكثرة السكانية فى العالم فرضت واقعاً جديداً على الحج، وحاجات حماية الحجيج استدعت هى الأخرى جملة من الأحداث التى لم تكن من قبل و هكذا ... من هنا دخل فقه الحج إطار المستحدثات و ظهرت فيه مسائل من نوع الجمرات، و حدود الذبح، و الإحرام من الطائرة، و غير ذلك الكثير.

وهذا يعنى ليس أن يقوم الفقيه بالجواب عن الاستفتاء فى هذا المستجدّ الحادث فحسب، بل الأهم من ذلك أن تقدّم دراسات حقيقية تكشف عن اهتمام جاد بهذه الموضوعات، و إذا قلت: «اهتمام جاد» فقد أكون تسامحت فى التعبير، حيث كان المقصود ما هو أزيد من ذلك، وهو إعطاء هذا النوع من الموضوعات الأولوية الأولى فى الأبحاث الفقهية المتخصّصة، فإذا استجدّ أن وسّع المسعى كان

من المطلوب التسارع لتوجيه دعوات إلى الفقهاء والفضلاء كى يلتقوا لتقديم دراسات تستعين بوثائق التاريخ و الجغرافيا كى ينجم عن تضارب الآراء فى هذه الجلسات و عن عصف الأفكار شىء مركز مدروس، و لا يكتفى بأن يقوم فقيه واحد أو عالم واحد هنا أو هناك بكتابة دراسة فى كتاب أو مجلّة، فإذا كان هذا العالم جزاه الله خيراً قد قام بواجبه فإن المطلوب أن تشكّل لجان تتابع مستجدات المسائل فى فقه الحج، كى تعرضها بشكل دورى متواصل على الفقهاء والمختصّين ليساهموا فى بحثها بشكل جماعى؛ لأن هذا الشكل يساعد على تنضيج الأفكار و رقيّها.

ما هى أهمية أن أجلس عشر أو عشرين سنة أدرّس فقه الحج و فى داخل هذا الدرس التكرار للماضى و البحث فى قضايا لا تأخذ أولويةً اليوم؟! فلماذا لا تكون دروسنا قائمة على مستجدات المسائل، ليكون هناك الجواب العلمى المدروس لكل نازلةٍ فى أقرب وقت ممكن؟ فلو سرنا اليوم فى

۱- انظر هذا الخبر بصيغه فى: المحاسن ۲۸۶: ۱- ۲۸۷؛ والكافى ۱۸: ۲- ۲۱، ۳۱؛ و ۶۲: ۴؛ و دعائم الإسلام ۲: ۱؛ و أمالى الصدوق: ۳۴۰؛ و الخصال: ۲۷۷- ۲۷۸، ۴۴۷؛ و فضائل الأشهر الثلاثة: ۸۶- ۸۷، ۱۱۹؛ و من لايحضره الفقيه ۷۴: ۲؛ و تهذيب الأحكام ۱۵۱: ۴ و روضة الواعظين: ۴۲؛ و شرح الأخبار ۲۷۷: ۲؛ و أمالى المفيد: ۳۵۳ و ...

۲- انظر صيغ هذا الخبر عند أهل السنّة فى: صحيح البخارى ۸: ۱؛ و صحيح مسلم ۳۴: ۱- ۳۵؛ وسنن الترمذى ۱۱۹: ۴؛ و سنن النسائى ۱۰۷: ۸- ۱۰۸؛ و سنن البيهقى ۳۵۸: ۱، و ۸۱: ۴، ۱۹۹؛ ومسند ابن حنبل ۲۶: ۲، ۹۳ و ...

۳- آل عمران: ۹۷.

ص: ۶۴

الكثير من الأبحاث الفقهية عند المذاهب الإسلامية سنجد حجماً لايستهان به من الدراسات المكرورة، فيما دراسات هامة ما تزال غائبة أو حجم المساهمة فيها أقلّ.

لو أخذنا مسألة ذبائح منى وهى مسألة هامة جداً اليوم، وصرفنا النظر عن الفتاوى، فكم دراسة جادة قدّمت فى هذا المجال؟ فربما تجد ما كتب فى حج الصبى أضعاف ما كتب فى هذا الموضوع!

من هنا الحاجة إلى تشكيل حلقات دائمة تعرض عليها المستجدات فى فقه الحج مستعينة بالخبراء، وتكون وظيفتها وفى أقرب فرصة ممكنة إصدار مجموعة دراسات فى هذا الأمر المستجدّ، وخلق جوّ فكرى وعلمى يضاعف من الاهتمام بهذه الموضوعات؛ علّنا بهذه الطريقة نستطيع أن نعطى للفقه بحقّ وجدارة صفة المواكبة للعصر فى بعض أشكالها.

الحج بين النظرية التجريدية و المعايشة الميدانية

كثيراً ما يجلس الباحث حول الحج سواء على صعيد فقه الحج أمغيره- يجلس فى بيته و يبدأ بدراسة تطال هذا الموضوع أو ذاك فيما يخصّ مكة أو المدينة أو الحج أو العمرة أو الزيارة أو ... و يبدأ يغوص فى النصوص أو الوثائق التى بين يديه، دون أن يعايش المناخ الميدانى لهذه النصوص، و هذا ما قد يورّطه فى أحكام تجريدية و مواقف غير واقعية ناتجة عن غيابه عن مسرح الأحداث، و لو أنّه اقترب قليلًا من أرض الواقع لربما تبلورت لديه تصوّرات مختلفة أو تراءت له احتمالات فى تفسير النصوص ما كان ليلتفت إليها لولا ذلك.

وفى هذا السياق، يتناقل أن بعض الفقهاء الكبار غيّر رأيه فى بعض الموضوعات الفقهية والنتائج الاجتهادية التى كان توصّل إليها بعدما سافر إلى الحج بنفسه؛ لأنه رأى على أرض الواقع بعض المعطيات التى تركت أثرها فى تعديل فهمه للنص أو لظرف صدوره.

والسبب فى هذه الظاهرة فى كثير من الأحيان أن الباحث أو الفقيه يحاول تصوّر النصوص كما لها من تطبيق فى عصره بحسب طبيعة المحيط الذى يعيشه؛ فيعمّم هذه الصورة إلى سائر الأماكن و الأزمنة بظنّ التشابه أو عدم وجود عنصر إضافى قد يغيّر الصورة، أما عندما يعايش النص فى المناخ نفسه الذى جاءت فيه النصوص أو يحاول الاقتراب منه قدر الإمكان فإن رؤيته للحدث أو الصورة ستكون أقرب للواقع.

ولكى أقترب من طرح الموضوع، آخذ الفكرة التى كان يتحدّث عنها سيد قطب (۱۹۶۷ م) سيما عند تفسيره لآية التفقه فى الدين: (فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة: ۱۲۲)

إن سيد قطب يرى أن الجهاد ساحة تفقّه حقيقى؛ إذ فى الجهاد يرى الإنسان العناية الإلهية، أى بهذا السبيل يفهم الدين و يرى التجليات الإلهية فيه، لهذا لا يقدر على تفسير القرآن عند سيد قطب و العلامة فضل الله إلا الحركيون [(۱)]، أى أولئك الذين عايشوا الواقع و خاضوا التجارب واقتربوا من طبيعة الحياة بألوانها وتمظهراتها ليفهموا المناخ الذى جاء هذا النص أو ذاك ليحلّ مشكلةً فيه أو يرفع التباساً ما.

إنّ هذه الفكرة صحيحة إلى قدر كبير؛ فالإنسان الذى لايفهم معنى السياسة و لايعرف طبيعة الملك والإدارة لايقدر على فهم النصوص السياسية فى الكتاب و السنّة كما يفهمها الفقيه و المفسّر الذى يعايش واقع الحياة السياسية و إدارة البلاد أو يقترب من ذلك إلى حدّ بعيد، أما الفقيه الذى يريد أن يضع حلولًا للاقتصاد و يدير بالفقه الحياة الاقتصادية للناس، ويظنّ أنّه بجلوسه فى البيت وتشقيقه الشقوق الافتراضية للمسائل والإجابة عن كل افتراض بشكل تجريدى ... يستطيع أن يقدّم أجوبة الفقه الإسلامى لأعقد القضايا، فهو غير مصيب فى تصوّراته، و التجربة كفيلة بتصويب أخطائه.

إذن، فالذى يبدو لنا أن فقه الحج و فقيه الحج يجب أن يقتربا من الواقع و يدرسا الحج والواقع الجغرافى والمناخى والتاريخى والعرفى و ... للمنطقة هناك؛ لأن ذلك يساعد على اقتراب الفقه من أرض الواقع، و لتتسم أجوبته بالواقعية لاتتصادم مع الواقع و حقائقه.

حج فقهی أم حج روحی؟!

قد یوحی هذا العنوان بأن الفقه یناقض الروح و الروحانیة، أو یختلف عنهما، فهناک حج فقهی و هناک حج روحی، ولکن الذی نریده هنا أن نثبت أن الحج الفقهی یجب أن یکون روحیاً تربویاً تطهیریاً، وأن الحج الروحی والتطهیری الذی یعید الإنسان إلی وطنه کیوم ولدته أمه ... هذا الحج لایتجاوز الضوابط الفقهیة و الشرعیة ولا یستهین بها، ولایتخطاها.

إننا نجد علی أرض الواقع ظاهرتین نعتقد أنه یجب تصحیحهما:

الظاهرة الأولی: أشخاص یذهبون للحج و العمرة و یحاولون الاقتراب من المدرسة الروحیة لهذه الفریضة العظیمة، فیملؤون أوقاتهم بالدعاء والصلاة و التوبة والتطهّر، صادقین مخلصین، یهدفون بفعلهم هذا أن یرتقوا فی مدارج الروحانیة أو أن یشطبوا علی تاریخ حیاتهم السابق الملیء بالذنوب والمعاصی، و کثیر من عامة الناس یعیشون قدراً من هذا الجو الروحی فی رحلة الحج، ویحاولون أن یعیشوا معانی الحج الروحانیة، لکن المشکلة أنهم لا یراعون لسبب أو لآخر الأحکام الشرعیة للحج، فبعضهم یعیش حالة جهل حقیقیة بفقه الحج؛ ولهذا ربما یقع هؤلاء فی أحیان کثیرة فی أمور توجب بطلان الحج نفسه، أو یترتب علیها کفارات شرعیة یجب أداؤها، من هنا کان من الضروری ترشید عمل الناس من خلال نشر ثقافة التفقه فی أحکام الحج، کی یضمن هؤلاء أن یکون الحج صحیحاً مجزءاً و فی الوقت عینه مقبولًا عند الله تعالی.

۱- انظر: سید قطب، فی ظلال القرآن ۱۷۳۴: ۳- ۱۷۳۶، دار الشروق، بیروت والقاهرة، الطبعة العاشرة، ۱۹۸۲ م.

ص: ۶۵

الظاهرة الثانیة: وفی مقابل الحالة الأولی المتقدمة نجد الکثیر من الناس سیما من المتشرّعة والمؤمنین الملتزمین بخط الإسلام یغرقون فی متابعة الجانب الفقهی لقضایا الحج حتی تراه یغیب عن روح الحج و عن رسالته المعنویة الکبری؛ ففی الطواف تجده یعیش عقدة أخذ الکعبة علی یساره، و یرکز کل همّه و طاقاته علی أن لاینحرف کتفه الأیسر عن الکعبة الشریفة، و لا یخرج من هذا الهم و الغم إلا فی الشوط السابع؛ حیث یکون قد أتم أعمال الطواف، لیبتلی بهمّ آخر حیث یصارع فی عدم الالتفات المخل عن الصفا أو المروة أثناءالسعی، و هکذا فی سائر المناسک.

إن هذا الاستغراق فی البعد الفقهی للحج علی حساب البُعد الروحی، یشبه ما یتحدّث عنه علماء الأخلاق والعرفان عن الاستغراق فی مسائل تجوید القرآن والاهتمام بمخارج الحروف فی الصلاة علی حساب حضور القلب، و کأن عمود الدین یکمن فی التلفظ الصحیح فقط بالکلمات و فی جعل ترکیز الإنسان کلّه فی کیفیة إخراج الألفاظ من مخارجها وما شاکل ذلک، وقد أشار الإمام الخمینی (۱۴۱۰ ه-) إلی هذا الأمر فی إفاداته الأخلاقیة والعرفانیة (۱).

وإذا أردنا أن نتعمّق أکثر فی هذه النقطة، نحاول أن ندخل إلی الهیکلیة التی جاءت فی الفقه الإسلامی لأداء فریضة الحج؛ ففی الفقه الإسلامی بمذاهبه الیوم، وعلی غالب الآراء، یمکن للإنسان أن یذهب إلی الحج دون أن یتزوّد روحیاً و معنویاً منه؛ فلا یجب حضور القلب فی أیّ فعلٍ من أفعال الحج، ویمکن للحاج أن ینام طیلة الوقت فی عرفة والمزدلفة و منی؛ بل بإمکانه أن یقضی وقته بالمسامرات والضحک واللهو و اللعب والتسوّق دون أن یبطل حجه أو حتی أن ینخدش ... إن خلوّ العدید من الکتب الفقهیة من البُعد الروحی للحج و من ثم عدم تحرّک الرسائل العملیة لتنشیط هذا البعد الهام، ترک و یترک الکثیر من الأثر علی أن یصبح المتشرّعة والمتدیّنون مستغرقین فی قضایا من نوع وضع الکعبة علی الیسار دائماً و أمثال ذلک.

بینما لو نظرنا إلی القرآن الکریم لوجدنا الترکیز علی ذکر الله تعالی فی الحج کذکرنا آباءنا أو أشدّ ذکراً، و قد استعرضنا هذا الموضوع فی دراسة فقهیة مستقلة متواضعة لتأکید أن الذکر الکثیر لله تعالی فی الحج فریضة و واجب، وعلی الإنسان أن یعیش الذکر الإلهی فی هذا السفر العظیم إلی الله تعالی ... دون أن یکلّف الناس ما لایطیقون أو أن نطلب منهم أن یصبحوا عرفاء وفلاسفة فی عیشهم للحج و درکهم لرسالته و معانیه السامیة (۲).

من هنا، تکمن الضرورة فی إعادة ترتیب البحث الفقهی والرسالة العملیة الفقهیة بما یخدم مقاصد الحج و رسالته المعنویة الکبری، و أن لا نضع هذه المسؤولیة فقط علیعاتق علماء الأخلاق الذین لم یقصّروا فی محاولاتهم العدیدة لاستخراج المدلولات المعنویة للحج. بل هذه وظیفة الجمیع لأنها تمثل المقصد الأساس لفریضة الحج إلی جانب مقاصده الأخری الهامة علی الصعید السیاسی و الاجتماعی و ...

فقه الحج القرآنی

من أهم الملفات البحثیة فی فقه الحج، فتح ملفّ الفقه القرآنی للحج، و نقصد بذلک أن تجمع الآیات القرآنیة حول الحج و العمرة وأمثال ذلک لتدرس بشکل مستقل، و تتحدّد الأطر التی وضعها القرآن الکریم فی هذا المجال، و فائدة هذا النوع من الدراسات أنه یقدّم لنا تصوّراً علویاً للخطوط التی طرحها القرآن الکریم فی مسألة الحج، حتی إذا حملها الفقیه معه إلی البحث الفقهی التفصیلی استطاع أن یعتبرها بمثابة المبادئ القرآنیة الحاکمة علی مجمل النصوص و القواعد والتفصیلات الجزئیة لقضایا الحج.

ولا نطرح هذا الموضوع فی فقه الحج و حده، وإنما نأخذ الحج أحد تطبیقات هذا الموضوع؛ وذلک أنه من المؤسف غیاب الفقه القرآنی کما یشیر إلیه العلامة الطباطبائی فی المیزان حین یستنکر غیاب الدرس القرآنی عموماً فیقول: «وذلک أنّک إن تبصرّت فی أمر هذه العلوم و جدت أنها نظمت تنظیماً لا حاجة لها إلی القرآن أصلًا، حتی أنه یمکن لمتعلّم أن یتعلمها جمیعاً: الصرف و النحو، و البیان، و اللغة، و الحدیث، و الرجال، و الدرایة، و الفقه و الأصول فیأتی آخرها، ثم یتضلّع بها ثم یجتهد فیها وهو لم یقرأ القرآن، و لم

یمسّ مصحفاً قط، فلم یبق للقرآن بحسب الحقیقة إلّا التلاوة لکسب الثواب أو اتخاذه تمیمة للأولاد تحفظهم عن طوارق الحدثان، فاعتبر إن کنت من أهله» (۳).

إذن، فالمطلوب تنشیط فعل الاستنتاج الفقهی من القرآن نفسه حتی لو کانت بعض النتائج التی نحصل علیها من البحث القرآنی موجودة فی الأدلّة الأخری، فالمفترض إذا اشترکت الأدلّة فی إیصالنا إلی نتیجة أن نأخذ بأقواها و أوّلها و هو کتاب الله الذی یتمتع بالقطعیة السندیة إلی جانب وضوح فی الدلالة فی کثیر من الأحیان.

ولأخذ شاهد و مثال ننظر فی بحث المحقق النجفی (۱۲۶۶ ه-) لمسألة الإیلاء، فإنه یصرّح فی مطلع البحث بأن الأصل فی الإیلاء هو الآیة القرآنیة المعروفة الواردة فی سورة البقرة؛ ثم یقول: «بل منها یستفاد الوجه فی جملة من أحکامه الآتیة» (۴)، إذاً فبعض أحکام الإیلاء یمکن أخذها من هذه الآیة الکریمة التی هی الأصل فی هذا الموضوع الفقهی، لکن لما نواصل مطالعتنا لبحث الإیلاء فی کتاب «جواهرالکلام» لا نجد حضوراً لهذه الآیة فی عملیات الاستدلال، بل الحاضر هو سائر الأدّلة کالروایات و غیرها، فما دامت الآیة قادرة علی أن تعطینا أجوبة عن بعض أحکام الإیلاء فلماذا غابت فی البحث الفقهی حول هذه الأحکام؟

هذا هو الواقع الذی نحاول هنا الإشارة إلیه، و هو الذی یستدعی إعادة إحضار الفقه القرآنی للحج، لیشکّل الأساس فی دراسة موضوع الحج فی الفقه الإسلامی بأدلته المتنوّعة.

إننا بحاجةٍ إلی تکوین ثقافة قرآنیة حجیة مهیمنة؟ تحرّک رؤیة الفقیه لأحکام الحج و تشکل المفاصل الأساسیة التی یتحرک عبرها و یتنقل، و لا ـ نقصد تفسیراً تجزیئیّاً بجمع الآیات القرآنیة فقط وإنما بحث موضوعی متکامل یکوّن الصورة القرآنیة لهذه الفریضة العظیمة.

فتاوی الحج والحاجات العملیة

۱- أنظر: الآداب المعنویة للصلاة: ۳۶۲، تعریب: السیّد أحمد الفهری، دار الکتاب الإسلامی.

۲- انظر: حیدر حب الله، الذکر فی الحج: هل ذکر الله فی المشاعر واجب أو مستحب؟ مجلة میقات الحج، العدد ۱۰۷: ۲۳- ۱۳۲.

۳- الطباطبائی، المیزان فی تفسیر القرآن ۲۷۶: ۵.

۴- النجفی، جواهر الکلام ۲۹۷: ۳۳.

ص: ۶۶

وفی سیاق الحـدیث عن فقه الحـج نرکّز علی نقطهٔ جوهریهٔ، وهی مسألهٔ فتاوی الحج؛ فتعدّد المرجعیات الدینیهٔ و حصول حالهٔ تحوّل فی الرأی عنـد بعض الفقهاء وکلاهما أمرٌ غیر معیب بل هو حالـهٔ صـحیّهٔ فی الجملهٔ یؤدی إلی تذبذب الناس أحیاناً وضـیاعهم فی أمر الفتاوی؛ فلو أردت أن تطبع کتاباً جامعاً لفتاوی أبرز المراجع المعاصـرین لوجب علیک أن تعیـد طبعه کل عام؛ لأن قسـماً من الفتاوی سیتغیّر و یتبـدّل، من هنا من الضـروری وضع حلول عملیـهٔ لتسـهیل هـذا الأمر میـدانیاً، ولا نقصـد تغییر الفقه أو آراء المجتهـدین دون استناد إلی دلیل والعیاذ بالله، لکن فلتؤخذ هذه المشاکل المیدانیهٔ بعین الاعتبار.

ومما یتصل بهـذا الشأن ظاهرهٔ الاحتیاط الوجوبی فی فقه الحـج، فالحج لیس کالصـلاهٔ یتمکن الإنسان من إقامته دون عناء کبیر، وإنما هو تکلفهٔ مالیهٔ وجهود بدنیهٔ واستعداد نفسی وتنظیم للأوقات و ... لهذا من العسیر أن نکثر من الاحتیاطات الوجوبیهٔ فی بحث کفارات الأحکام، أو فی إعادهٔ الحـج أو ما شابه ذلک، لذلک یرجَّح أن تسـعی الجهات المعنیّهٔ لبت أمر الفتوی و رفع حالهٔ الاحتیاط الوجوبی قدر الإمکان والتخفیف علی الناس فی حجها حیث یمکن، دون تجاوز قید أنملهٔ للخطوط الشرعیهٔ والأدلّهٔ المعتبرهٔ فی هذا المجال.

فقه الحج وآلیات الإشراف علی الحرمین الشریفین

وفی سیاق فتاوی الحـج یأتی عدم إلزام الناس بفتوی مذهب معیّن، إلا ما یخص تنظیم أعمال الحج بحیث یلزم من عدم الأخذ بفتوی خاصّهٔ لمذهب معیّن أو لمرجع دینی معیّن.. یلزم الفوضـی أو بعض الآثار السلبیهٔ.. فتعدّد الاجتهادات نعمهٔ وفتح باب الاجتهاد والحریهٔ للنـاس فی انتخـاب مرجعهـا ومفتیهـا لیس نقمـهٔ بـل فسـحهٔ وإباحـهٔ؛ فلمـاذا التشدیـد علی النـاس لإلزامهم بشـخص معیّن وإلا تعرّضوا للمضایقهٔ أو إلزامهم بمذهب معین وإلا تم التعامل معهم کأنهم خارج الأسرهٔ الإسلامیهٔ؟!

من هنـا، نهیب بالقیمین علی الأماکن المقدسـهٔ فی الحجاز وسائر بلاد المسـلمین ألا یفرضوا فتوی خاصـهٔ علی عامـهٔ المسـلمین، مادام المسـلمون ینتهجون فی طریقهٔ أدائهم للعبادات منهج الرجوع إلی القرآن والسنّهٔ کلّ حسب نظریته واجتهاده، فلتحترم هذه الاجتهادات ولاـ یتم التعامل مع من یسیر وفقها علی أساس أنّه فاسق أو یجب أن یعـدل عن موقفه لصالـح اجتهاد فقهی آخر.. وأعتقـد أن القیمین علی الحرمین الشـریفین وعامـهٔ الأماکن المقدّسـهٔ یمکنهم أن یسـتفیدوا من تجربـهٔ الإمام مالک بن أنس (۱۷۹ ه-) عنـدما عرض علیه الخلیفهٔ العباسی أن یجعل کتابه «الموطأ» کتاباً قانونیاً مرجعیاً ملزماً للمسلمین فی الآفاق والأقطار، فأجابه بالقول بوجود آراء واتجاهات، وکل واحد له علمه وفضله (۱).

نحن لا نقف هنا عند حدود أن یحترم القیمون علی الأماکن المقدسهٔ فی الحج والعمرهٔ والزیارهٔ أفکار واجتهادات المذاهب الإسـلامیهٔ الأـخری.. مـادامت هـذه الاجتهـادات تحتکم لکتـاب الله وسـنّهٔ نبیّه.. بـل وأیضـاً أن لاـ یتمّ التعـاطی فی موسم الحـج والعمرهٔ مع أتباع المـذاهب الأخری ومقلّـدی مفتین آخرین بمنطق من یرید أن یهدیهم للحق والدِّین، وکأنّهم خارج إطار الإسـلام، فمن أراد أن یهدی المسـلمین فعلیه أن یفعـل ذلـک بالوسائـل المنطقیـهٔ الأخلاقیـهٔ الهائـدهٔ غیر المتشـنّجهٔ، لاـ أن یلاحق الناس ویتهمهم بالشـرک والکفر والضـلالهٔ والفسق والانحراف هنا وهناک، حتّی أن الحاج عنـدما ینتمی إلی بعض المـذاهب لا یشـعر بالأمان منـذ دخوله بلاد الحجاز الکریمهٔ الطیبهٔ، کأنّه مستهدف فی دینه وأخلاقه!!

إن هذه الطریقهٔ فی هدایهٔ الناس من أشدّ الطرق تمزیقاً للمسـلمین وتخویفاً لهم، فخدمهٔ الحرمین الشـریفین تکتمل وتتمّ بخدمهٔ حجاج هـذین الحرمین وزوارهما، لا بالتعامل مع هؤلاء الحجاج بمنطق التکفیر والتخوین و ... مع تقدیرنا التام واحترامنا الکامل للجهود الطیبهٔ التی قامت وتقوم بها غیر جهhٔ فی المملکهٔ العربیهٔ السـعودیهٔ، حکومهٔ وشعباً ومؤسسات، لخدمهٔ الزوار والحجاج، لکن هذا لا یمنع علی الـدوام من أن یقوم النقـاد المسـلمون بتصویب بعض الأخطـاء والإشارهٔ إلی بعضـها الآخر بالکلمـهٔ الحسـنهٔ والحوار الهادئ، علّ ذلک یقرّب المسلمین من بعضهم ویخلق جوّ احترامهم لبعضهم بعضاً رغم الاختلاف فی المذهب وفی الاجتهاد الفقهی.

فقه الحج المقارن، خطوهٔ عملیهٔ للتقریب الإسلامی

إذا طالعنا التراث الإسلامی القديم نجد المذاهب، على ما حصل بينها من تخاصم واختلاف.. تتناول أفكار بعضها بعضاً بالنقد والتأييد.. خصوصاً على الصعيد الشيعی، فقد ألّف الشيخ الطوسی (۴۶۰ ه–) فی القرن الخامس الهجری كتاب «الخلاف» فی الفقه المقارن؛ وفعل ذلك على نطاق أوسع بعده العلامة الحلی (۷۲۵ ه–) فی كتابه الشهير «تذكرة الفقهاء»، ولم يتحفظ العلماء المسلمون أن يحضروا دروس بعضهم بعضاً، فكان يحضر مجلس المفيد (۴۱۳ ه–) والمرتضى (۴۳۶ ه–) والطوسی (۴۶۰ ه–) فی بغداد عدد كبير من أبناء المذاهب الأخرى، كما حضر الشهيدان الأول والثانی عند علماء كبار من أهل السنّة فی أقطار وبلاد المسلمين ..

لكن المؤسف أنّنا نجد غياب الفقه المقارن غياباً تاماً، ففی الوسط الشيعی هناك اطلاع على الفقه السنی، ولا نقول: إنّه بالمستوى الذی نأمله، لكن فی الوسط السنّی والحق يقال هناك غياب تام أو شبه تام للفقه الشيعی الإمامی، بل نحن نجد من يتعالى على هذا الفقه وكأنه لا قيمة له، وهذا أمر فيه قدر كبير من عدم الإنصاف.. فكيف ننادی بالتقريب بين المسلمين سنّة وشيعة وهناك مثل هذه النظرة لفقه أهل البيت:؟! فبدل أن نُحضِر الفقه الشيعی فی الأبحاث الفقهية السنية، والفقه السنی فی الأبحاث الفقهية الشيعية.. نكتفی بإطلاق شعارات التقارب بين المسلمين دون القيام بخطوات عملانية.

سأعطی مثالًا مبسطاً.. عندما ألفت الموسوعة الفقهية فی مصر والمعروفة بموسوعة جمال عبدالناصر.. استحضرت المذاهب الفقهية الثمانية بما فيها مذاهب المسلمين الشيعة والإباضية، وكانت هذه الخطوة طيبة يشكر عليها القيمون.. لكننا وجدنا تراجعاً فی تجربة لاحقة أخذت شهرة، وهی موسوعة الفقه الإسلامی المعروفة بالموسوعة الكويتية.. حيث اقتصرت هذه الموسوعة الضخمة على المذاهب الأربعة السنية المعروفة، مستبعدة مذاهب الشيعة والإباضية.. فهل يمكن قراءة ذلك تراجعاً فی العقل المقارن والتقريب أم لا؟!

۱– أنظر القصّة ولها عدّة صيغ بعضها لا يدل على رفض مالك فی: الرازی، الجرح والتعديل مقدّمة المعرفة ۱۲: ۱؛ والذهبی، تاريخ الإسلام ۳۲۱: ۱۱؛ وتاريخ ابن خلدون المقدمة ۱۷: ۱؛ ووضوء النبی ۳۵۴: ۱.

ص: ۶۷

فی المقابل، وجدنا فی الوسط الشیعی موسوعة الفقه الإسلامی طبقاً لمذهب أهل البیت:، تختصّ بالفقه الشیعی، لکنها تنجز إلی جانب ذلک الیوم، ضمن فریق عمل، موسوعة الفقه المقارن أیضاً مستحضرةً المذاهب السنیة، ووجدنا المشروع الذی أطلقه المرجع الدینی الشیخ ناصر مکارم الشیرازی، وهو موسوعة الفقه المقارن التی صدر المجلد الأول منها، ویتوقع أن تزید عن الستین مجلداً ..

إنّنا نأمل أن یتنامی الفقه المقارن وتتعرف الأوساط ببعضها، سیما الوسط السنی بالفقه الإمامی شبه المغیب فیه، وفی الحج تبدو هذه القضیة بالغة الأهمیة جداً، لأن الحج مرکز تلاقی المسلمین جمیعاً وقضایاهم وهمومهم هناک مشترکة، فیفترض أن یشکلوا لجاناً مشترکة من فقهاء المذاهب الثمانیة کافة لتدارس کل مستجد فی فقه الحج أو طارئ ینزل، بدل أن ینفرد هذا المذهب أو ذاک بهذه القضیة، مع إعطاء الحق للدولة فی أن تکون لها صلاحیاتها الراجعة للتنظیم ورفع الفوضی والاضطراب و ..

وفی هذه المناسبة نری أن أیّ مشروع ترید الجهات المسؤولة فی بلاد الحجاز إنجازه لخدمة الحجیج والزوار کإصلاح الجمرات وتوسعة المسعی ونحن نشکرها علی ذلک یفترض أن یکون بالتشاور وضرب الآراء ببعضها وإشراک علماء وفقهاء المذاهب الأخری فی إبداء الرأی، بصرف النظر عن إلزامیة هذه المشورة.. إن الاستفادة من آراء الآخرین لا تُعدم الإنسان نضج الأفکار وتنمیتها.. ونحن لاـ نقصد أخذ رأی المذاهب غیر السنیة فقط، بل الأمر یشمل آراء المذاهب السنیة الأخری مثل الأحناف والشوافع والمالکیة إلی جانب الزیدیة والإسماعیلیة والإمامیة والإباضیة.. خصوصاً إذا بلغ الموضوع حد أعمال الهدم والردم والتغییر الجغرافی فی أماکن الحج والعمرة والزیارة ... وفی ذلک تقارب المسلمین واستفادتهم من بعضهم.. وعلی علماء المذاهب الأخری أن لا یبخلوا فی تقدیم کل مقترحاتهم للجهات المعنیة سألتهم أم لم تسألهم فإن فی ذلک للطرفین مصداق النصیحة وتبادل الرأی ومشاورة العقول وغیر ذلک من مکارم الأخلاق ومحاسن الأفعال.

إن هذا الذی نطرحه لا یهدف سحب الإشراف من ید جهة معینة، حتّی لا یثیر هذا الأمر قلق أحد؛ وإنّما نتحدّث فی الجوانب العلمیة والتقریبیة بین المسلمین.. علّ ذلک یشکل مصداقاً لقوله تعالی: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِیعاً وَ لا تَفَرَّقُوا (آل عمران: ۱۰۳)

کانت هذه بعض الملاحظات و المقترحات المدخلیة المفتاحیة فی فقه الحج، أقدّمها بین یدی الفقهاء و الباحثین والأساتذة فی هذا المجال، لترشید عملنا إلی ما فیه الخیر للإسلام و المسلمین إن شاءالله تعالی؛ ونکمّل بعض الأفکار الأخری فی الحلقة الثانیة بعون الله سبحانه.

ص: ۶۸

وُلد الهدی

أحمد شوقی و مدح الرسول ۹

وُلد الهدی فالکائنات ضیاء

وفمُ الزّمان تبسُّم وثناء

الرّوح والملأ الملائکُ حَولهُ

للدین والدُّنیا به بُشَراءُ (۱)

والعرش یزهو والحظیرة تزدهی

والمنتهی والسِّدرةُ العصماء (۲)

وحدیقةُ الفرقان ضاحکةُ الربی

بالتَّرجُمانِ شَذّیةٌ غنّاءُ (۳)

والوحی یقطر سَلسَلًا من سَلسل

واللوح والقلم البدیعُ رواءُ (۴)

نُظِمَتْ أسامی الرُّسْلِ فهی صحیفةٌ

فی اللوح واسمُ محمّد طُغرَاءُ (۵)

اسمُ الجلالة فی بدیع حروفِهِ

ألِفٌ هنالک واسم طه الباءُ

یا خیر من جاء الوجود تحیَّةً

من مُرْسَلین إلی الهدی بک جاؤوا

بیتُ النبیین الذی لا یلتقی

إلا الحنائفُ فیه والحُنفاءُ (۶)

خیرُ الأبوّةِ حازَهم لک آدم

دونَ الأنام وأحرزَتْ حَوّاءُ

هم أدرکوا عِزَّ النبوّةِ وانتهت

فیها إلیکَ العزَّةُ القعساء

خُلِقت لبیتکَ وهو مَخلوقٌ لها

إن العظائِم کفؤها العظماءُ

بکَ بَشّرَ اللهُ السّماء فزُیِّنَت

وتضَوَّعت مسْکاً بک الغبراءُ (۷)

وبدا محیّاک الّذی قَسماتُه

حَقٌّ وغرتُه هدًی وحیاءُ (۸)

وعلیه من نورِ النبوّةِ رونقٌ

ومن الخليل وهَدْيهِ سيماءُ (۹)

۱- الروح: هو الروح الأمين جبريل الملائک: أى الملائکۀ، والملأ: أشراف القوم البشراء: جمع بشير، والبشير الذى يحمل البشرى وهى کلّ نبأ سارّ.

۲- العرش يزهو: أى يشرق ضياءً السدرۀ: هى سدرۀ المنتهى ويقال: إنها شجرۀ نبق على يمين العرش العصماء: مثنى الأعصم وهو الظبى الذى فى ذراعيه بياض.

۳- الفرقان: القرآن الکريم الربى: جمع ربوۀ وهى المرتفع من الأرض الشذيّۀ: ذات الشذى العطر والطيّب.

۴- الرواء: حسن المنظر، والسلسل: الماء العذب.

۵- الطغراء: هى الطرّۀ عند العامّۀ مأخوذۀ من طغرى بالقصر، وهى صحيفۀ تصدر بها الأوامر التى تکتب بالقلم العريض.

۶- الحنفاء: جمع الحنيف وهو من کان على دين إبراهيم ۷ أى الدين الصحيح، والحنيف أيضاً: الذى ميله إلى الإسلام صحيح لا شبهۀ فيه، والجمع حنفاء.

۷- تضوّعت مسکاً: أى انتشرت فيها رائحۀ المسک الغبراء: الأرض.

۸- قسماته: القسمۀ ما بين الوجنتين والأنف والمحيّا: الوجه.

۹- الخليل: أى إبراهيم ۷ السيماء: العلامۀ.

ص: ۶۹

أثنى المسيحُ عليه خلفَ سمائه

وتهلَّلت واهتَزتِ العذراءُ (۱)

يومٌ يتِيهُ على الزّمان صَبَاحه

ومَساؤه بمحمّد وضّاءُ

الحقُّ عالى الركنِ فيه مُظَفَّرٌ

فى المُلكِ لا يعلو عليه لواءُ

ذعِرَت عروشُ الظالمين فزُلزِلت

وعلَت على تيجانِهم أصداءُ

والنّار خاويةُ الجوانب حولَهُمْ

خَمَدَتْ ذوائِبُها وغاص الماءُ (۲)

والآى تَتْرى والْخَوَارقُ جَمَّةٌ

جبريلُ رَوَّاحٌ بها غَدّاءُ (۳)

نِعْمَ اليتيمُ بَدَت مَخايلُ فضلِهِ

واليُتمُ رزق بعضُهُ وذكاءُ (۴)

فى المهد يُستَسْقى الحيا برجائه

وبقصْدِهِ تستدفع البأساءُ (۵)

تسوِى الأمانةُ فى الصّبا والصدق لم

يعرِفْهُ أهل الصدق والأمناءُ

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا

منها وما يَتَعَشَّقُ الكبراءُ

لو لم تُقِمْ ديناً، لقامت وحدَها

ديناً تُضِىءُ بنُورِهِ الآناءُ

زانتك فى الخلقِ العظيم شمائلٌ

يُغرَى بهنّ ويولعُ الكُرماءُ

والحسنُ من كرم الوجوهِ وخيرُه

ما أوتى القُوّادُ والزعماءُ

فإذا سَخَوْتَ بلغت بالجود المدى

وفعلت ما لا تفعلُ الأنواءُ (۶)

۱- أثنى عليه: مدحه وأطراه العذراء: السيدة مريم.

۲- الذوائب: جمع ذؤابة وهى هنا ألسنة النار أو اللهب خمود النار: سكون لهيبها وانطفاؤه.

۳- الآی: جمع آیـة، وهی العلامـة أو العـبرة، والمقصود بقوله: تتری، توالی نزول آیـات القرآن وحیـاً علی النبیّ الخوارق: المعجزات جمّة: عظیمة.

۴- مخایل: جمع المخیلة، وهی المظنة، أی ظهرت مخایل فضله.

۵- یستسقی الاستسقاء: طلب السقی، والحیا: المطر تستدفع البأساء: أی یدفع الفقر والشدّة.

۶- سخوت: السخاء الجود الأنواء: جمع نوء وهو المطر.

ص: ۷۰

وإذا عَفَوْتَ فقادراً ومقدّراً

لا يستهين بِعفوِك الجُهلاءُ

وإذا رحمْتَ فأنت أُمٌّ أو أبٌ

هذان فی الدُنیا هما الرُّحَماءُ

وإذا غَضِبْتَ فإنما هی غضبةٌ

فی الحق لا ضِغنٌ ولا بغضاءُ (۱)

وإذا رضیتَ فذاک فی مرضاته

ورِضَی الکثیر تَحلُّمٌ ورِیاءُ (۲)

وإذا خَطبْتَ فللمنابر هِزَّةٌ

تَعْرو النَّدِیّ وللقلوب بکاءٌ (۳)

وإذا قضیتَ فلا ارتیابَ کأنّما

جاء الخصومَ من السماء قضاءُ

وإذا حَمَیْتَ الماء لم یُورَدْ ولو

أن القیاصِرَ والملوکَ ظِماءُ

وإذا أجَرتَ فأنت بیت الله لم

یدخل علیه المستجیر عداءُ

وإذا ملکت النفسَ قمْتَ ببرّها

ولو أن ما ملکت یَداک الشاءُ

وإذا بنیتَ فخیرُ زوْج عِشرة

وإذا ابْتَنَیْتَ فدونکَ الآباءُ (۴)

وإذا صحبت رأی الوفاءَ مجسماً

فی بردک الأصحابُ والخلطاءُ

وإذا أخذتَ العهدَ أو أعطَیْتَهُ

فجمیعُ عَهْدِکَ ذمّةٌ ووفاءُ

وإذا مَشَیْتَ إلی العدا فغضَنفَرٌ

وإذا جریْتَ فإنکَ النّکباءُ (۵)

وتَمُدُّ حِلْمَکَ للسفیهِ مُداریاً

حتّی یضیقَ بِعرضِکَ السُفهاءُ

۱- الضغن: الحقد البغضاء: الکراهیة.

۲- التحلّم: تکلف الحلم أی السماحة الریاء: التملق والخداع.

۳- الندیّ: النادی.

۴- بنیت: من بنی‌بأهله أی زفّ إلیهم، وابتنی: صار له بنون یمتدح سیرة النبیّ مع أهله ورفقه بهم.

۵- العدا: الأعداء الغضنفر: الأسد کنایة عن شجاعة النبیّ فی قتال أعدائه النکباء: ریح یقول: إن النبیّ ۹ مقدام فی مواجهة أعدائه وسریع کالریح النکباء.

ص: ۷۱

فى كل نفْسٍ من سُطَاكَ مهابةٌ

ولكل نفس فى نداكَ رجاءُ (۱)

والرأى لم يُنْضَ المُهَنّدُ دونه

كالسّيفِ لم تَضرب به الآراءُ (۲)

يا أيّها الأمّىُ حسبُكَ رتبةً

فى العلم أنْ دانَتْ بكَ العلماءُ

الذكرُ آيةُ ربّكَ الكبرى التى

فيها لباغى المعجزاتِ غناءُ (۳)

صَدْرُ البيانِ لَهُ إذا التقت اللغى

وتقدّم البلغاءُ والفصحاءُ (۴)

نُسِخَتْ به التوراةُ وهى وضيئة

وتخلَّف الإنجيلُ وهو ذُكاءُ (۵)

لما تمشَّى فى الحجاز حكيمُه

قضّت عكاظُ به وقام حراءُ (۶)

أزرى بمنطِقِ أهلِهِ وبيانهم

وحىٌ يقصِّرُ دونه البلغاءُ (۷)

حسدوا فقالوا شاعرٌ أو ساحرٌ

ومن الحسود يكون الاستهزاءُ

قد نال بالهادى الكريم وبالهدى

ما لم تَنَلْ من سؤددٍ سيناءُ

أمسى كأنك من جلالك أمةٌ

وكأنه من إنسِه بَيداءُ

يُوحى إليكَ الفوْزُ فى ظلماته

متتابعاً تُجْلَى به الظلماءُ

دينٌ يشيّدُ آيةً فِى آيةٍ

لبنائه السُوراتُ والأضواءُ

الحقُّ فيه الأساسُ وكيف لا

واللهُ جلَّ جلاله البنّاءُ

۱- سطاك: جمع سطوة وهى الغلبة والقهر نداك: جودك وعطاؤك.

۲- لم ينض: أى لم يسلّ المهنّد: السيف.

۳- باغى المعجزات: طالبها الغناء: ما يغنى.

۴- التقت اللغى: أى اجتمع أصحاب اللغات البلغاء: أصحاب البيان والفصاحة.

۵- ذكاء: من أسماء الشمس يشير فى الأبيات ۱۰ و ۱۱ و ۱۲ إلى إعجاز القرآن وشمول معانيه وكيف جمع شؤون الدين والدنيا.

۶- حراء: هو غار حراء الذى كان النبى ٩ يتعبّد فيه، وفيه نزل الوحى عليه، وإليه لجأ حين غادر مكّة إلى المدينة.

۷- أزرى به أو بمنطقه: عابه البيان: بلاغة القول وفصاحة الكلام.

ص: ۷۲

أما حدیثُکَ فی العقول فمشْرَعٌ

والعلمُ والحِکَمُ الغوالی الماءُ (۱)

هو صِبْغةُ الفرقان نفحةُ قُدْسِهِ

والسین من سُوراته والراءُ (۲)

جَرتِ الفصاحةُ من ینابیع النُهی

من دوْحِهِ وتفجّر الإنشاءُ (۳)

فی بحرِهِ للسابحین به علی

أدبِ الحیاةِ وعلمِها إرساءُ

أتتِ الدُّهُورُ علی سُلافته ولم

تَفْنَ السُّلافُ ولا سَلا الندماءُ (۴)

بک یابن عبدالله قامت سمحةٌ

بالحقِّ من مِلَلِ الهدی غراءُ (۵)

بُنیت علی التوحید وهی حقیقةٌ

نادی بها سُقراطُ والقدماءُ (۶)

وجد الزعافَ من السُّموم لأجلها

کالشُّهْدِ ثم تتابَعَ الشُّهَداءُ (۷)

ومشی علی وجه الزّمان بنورها

کهَّانُ وادی النیل والعُرَفاءُ (۸)

إیزیسُ ذاتُ الملک حین توحدتْ

أخَذتْ قِوامَ أمورها الأشیاءُ (۹)

لما دعوت النّاسَ لبّی عاقل

وأصَمَّ مِنْک الجاهلین نداءُ

أبو الخروجَ إلیک من أوهامهم

والنّاسُ فی أوهامهم سُجناءُ

ومِن العُقول جداول وجلامِدٌ

ومن النُفوس حرائر وإماءُ (۱۰)

داءُ الجماعةِ من أرسطالیس لم

یوصَف له حتی أتیْتَ دواءُ

۱- المشرع: المورد الذی یستقی منه الحکم الغوالی: أی الحکم الجلیلة الغنیة بمرامیها.

۲- صبغةُ الفرقان: نوعه.

۳- النّهی: العقل الدوح: جمع دوحة، وهی الشجرة العظیمة.

۴- سلافته: السلافة: أجود الخمر الندماء: جمع ندیم المنادم علی الشراب، جمع ندماء وندمان.

۵- السمحة: الملّة ذات الجود والسماحة الغراء: مؤنث الأغرّ وهو السّید الشریف، وهو الحسن والکریم الأفعال.

۶- سقراط: أحد کبار فلاسفة الإغریق الثلاثة، والآخران هما أفلاطون وأرسطو.

۷- الزعاف: السمّ القاتل یشیر إلی شرب سقراط السم دفاعاً عن الحقیقة، وکان بوسعه أن ینجو من الموت ولکنه آثر أن یقدم حیاته من أجل توعیة الشباب والنهوض بمجتمعه فکان من أوائل شهداء الواجب فی تاریخ البشریة.

۸- العرفاء: جمع عرّاف وهو المنجم.

۹- إیزیس: من آلهة قدماء المصریین.

۱۰- یقول: إن بعض العقول متحررة وهی أشبه بالجداول الرفرافة، ولکن هناک بالمقابل عقول جاهلة وهی صلبة کالجلامد أی الصخور، والنفوس مثل العقول بعضها حرّ وبعضها الآخر راغ فی العبودیة کالإماء.

الجلامد: الصخور جمع جلمد، الإماء: الجواری جمع أمة.

ص: ۷۳

فرسَمْتَ بعدَك للعِبَادِ حكومةً

لا سوقةٌ فيها ولا أمراءُ (۱)

الله فوقَ الخلق فيها وحدَهُ

والناسُ تحت لوائها أكفاءُ (۲)

والدِّينُ يُسْرٌ والخلافةُ بَيعةٌ

والأمرُ شُورَى والحقوقُ قضاءُ

الإشتراكيون أنتَ إمامُهم

لولا دَعاوى القوم والغُلوَاءُ (۳)

داويْتَ مُتَّئِداً وداوَوْا طَفْرةً

وأخفُّ من بعض الدواءِ الدّاءُ (۴)

الحربُ فى حقٍّ لديْكَ شريعةٌ

ومن السُّمومِ الناقعاتِ دواءُ (۵)

والبرُّ عِندكَ ذِمّةٌ وفريضةٌ

لا مِنَّةٌ ممنونةٌ وجباءُ (۶)

جاءتْ فوحّدَت الزكاةُ سبيله

حتّى التقى الكُرَماءُ والبخلاءُ (۷)

أنصفتَ أهلَ الفقر من أهل الغنى

فالكلُّ فى حقِّ الحياةِ سواءُ

فلو أن إنساناً تخيَّرَ ملةً

ما اختار إلا دينكَ الفقراءُ (۸)

يا أيّها المُسْرَى به شرفاً إلى

ما لا تنالُ الشّمسُ والجوْزاءُ

يتساءلون وأنتَ أطهَرُ هيكل

بالروح أم بالهيْكل الإسراءُ (۹)

بهما سَموْتَ مُطهَّرَيْن كلاهما

نورٌ وريحانيةٌ وبهاءُ

فضل عليك لذى الجلالِ ومِنةٌ

واللهُ يفعلُ ما يرى ويشاءُ

۱- السوقة: الرعية من الناس، سمّوا كذلك لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمره.

۲- الأكفاء: المتساوون فى الحقوق والواجبات.

۳- الدعاوى: كناية عن المزاعم الباطلة الغلواء: الغلو والمكابرة.

۴- المتئد: المتأنى الذى يطيل الرويّة ويتمهّل فى تصريف الأمور الطفرة: نقيض التّأنى من طفر يطفر أى وثب، والطفرة الوثبة إلى الارتفاع، وقد كنّى بالطفرة فى سياق البيت عن التصرف الأرعن غير المسؤول.

۵- يقول: إن محمّداً جعل الحرب مشروعة فى سبيل الحقّ، وهى فى هذه الحال كالسم الذى يكون منه دواء وإن كان قاتلًا.

۶- البرّ: الإحسان الذمّة: العهد المنّة: العطيّة، والمنّة الممنونة: العطية التى تؤذى، لأنها متّبعة بالمنّ.

۷- الزكاة: مقدار معلوم يقدمه المرء من ماله ليطهره به، والزكاة من أركان الإسلام.

۸- يقول: إن فريضة الزكاة إنصاف للفقراء من مال الأغنياء وبها يتساوى الفقير والغنى فى الحياة.

۹- المسرى به: من الإسراء وهو السير ليلًا الجوزاء: برج فى السماء يقول: إن القوم يتساءلون هل كان إسراؤك بالروح أم بالهيكل أى الجسم؟ ويستطرد فى البيت التالى ليقول بأن الإسراء كان بهما معاً، أى بالروح والجسم.

ص: ۷۴

تغشى الغُيُوبَ من العوالم كلّما

طُوِيت سماء قُلِّدَتْك سماءُ (۱)

فی كلّ مِنطقةٍ حواشی نورها

نونٌ وأنت النقطةُ الزهراءُ

أنت الجمال بها وأنت المجتلی

والكفُّ والمِرْآةُ والحسناءُ

اللهُ هَيَّأ من حظيرةِ قُدسِهِ

نزلًا لذاتک لم يَجُزْهُ علاءُ

العرشُ تحتكَ سُدّةً وقوائماً

ومناكبُ الرُّوحِ الأمينِ وطاءُ

والرُّسل دون العرشِ لم يؤذَنْ لهمْ

حاشا لغيركَ موعد ولقاءُ

الخيلُ تأبى غيرَ أحمد حامياً

وبها إذا ذُكِر اسمه خيلاءُ

شيخُ الفوارسِ يعلمون مكانَه

إن هيجت آسادَها الهيجاءُ (۲)

وإذا تصدّى للظُبَى فمُهنّدٌ

أو للرّماح فصعْدة سمراءُ (۳)

وإذا رَمى عن قوسِهِ فيمينُهُ

قدَرٌ وما تَرْمی اليمينُ قضاءُ

مِنْ كلِّ داعی الحقّ همةُ سيفه

فلِسيفه فی الرّاسيات مَضاءُ (۴)

ساقِی الجريح ومُطعمُ الأسرى ومن

أمِنَت سنابكَ خيله الأشلاءُ (۵)

إنّ الشجاعَةَ فی الرِّجال غلاظةٌ

ما لم تزنها رأفةٌ وسخاءُ

والحربُ من شرف الشّعوب فإن بغوا

فالمجدُ مما يدّعون براءُ

۱- تغشى الغيوب: من غشى المكان أی أتاه.

۲- الآساد: الأسود الهيجاء: الحرب.

۳- الظّبی: جمع ظبّة وهی حدّ السیف المهنّد: السیف الصعدة: القناة المستویة.

۴- المضاء: مصدر مضی السیف مضاء أی قطع.

۵- الأشلاء: جمع شلو وهو العضو من الأعضاء، والأشلاء أیضاً: أعضاء الإنسان بعد البلی والتفرّق.

ص: ۷۵

والحربُ يَبعثُها القوىّ تجبُّراً

وينوءُ تحت بلائِها الضعفاءُ (۱)

كَمْ من غَزاةٍ للرّسول كريمةٍ

فيها رضىً للحقِّ أو إعلاءُ

كانت لجند الله فيها شِدّةٌ

فى إثرها للعالمين رَخاءُ

ضَرَبُوا الضلالةَ ضربةً ذهبت بها

فعَلى الجهالة والضلال عفاءُ

دَعموا على الحرب السلامَ وطالما

حقنت دِماءً فى الزّمان دِماءُ

الحقُّ عِرضُ اللهِ كلّ أبيَّةٍ

بين النّفوس حمىً له ووِقاءُ

هل كان حول محمّد من قومه

إلّا صبىّ واحد ونساءُ

فدعى فلَبَّى فى القبائل عُصبةٌ

مُستَضعفونَ قلائلٌ أنضاءُ (۲)

رَدُّوا ببأس العزم عنه من الأذى

ما لا تَرُدُّ الصخرةُ الصماءُ

والحقُّ والإيمانُ إن صُبّا على

برد ففيه كتيبةٌ خرساءُ (۳)

نَسفوا بناءَ الشرْك فهو خرائبٌ

واستأصلوا الأصنام فهى هباءُ (۴)

يمشونَ تُغضى الأرضُ منهم هيبةً

وبهم حيال نعيمها إغضاءُ

حتّى إذا فُتِحتْ لهم أطرافُها

لم يُطغِهِم تَرَفٌ ولا نعماءُ

يا مَنْ لَهُ عِزُّ الشفاعةِ وحدهُ

وهُو المنَزّهُ ماله شُفعاءُ

۱- ينوء تحتها: يرزح.

۲- العصبة: الجماعة الأنضاء: جمع نضو وهو المهزول من الإبل ونحوها.

۳- البرد: الثوب، الرداء الكتيبة الخرساء: التى لا يسمع فيها صوت.

۴- نسفوا بناء الشرك: هدموه استأصل: اقتلع الشيء من جذوره الهباء: الغبار.

ص: ۷۶

عرشُ القیامَهٔ أنتَ تحت لوائه

والحَوْضُ أنت حیالهُ السَّقاءُ

تروی وتسقی الصالحین ثوابهم

والصالحات ذخائر وجزاءُ (۱)

ألمثل هذا ذُقتَ فی الدّنیا الطّوی

وانشَقَّ مِنْ خلَقٍ علیکَ رداءُ (۲)

لی فی مدیحک یا رسُولُ عرائسٌ

تُیِّمن فیک وشاقُهنّ جلاءُ

هُنّ الحسانُ فإن قبلت تکرماً

فمُهُورُهُنّ شفاعَهٌ حَسناءُ

أنت الذی نَظَمَ البریَّهٔ دینُهُ

ماذا یَقولُ وینظم الشُعراءُ

المُصلِحون أصابعٌ جُمِعت یَداً

هی أنت بل أنت الیَدُ البیضاءُ

ما جئتُ بابکَ مادحاً بل داعیاً

ومن المدیح تضَرُّعٌ ودعاءُ

أدعُوک عن قومی الضِّعافِ لأزمهٍ

فی مثلها یلقی علیک رجاءُ

أدری رسُولُ اللّهِ أن نفوسَهم

رکبت هَواها والقلوب هواءُ

مُتفکِّکون فما تضمُّ نفوسُهم

ثقهً، ولا جَمع القلوب صفاءُ

رقدُوا وغرَّهُمُ نعیمٌ باطلٌ

ونعیمُ قوم فی القُیودِ بلاءُ

ظَلَمُوا شریعتک التی نلنا بها

ما لم ینل فی رومهٔ الفقهاءُ

مشتِ الحضارهُ فی سَناها واهتدی

فی الدِّین والدُّنیا بها السُّعداءُ

۱- الذخائر: المؤن، جمع ذخیرهٔ.

۲- الطوی: الجوع الخلق: من خلق الثوب أی بلی.

ص: ٧٧

صلى عليك الله ما صحِب الدُّجى

حادٍ وحنّت بالفلا وجناءُ (۱)

واستقبل الرضوان فی غُرفاتهم

بجنان عدن آلُكَ السُّمحَاءُ

خيرُ الوسائل مَن يقع منهُمْ على

سَبب إليك فحسبی الزهراءُ

۱- الحادی: سائق الإبل الوجناء: الناقة الشديدة الوثيقة الخلق.

ص: ۷۸

ص: ۷۹

ص: ۸۰

علماء الحرم الشريف، نشر النور والزهر نموذجاً

أ. د. أبوبكر أحمد باقادر

مصادر التاريخ المكى

ربما كانت مدينة مكة من أكثر مدن العالم التى حظيت بالتواريخ والاهتمام بتدوين ما جرى ويجرى فيها. والكتابات التاريخية عن المدن الإسلامية عموماً ومكة خصوصاً ليست على طراز أو أسلوب واحد. بل يمكننا الادعاء بأن هناك أكثر من «جنس كتابى» للتأريخ عن المدن العربية المسلمة. فهناك ما يمكن أن نسميه تاريخ المدينة عبر تاريخ سكانها وهو فن طوره المسلمون واعتنوا به وحظيت مكة بالعديد من كتب التاريخ التى تناولت رجالات وسكان ومجاورى مكة المكرمة. بعض هذه الكتابات يدخل فى كتب التاريخ مباشرة وبعضها فى مجالات قريبة مثل المغازى والسير

وكتب رجالات الحديث والطبقات العلمية عموماً. لكن مكة حظيت مع ذلك بكتب «تاريخية» سجلت أهم رجالاتها، ولعل كتاب «العقد الثمين» وما تلاه من مصنفات تاريخية تواصلت حتى قرون متأخرة جداً لتنتهى بنشر النور والزهر وإفادة الأنام للغازى تمثل هذا «الجنس الكتابى» الهام. وفى هذه المتون التاريخية الهامة، تورد أسماء الشخصيات مبوّبة بحسب الترتيب الأبجدى للاسم الأول مع تفاصيل عن سيرة صاحبها، وتقصر بحسب المتوافر من معلومات.

وهناك ما يمكن أن يسمى بالسجل التاريخى السنوى، وفيه رصد بأهم الوقائع والأحداث والأسماء تذكر مفصلة فى كل عام، وهذا النوع من التسجيل يقدم صورة دينامية حية للوقائع والأحداث التاريخية وربما علّل أسبابها المحلية والدولية، من أمثلة هذه الكتابات كتاب «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» وما تلاه من كتب على منواله. وكما أوضحنا فإن هذا الجنس الكتابى يمكن أن يكون مكمّلًا وموضحاً لجوانب تتخطى مسألة الترجمة للأعيان من علماء ومفكرين وفقهاء، كما هو اهتمام الجنس السابق. ويصور جوانب تفصيلية من حياة المدينة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية مفصلة من عام لآخر، ومن ثم فإنها توفر معلومات عن التحولات والتغيرات التى مرت وتمر بها المدينة.

وهناك جنس كتابى ثالث يهتم بالتأريخ للسياسة ورجالاتها ومن ثم الأحداث السياسية فى حياة المدينة المقدسة، ومن هذه الكتابات كتب «غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام». وهنا نجد بسطاً للسياقات والأوضاع السياسية التى ربما فسرت وجود أشخاص معينين أو قيام مؤسسات ما ونحو ذلك فى مكة.

بالإضافة إلى وجود العديد من الكتابات التى قدمت تراجم لمن تولوا سدة الحكم فى مكة، لعل من أحدثها ما كتبه الدحلان «حكام مكة»، والعديد من الكتب التى لم تكتف بذكر ولاة مكة وإنما أوردت معلومات عن من ولى إمارة الحج من أوطانهم إلى مكة ومن حج من أمراء المؤمنين والخلفاء والسلاطين المسلمين على مر التاريخ. وبذلك يمكن للمطلع على هذه الكتابات التاريخية أن يتزوّد بنظرة تفصيلية تؤكد على حيوية هذه المدينة وحيوية ما يدور فيها، ولو أثناء الموسم.

ومن الكتابات التاريخية ما يمكن تسميته الكتابة التاريخية الشاملة، ومن أبرزها ما دبجته أقلام الأزرقى والفاكهى، انتهاء بالسباعى من تواريخ عامة للحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مكة. ولقد سعى العديد من الأدباء فى مكة فى العقود الأخيرة إلى تسجيل جوانب ثقافية من حياة مكة والمكيين غدت أثراً بعد عين من هؤلاء الرفيع والسباعى والمغربى وسواهم.

ومكة حاضرة بقوة فى العديد من التواريخ الخاصة، مثل كتب الطبقات، وبالذات فى كتب طبقات الفقهاء والمفسرين. فهناك مدارس علمية هامة قامت ولا يزال إشعاعها مستمراً بإذن الله فى هذه العلوم الإسلامية.

ولقد توافرت فى كافة لغات العالم، ومن أبرزها العربية، كتابات شخصية حميمة عن مكة، أسميتها بأدب الحج وهى تدور فى فلك

أدب الرحلة الحجازية، يصور فيها أصحابها رحلتهم «حجهم» إلى هذه المدينة العظيمة. ولن نكون مبالغين إن قلنا: إن هذا الجنس الأدبى/ لثقافى لا يزال جنساً مجهولًا وما نعرفه من أدب الرحلات هو أقل القليل وينبغى بذل جهود كبيرة لاكتشاف ما يمكن أن يقدمه هذا المنجم بالمعلومات. ولا يقتصر الأمر على الكتابة الفصحى الرفيعة، فالأدب الشعبى غنى جداً بما ذكر من أحاسيس ومشاعر ومعلومات عن هذه المدينة الخالدة.

ورغم أن العقود الثلاثة الماضية شهدت نشاطاً مشكوراً لنشر العديد من هذه المدونات التاريخية فى طبعات محققة وتقدم الفهارس الميسرة للباحث أو الدارس، إلا أن هذه الجهود، مع تقديرنا الكبير لها، لاتزال فى أول الطريق والحاجة ماسة جداً لمزيد من التبويب والفهرسة ومن ثم تسهيل توافر المعلومات للباحثين. فكما هو معروف هذه المتون التاريخية بالصورة التى كتبت بها تشكل فقط مادة أولية غنية، لكنها مادة أولية تتطلب التحليل والسير والحفر والأبحاث التاريخية التى تنطلق من أسئلة إشكالية هذه المتون تقدم لها المادة العلمية للإجابة عنها.

وهذه المعلومات، تشتكى كما هو واقع الحال فى حال أى بيانات أولية من النقص وتضارب المعلومات أو تناقضها أحياناً. كذلك بوصفها بيانات أولية، الحاجة ماسة لمقارنتها وضبطها من أجل الوصول إلى ما يسمى «بيانات نوعية» يمكن اعتمادها فى أى تحليل. ولا مانع للوصول إلى ذلك عبر النصوص الواردة فى مظان عديدة أو بالإحالة إلى الشواهد المادية الإشارية ونحو ذلك. وربما كانت الحاجة ماسة من أجل سرعة الحصول على البيانات والمعلومات، أن تدخل فى الحاسوب، بحيث يمكن للباحثين استرجاعها بسهولة عند الطلب من ناحية ومراجعتها فى العديد من المصادر العلمية، ومن ثم الخروج ببيانات موثقة تاريخياً.

تاريخ مكة الثقافى والاجتماعى

رغم وجود العديد من المحاولات لتقديم دراسات تاريخية حديثة عن مكة المكرمة، لكن مع ذلك بإمكاننا القول: إن المكتبة التاريخية المكية لم تظفر بعد بالدراسات الحديثة التى تقدم لمكة نصوصاً تستخدم الأساليب التاريخية الحديثة. وعمليات التحقيب التاريخى، بحيث يمكننا الحديث عن فترات تاريخية قديمة وأخرى وسيطية وحديثة، لا تزال مناطة بالأفكار العامة عن التاريخ الإسلامى، وهى فى ذلك افتراضية وليست دقيقة، تعتمد على شواهد ووثائق تاريخية علمية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الدراسات التاريخية الكمية لم تعرف طريقها بعد بشكل واضح لمعالجة هذه النصوص والمتون التاريخية. فكما هو معروف هناك أساليب ووسائل علمية جديدة تسعى إلى تحويل البيانات والمعلومات الواردة فى المتون التاريخية العامة إلى أرقام، حتى يسهل تبويبها ومن ثم معالجتها. فمثلًا يقدم لنا المؤرخ والباحث الأمريكى فى التاريخ الإسلامى المبكر روبرت بوليه؛ دراسات كمية عن فتوحات بلاد الشام ومصر، وعن طريق هذه المحاولات التاريخية الكمية تمكّن من إبراز العديد من الأسئلة والقضايا من ناحية وتمكن أيضاً من لفت النظر إلى أن عملية الأسلمة تمت تدريجية وأوضح كيفية انتشار اللغة العربية وأمور أخرى عديدة.

ص: ۸۱

وتقدم دراسات مونتجمری وات فی كتابیه: «محمد فی مكة» و «محمد فی المدینة» واستخدامه لبعض هذه المتون والتراجم لدراسة الولاءات القبلیة والصلات الشخصیة فی تفسیر بعض جوانب ما جری فی السیرة النبویة من ناحیة وما تم من تحولات فی المجتمع العربی فی فترة الرسالة. لقد أمدت البیانات وات بمعلومات مهمة لاختیار العدید من الفروض والآراء.

وبغض النظر عن النتائج التی توصل إلیها هؤلاء العلماء، تبقی مسألة الفائدة من استخدام هذه البیانات ملحة للتعرف علی جوانب عدیدة من حیاة المكیین وتاریخ مكة شرفها الله. فهذه البیانات لا یمكن التعامل معها بوصفها بیانات فردیة غیر قابلة للتراكم، أو أن هذه المعلومات عند تراكمها لا یمكن أن تقدم لنا صورة أكثر غنی وعمقاً عما تقدمه من تراجم للأفراد كلًا لوحده!

بالإضافة إلی ذلك، فإن أدوات تصنیف البیانات وترمیزها ومن ثم تحویلها إلی بیانات كمیة أصبح من الأمور المیسورة، بل وهی تستخدم بشكل واسع فی الدراسات التاریخیة. وكما أوضحت فی دراسة سابقة عن السجلات العدلیة بوصفها منهلًا غنیاً وهاماً لكتابة التاریخ الاجتماعی والثقافی، یمكننا أن نعید التأكید نفسه. بل إننا نشهد فی الفترة المتأخرة العدید من الدراسات الرائدة لبعض جوانب حیاة المدن: دراسة الأعیان أو العلماء أو الحیاة الأسریة أو جوانب من الحیاة الاقتصادیة اعتماداً علی السجلات العدلیة أو كتب التراجم. ومما یؤسف له أن من یقومون بهذه الدراسات هم فی غالبیتهم من المستشرقین أو العلماء المحدثین، فلقد وقفوا علی العدید من الدراسات التاریخیة التی قام بها زملاؤهم فی دراساتهم التاریخیة عن أوروبا وخلافها. ولعل مدرسة الحولیات، وبالذات كما هو الحال فی كتابات مؤسسها فردناند جرویل وكتاباته عن البحر الأبیض المتوسط، أو كتابات جوانین عن جنیز العاهرة ومن ثم كتاباته عن الحیاة الاجتماعیة والاقتصادیة لیهود مصر ومن حولهم، من الأمثلة المشهورة والرائدة عن إمكانیات إعادة الفائدة من البیانات الأولیة وأحیاناً المعلومات المتناثرة. إن عملیة إعادة التبویب والتصنیف ومن ثم ربط هذه البیانات ببعضها یفتح آفاقاً واسعة وكبیرة لمزید من التحلیل ومن ثم الإجابة علی أسئلة كبری كان یعتقد لفترة متأخرة جداً أنه لا توجد معلومات أكیدة للإجابة عنها، ومن ثم مال بعض للتخمین أو إصدار أحكام انطباعیة.

ویوضح لنا هارلود موتسكی فی دراسة حدیثة، كیف أن الدراسة الكمیة التفصیلیة، یمكن أن تحسم جدلًا وآراء انطباعیة استمرت قروناً، عندما عالج مسألة مساهمة بعض الموالی فی تأسیس علم الفقه، وكذلك دحض الآراء القائلة بتأثیر الفقه الرومانی عبر النصاری والیهود علی الفقه الإسلامی، انطلاقاً من دور مزعوم لبعض الموالی. وكانت المعالجة متمیزة بالدقة والأناقة والبساطة معاً، لكنها فوق كل ذلك حاسمة.

«نشر النور والزهر فی تراجم أفاضل مكة» مصدر لدراسة دور العلماء

نسعی فی هذه المداخلة لتقدیم كتاب الشیخ عبدالله مرداد أبو الخیر، قاضی مكة والمتوفی عام ۱۳۴۳ ه-، «نشر النور والزهر فی تراجم أفاضل مكة»، وكیف أنه باستخدام أسالیب التاریخ الكمیة یمكن تحویل هذا المصدر التاریخی إلی منجم معلومات هام عن أعمال علماء الحرم المكی تخصیصاً من القرن العاشر إلی القرن الرابععشر.

والنص الذی سنعالجه هنا هو المختصر الذی قام بتبویبه وتحقیقه كلٌ من محمد سعید العامودی وأحمد علی، ولقد تم التحقیق عن مخطوطة لكتاب بمكتبة الشیخ عبدالوهاب الدهلوی. ویحتوی الكتاب علی تراجم (۶۰۵) من علماء مكة المكرمة ومن بین هؤلاء (۳۰) سیدة! وینتمی هؤلاء العلماء الأفاضل إلی المذاهب الفقهیة الأربعة وتعود أصولهم الإثنیة إلی كافة الأعراق الإسلامیة، فهم من العرب والأفارقة ومن كافة أصقاع آسیا شرقاً وجنوباً ووسطاً بل وأقاصی جنوبها وكذلك الحال فی أفریقیا!

والكتاب قدم تراجم مختصرة عن هؤلاء العلماء، وتتفاوت التراجم المقدمة من حیث المادة المقدمة من حیث التفاصیل التی قد تقدم لهذا العالم عن غیره، لكن إجمالًا هناك انتظام فی تقدیم معلومات أساسیة عن الجمیع. وحتی نفید من هذه المعلومات أو بالأصح البیانات الأولیة، سعینا إلی تحدید (۱۴) مدخلًا للمعلومات قمنا بإعداد البرنامج الحاسوبی لترمیزها وإدخالها فیه.

وهـذه المـداخل أو المتغيرات بلغـة العلوم الرياضيـة تشـمل: اسم العـالم وتاريـخ ميلاـده ومكان الميلاد، تاريـخ الوفاة ومكانها، اللقب، الكنيـة، المذهب، قائمة المصـنفات التى ألفها، العلوم التى تعلمها، العلوم التى قام بتدريسـها، أشـهر أساتذته كما ورد فى المتن، أشـهر تلاميذه كما ورد فى المتن، أعماله العامة، أهم الصفات التى اشتهر بها وأخيراً سفريّاته.

بطبيعـة الحال قـد تغيب فى المتن بعض هـذه المتغيرات أو قـد لا تنطبق على المترجم له. لكن بحسب اطلاعنا على تراجم الكتاب كان هناك حرص من المؤلف على ذكر كافة هذه البيانات. ولقد عملنا على إعداد البرنامج الحاسوبى على إدخال كافة التفاصيل الممكنة، لكن بشـكل معيـارى، فمثلًا قـد نكتفى فى ذكر الاـسم بالاسم الرباعى فقط، وفى حالـة عـدم توافر هـذه المعلومـة أو أن المؤلف قـدم تفاصـيل أطول فإننا سنسـعى إلى إكمال النقص من مصادر أخرى، وفى حالـة تقـديم معلومات أطول نكتفى بأربعـة أسـماء فقط! وفى حالـة عـدم توافر معلومـة مـا، مثلًا عـدم تقـديم المـذهب أو اللقب أو الكنيـة صـراحة، فإننا سنسـعى إلى توفيرها من مصادر أخرى، إن أمكن، وفى حالة عدم توافرها سنترك ذلك بدون بيانات.

أمـا بخصوص المصـنفات، فإن المؤلف غالباً ما يقـدم معظم مصـنفات المترجم له، وهى فى مجالات علميـة عديـدة، لـذا فإن البرنامج مصـمم على ذكر كل عنوان لوحـده ثم الإشارة إلى العلم الـذى ينتمى إليه: فقه، توحيـد، تفسـير، أدب، نحو، سـيرة (تاريخ)، تصوف، ونمط، حتى يأخذ أسـماءهم الرباعية منعاً لأى التباس، ومن ثم قد نستعين بالكتاب نفسه فى إكمال ما قد ينقص فى أسماء الأساتذة أو الطلاب.

ولقـد كانت لبعض العلماء مشاركات مهمـة فى الحياة الاجتماعيـة أو السياسـية ولقد أخذنا بهذه المعلومات وقمنا بتبويبها إلى نشاطات مختلفـة تعكس ما كان يجرى فى الساحـة الفكريـة والسياسـية العامة. وكذلك يذكر المؤلف بعض الصـفات الشخصـية للمترجم لهم، عرفوا بها على نطاق واسع فى الأوساط المكية أو العالم الإسلامى أبرزتها لتوضيح الأدوار الثقافية والسياسية لعلماء الحرم الشريف على المستويين الشخصى والعام.

ص: ۸۲

أما رحلات وسفريات هؤلاء العلماء وهى سفريات قام بعضهم بها فقط فكانت مهمة للتعرف على شبكات العلاقات العلمية والسياسية لهؤلاء العلماء الذين كانوا يتنقلون بين أوطانهم التى ولدوا فيها ومكة وعبرها إلى أجزاء مختلفة من العالم، كما هو حال العديد من العلماء الحضارمة مثلًا.

ونظراً لأن المشروع فى مراحله الأولية، فإننى سأقدم وصفاً موجزاً لما يمكن أن يحققه المشروع بإذن الله للدراسات المكية التاريخية. أولًا قمنا بإعداد أداة جمع المعلومات وهى كما ذكرنا فى (۱۴) مدخلًا بحسب ما أوردنا من تفاصيل. وسيقوم فريق البحث بإدخال هذه المعلومات فى الحاسوب ثم مراجعة البيانات التى تم إدخالها للتأكد من صحتها ومطابقتها لما ورد فى المتن الأساس، وهذا يُعرف باختيار جودة البيانات من حيث الصدق والثبات.

بعد ذلك، سنتمكن من الحصول على بيانات تفصيلية عن المترجم لهم بشكل عام من حيث سنوات الميلاد والوفاة وتوزيعهم على المذاهب الفقهية وقائمة بألقابهم وكنياتهم وغير ذلك من معلومات. لكن هذه المعلومات ما هى سوى فهرسة للبيانات الواردة وتبويب وترتيب لها، لكن وجودها الآن بهذه الصورة المنظمة والرقمية سيساعدنا بإذن الله على الإجابة على العديد من الأسئلة، من خلال ما يعرف بالمقاربات والمقابلات بين البيانات noitalubatssorC وهى أمور سهلة ومتعارف عليها عند المختصين، كذلك سنتمكن من التعرف على مشجرات الأسماء والكتب التى قام هؤلاء العلماء بتصنيفها أو دراستها، كما سنوضح.

فمثلًا، سنتمكن من خلال معرفة تواريخ الوفيات وربطها بمتغيرات أخرى معرفة معلومات فى غاية الطرافة والأهمية، فمثلًا بالربط بين تواريخ الوفيات والمذهب الفقهى، يمكننا معرفة أى علماء المذاهب كانوا الأكثر انتشاراً ووجوداً فى عقود مختلفة فى الحرم الشريف عموماً. بمعنى مثلًا بإمكاننا عن طريق هذه التواريخ فى كل قرن: العاشر، الحادىعشر، الثانىعشر، الثالثعشر، الرابععشر، معرفة الحرم كم كان عدد علماء السادة الأحناف، الشافعية، المالكية، الحنبلية، فى هؤلاء العلماء.

وانطلاقاً من ذلك يمكننا تقدير تبعات ذلك الفكرية والسياسية والعلمية وأثر ذلك على التفاعل والتنافس بين هؤلاء العلماء. بل يمكننا أن نقدر الأمر حتى بحسب العقود ومن ثم معرفة هذه الأعداد فى تفاوتها بين فترة وأخرى ومن ثم إمكانية تفسير ذلك بحسب تاريخ مكة وما وقع فيها من أحداث أو النظام السياسى السائد، وكذلك نوعية التدخلات الخارجية والسياسية الدولية، خاصة وأننا نتناول حقبة كان الاستعمار وتدخله فيها معروفاً فى أحوال العالم الإسلامى!

ويمكننا فعل الشيء نفسه بخصوص العلاقة بين مذهب المترجم له ونوعية المصنفات التى ألفها وكذلك التى تعلمها أو قام بتدريسها، ومن خلال المقارنات يمكننا التعرف على اهتمام علماء المذاهب المختلفة العلمية، بحيث يمكننا الإجابة على أسئلة مثل: هل كان الأحناف أكثر العلماء اهتماماً بالدراسات الفقهية؟ وما هى أهم المصادر العلمية التى يقبلون عليها عبر القرون؟ وما هى المصنفات التى صنفوها؟ بل يمكننا إجمالًا الربط بين نوعية الكتب المصنفة أو المدروسة أو المدرّسة بحسب تواريخ الوفيات، لتقدير فترات الانتعاش الفكرى أو انحساره فى حياة الحرم الشريف العلمية ومحاولة تفسير ذلك بحسب الظروف السياسية والثقافية والاقتصادية السائدة آنذاك على المستويين: المحلى والدولى.

ويمكننا الربط بين اللقب والكنية والمذهب لمعرفة من أى الخلفيات الاجتماعية والإثنية هؤلاء العلماء؟ هل الأحناف فى غالبيتهم من شبه القارة الهندية ووسط آسيا والأناضول؟ هل السادة الشافعية من اليمن وإندونيسيا ومصر؟ وهكذا. والعمل على معرفة دلالات ذلك على المستوى الاجتماعى والثقافى. بل أحياناً قد تساعدنا البيانات نفسها كما وجدت إلى أنه داخل المذهب الواحد هناك تفاصيل تستحق الدراسة والتفصيل. فمثلًا بين الشافعية نجد نوعاً من تقسيم العمل. فالسادة العلويون من الشافعية الحضارمة يميلون إلى الاهتمام بتدريس السيرة والمواعظ الدينية والتصوف، بينما يميل الحضارمة الشافعية من غير السادة العلويين إلى الفقه والقضاء، ينافسهم فى ذلك الشافعية المصريون، أما الشافعية الأندونيسيون فإنهم يهتمون فى الغالب بدراسة وتدريس اللغة والأدب العربى، وهكذا نجد إذن

تفاصيل يمكن أن تفسر ديناميات الاهتمامات التي يقوم العلماء بتدريسها والاهتمام بها.

أما الربط بين المترجم لهم وأساتذتهم فإن هذا الربط سيساعد جداً على التعرف على ما يمكن أن يسمى سلاسل العلماء ومدارسهم، وهي ستمكن من الإجابة عن من علّم منه؟ وبربطها بالمذهب يمكننا الإجابة عما إذا كان التعليم مقتصراً في مجال معرفي أو كافة المجالات المعرفية داخل مذهب واحد أم أكثر؟!

بل وبالإمكان التعرف على مدى استمرارية حلقة أو سلسلة تعليمية عبر الزمان، والإجابة على الكيفية التي تواترت فيها هذه السلسلة من العلماء وما هي العوامل التاريخية: الاجتماعية أو السياسية التي حالت أو ساعدت على الاستمرار. وفي هذا الخصوص تصبح العوامل الداخلية والخارجية مهمة في فهم ما يجرى على الساحة العلمية الفكرية والتفاعلات المستمرة بين هذه الآفاق.

أما مهام العلماء وهي وإن كانت محدوة في معظم الأحيان بمهام تدريسية أو قضائية أو لعب بعض الأدوار في الحياة السياسية والثقافية المحلية، لكن في بعض الأحيان قد تأخذ شكل سفارات للتدخل في سياسات بعض الدول العربية أو الإسلامية. فإن هذه المهام ستوضح الأدوار التي لعبها العلماء في حياة مجتمعهم وتأثيرهم فيه وأهمية هذا التأثير. فكما هو معروف للعديد من هؤلاء العلماء طلاب ومريدون من أصحاب المهن والتجار وهؤلاء يشكلون بشكل ما جمهور المثقفين في تلك الفترات التاريخية، ومن المفيد معرفة المعلومات لفهم ومعرفة ما يجرى على الساحة الفكرية والاجتماعية المكية.

أما سفريات العلماء وشبكات العلاقات فيما بينهم فإنها إن ربطت بالمذهب والكنية فإنها ستوضح مجالات التأثير السياسي والثقافي لهؤلاء العلماء في حياة الأمة آنذاك، وكذلك ربما قدمت لنا معلومات عن أدوارهم في معارك الاستقلال والتحرير من ربقة الاستعمار. كذلك توضح من هذه الارتباطات مدى التداخل بين مدرسة الحرم الشريف مع غيرها من مدارس فكرية في العديد من الأقطار الإسلامية وأهمية ذلك في معرفة ودراسة الحركة العلمية والفكرية العامة.

ص: ۸۳

أما ما يقدمه كتاب «نشر النور والزهر» عن الفاضلات من علماء الحرم الشريف فإنه يشكل صفحة ناصعة ومشرفة من تاريخنا العلمى والاجتماعى تستحق الإشادة والفخر. فلقد توافر فى المسجد الحرام ومكة إجمالًا زمن كانت فيه حلقات علم ودرس للمرأة ولقد توصلت بعضهن إلى مستويات رفيعة من العلم والمعرفة جعلت مؤرخاً مثل السيد عبدالله مرداد أبو الخير يضع لهن مكانة ومنزلة فى تراجمه للعلماء وأفاضل مكة. وبطبيعة الحال ربط هؤلاء النساء من حيث تواريخ الوفيات أو المذهب أو الكنية سيساعد على معرفة أى المذاهب عنيت بتعليم المرأة وتشجيعها على النبوغ والتبريز؛ وكذلك أى الخلفيات الإثنية، هل للعربيات دور أم كل الدور لغير العرب؟ إن وجود الطبريات وبهذا الزخم يدل إضافة إلى كل ذلك على وجود تقاليد عائلية ربما امتدت لقرون فى شأن تعلم المرأة ورقيها.

أما معرفة ما اهتمت المرأة بتعلمه وتعليمه وأشهر التلاميذ والأساتذة فإن هذه الارتباطات تمكننا من إبراز وفهم ما يمكن أن نسميه المدرسة النسائية المكية. وكيف أن أوضاع المرأة فى القرون الماضية على قلة المعلومات المتوافرة لم تكن كلها جهلًا وأمية كما هو سائد، وربما مزيد من البحث والتنقيب ستفرج عنه تفاصيل أوسع وأكبر عن المرأة وأدوارها العلمية والفكرية المختلفة.

وهكذا فإن عملية تكميم البيانات يمكن أن تساعد على فتح آفاق جديدة والإفادة القصوى من بيانات فردية متقطعة مجزأة.

نأمل أن نتمكن من إتمام مشروعنا هذا، الذى لا ـ تقف فى طريقه سوى بعض الصعاب المالية والفنية التى نرجو أن نتجاوزها فى القريب. آملين بعرضنا المتواضع هذا أن نكون قد أبرزنا جانباً من جوانب خدمة تراث مكة، وأملنا أن توسع المشاريع لتشمل الموسوعات الكبرى فى تاريخ مكة كالعقد الثمين.

ص: ۸۴

أوّل بيت

رافد الفاضل

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ). (۱)

إنه الأول في الموقع الأهم، والأول في الخير والعطاء، والأول في أماكن العبادة وبيوتها، إنه المسجد الحرام، ذلك المكان المقدس الواقع في قلب الدنيا في قلب مكة المكرمة، قلب الحرم المكي، القلب النابض الذي تتوسّطه الكعبة المشرفة، قبلة المسلمين أينما كانوا، ومركز شعائرالله الأخرى التي يقوم بها الناس في الحج والعمرة.. إنه أرض الله الحرام المباركة وآياته البينات التي راحت تشكل بمجموعها بيت الله المخصّص للعبادة للطائفين والعاكفين والركع السجود حيث فرض الله الحج إليه لمن استطاع إليه سبيلًا.. وجعله مباركاً وجعله هدى للعالمين، وهو بالتالي بيت مبارك تضاعف فيه الحسنات، وتتنزل فيه الرحمات، وتتعاظم فيه الدرجات وبيت صلاح وهداية للناس أجمعين.. وهو مثابة الأمن للخائفين (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) منذ أن بناه خليل الله إبراهيم وإسماعيل ٨.

«فهذا هو البيت كما يقول سيد قطب الذي اختاره الله للمسلمين قبلة.. وهو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة. وهو أول بيت أقيم في الأرض للعبادة. وهو بيت أبيهم إبراهيم، وفيه شواهد على بناء إبراهيم له. والإسلام هو ملة إبراهيم. فبيته هو أولى بيت بأن يتجه إليه المسلمون. وهو بمثابة الأمان في الأرض. وفيه هدى للناس، بما أنه مثابة هذا الدين ...».

وأما الشيخ المكارم فيقول: «فلا عجب إذن أن تكون الكعبة قبلة للمسلمين، فهي أول مركز للتوحيد، وأقدم معبد بني على الأرض ليعبد فيه الله سبحانه ويوحّد، بل لم يسبقه أي معبد آخر قبله، إنه أول بيت وضع للناس ولأجل خير المجتمع الإنساني في نقطة من الأرض محفوفة بالبركات، غنية بالخيرات، وضع ليكون مجتمع الناس، وملتقاهم ...».

إن المصادر الإسلامية والتاريخية والقول ما زال للشيخ تحدثنا بأن الكعبة تأسّست على يدي آدم ۷ ثمّ تهدمت بسبب الطوفان الذي وقع في عهد النبي نوح، ثمّ جدد بناءها النبي العظيم إبراهيم الخليل ۷؛ فهي إذن عريقة عراقة التاريخ البشري.

ولاشكّ أن اختيار أعرق بيت اسس للتوحيد من أجل أن يكون قبلة للمسلمين، أولي وأفضل من اختيار أية نقطة أُخرى وأي مكان آخر.

هذا، وممّا يجدر الانتباه إليه هو أن (الكعبة) والتي تسمى في تسمية أُخرى ب- (بيت الله) وصفت في هذه الآية بأنها (بيت للناس)، وهذا التعبير يكشف عن حقيقة هامة وهي: أن كلّ ما يكون باسم الله ويكون له، يجب أن يكون في خدمة الناس من عباده، وأن كلّ ما يكون لخدمة الناس وخير العباد فهو لله سبحانه.

كما تتضح ضمن ما نستفيده من هذه الآية قيمة الأسبقية في مجال العلاقات بين الخلق والخالق، ولذلك نجد القرآن يشير في هذه الآية إلى أسبقية الكعبة على جميع الأماكن الأُخرى، وإلى تاريخها الطويل الضارب في أعماق الزمن، معتبراً ذلك أول وأهم ما تتسم به الكعبة من الفضائل والمزايا ...» وسنذكر بعض أقوال المفسرين في الآتي. (۲)

و يقول الكاتب الحجازي عمر المضواحي ذو الاهتمام بالكتابة عن الأماكن المقدسة وتاريخها:

۱- آل‌عمران: ۹۶.

۲- انظر في ظلال القرآن وتفسير الأمثل: الآية.

ص: ۸۵

إن من أسرار الكعبة أنها صرة الأرض وموصولة بالبيت المعمور فى السماء السابعة، وأول بيت وضع للناس بناه إبراهيم وابنه إسماعيل ۸ وليس هناك فى الكون بقعة أكثر مهابة وقدسية من هذه الحجرة المكعبة..

وعن موضوع العبادة والكعبة يقول:.. لم تعبد فى تاريخها من دون الله قط، فقد كان العرب يعبدون الأصنام والأوثان حولها ولم يخصوها أبداً بالعبادة، حجّ إليها كل الأنبياء، ومجرد النظر إليها عبادة تعادل أجر عابد فى غير مكة.

ثم يضيف المضواحى عما سجله قلمه عن هذه البقعة التى توصف بأنها قدس الأقداس الإسلامية:

حول الكعبة ثلاثة أسرار لا يوجد مثيل لها فى الأرض، الحجر الأسود، ومقام إبراهيم، وهما ياقوتتان من يواقيت الجنة، وبئر زمزم وهو نهر من أنهار الجنة ينبع عينه المتدفق من تحت أعتاب الحجر الأسود.

بحث لغوى فى الآية الكريمة

اللغة: بكة: لغة فى مكة وسميت مكة لأنها قليلة الماء تقول العرب: مك الفصيل ضرع أمه وأمكه إذا امتص ما فيه من اللبن. وفى القاموس ما يدل على أنها سميت بذلك لأنها تمك الذنوب أى تمحوها وتزيلها. وذكروا أيضاً: أن أصل بكة البك وهو الزحم، يقال: بكه يبكه بكاً إذا زحمه ويباك الناس إذا ازدحموا فيها قال:

إذا الشريب أخذته الاكه

فخله حتى يبك بكه

فبكة مزدحم الناس للطواف وهو ما حول الكعبة من داخل المسجد الحرام. وقيل: سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تذلهم وتهلكهم إذا ألحدوا فيها بظلم ولم يمهلوا.

هذا وإن اشتقاق مكة يجوز أن يكون كاشتقاق بكة وإبدال الميم من الباء كقوله: «ضربة لازب ولازم»، ويجوز أن يكون من قولهم: أمتك الفصيل ما فى ضرع الناقة إذا مص مصاً شديداً حتى لا يبقى منه شيء، ومك المشاش مكاً إذا تمشش بفيه فسميت مكة بذلك لقلة مائها ..

وأصل البركة الثبوت من قولهم برك بروكاً أو بركاً إذا ثبت على حاله، فالبركة ثبوت الخير بنموّه، ومنه البركة شبه الحوض يمسك الماء لثبوته فيه، ومنه قول الناس: تبارك الله لثبوته لم يزل ولا يزال وحده.

وقفة إعرابية مع الآية:

(إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ).

كلام مستأنف مسوق للدلالة على أن أول مسجد وضع للناس هو المسجد الحرام ثم البيت المقدس، وأول من بناه إبراهيم ۷.

وإنّ واسمها وبيت مضاف إليه، ووضع فعل ماض مبنى للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره: هو، وللناس جار ومجرور متعلقان بوضع، والجملة صفة لبيت، وللذى اللام المفتوحة هى المزحلقة، والذى اسم موصول فى محل رفع خبر إن، وببكة جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول، ومباركاً حال من اسم الموصول أو من الضمير المستكن فى متعلق الجار والمجرور، وهدى عطف على مباركاً، وللعالمين جار ومجرور متعلقان بهدى، أى هادياً لهم (۱)..

وذكروا فى أسباب النزول

تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة. وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل. فأنزل الله تعالى هذه الآية (۲)

الآية وأقوال المفسرين

قبل أن نتعرض إلى بعض أقوال المفسرين نلقى ضوءاً بسيطاً على مفردات الآية المباركة؛ فالآية تتوفر على خصائص رائعة هى صفات

للبيت فإضافة إلى أنه وصف بأول بيت ظهر على وجه الأرض فيما يحمله من مزايا عالية وأهداف سامية وفضائل عظيمة، راح يتحلى بمزايا أخرى وهى كونه (مباركاً) والبركة تعنى لغةً النماء والخير والزيادة والسعادة والرفعة، ونظراً لعدم وجود تحديد لها فهى واسعة ولعدم وجود ما يخصصها بنوع فهى تشمل المعنوية والمادية.. وكونه (هدى للعالمين) والهدى لغة الرشاد والطريق والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وهنا يجد الإنسان ما يدلّه على دين الله ومغفرته ورضوانه ...

۱- انظر: تفسير مجمع البيان وإعراب القرآن الكريم.

۲- انظر: أسباب النزول للواحدى: الآية.

ص: ۸۶

وقـد اختلفت الأقوال بين كونه أول بيت وضع للناس، يعبد الله فيه مباركاً وهدى للعالمين ببكة وبين أنه هو أول بيت وضع فى الأرض، وقيل: قبلها بألفى عام، وكانت زبـدة بيضاء على الماء لأنه قـد كانت قبله بيوت كثيرة. وبين أنه خلق قبل جميع الأرضـين، أو عنـد خلق السماء والأرض، ثم دحِيت الأرضون من تحته. أو هو موضع الكعبة، موضع أوّل بيت وضعه الله فى الأرض.

فقـد روى عـن على بن الحسـين ٧: أن الله تعـالى وضـع تحت العرش بيتـاً وهـو الـبيت المعمـور، وأمر الملائكـة أن يطوفـوا به، ثم أمر الملائكـة الـذين هم سـكان الأرض أن يبنوا فى الأرض بيتاً على مثاله وقدره، فبنوا واسـمه الضـراح، وأمر مَنْ فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

وروى أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفى عام، وكانوا يحجّونه، فلما حجه آدم، قالت الملائكة: بر حجك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألف عام، ويرُوى عن ابن عباس أنه قال: أراد به أنه أول بيت بناه آدم فى الأرض، وقيل: هو أول بيت مبارك وضع فى الأرض هـدى للناس، يروى ذلك عن على بن أبى طالب ٧، قال الضـحاك: أول بيت وضع فيه البركة. وقيل: أول بيت وضع للناس يحج إليه. وقيـل: أول بيت جعـل قبلـة للنـاس. وقال الحسن والكلبى: معناه: أول مسـجد ومتعبـد وضع للناس يعبـد الله فيه كما قال الله تعالى: (فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ) يعنى المساجد.

وبعـد هـذه الإشـارات المختصـرة نقرأ مـا يقوله كـل من صـاحب الميزان وتفسـير الأمثل بخصوص أنه أول بيت وكونه مباركاً وهـدى للعالمين.

السيد الطباطبائى فى ميزانه

و المسـتفاد من الآية إن أول بيت أنهم جمعوا فى شبهتهم بين شبهة النسخ وبين انتساب الحكم إلى ملة إبراهيم فيكون محصل الشبهة: أن الكعبـة كيف يمكن أن يكون قبلـة فى ملـة إبراهيم مع أن الله جعـل بيت المقـدس قبلـة، وهل هـذا إلا القول بحكم نسـخى فى ملة إبراهيم الحقة مع كون النسخ محالًا باطلًا؟

و الجواب: إن الكعبـة موضوعـة للعبادة قبل غيرها كبيت المقـدس فلقد بناها إبراهيم من غير شك ووضـعها للعبادة، وفيها آيات بينات تدل على ذلك كمقام إبراهيم، وأما بيت المقدس فبانيه سليمان وهو بعد إبراهيم بقرون.

قوله تعـالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ) إلى آخر الآيـة، البيت معروف، والمراد بوضع البيت للناس وضـعه لعبادتهم وهو أن يجعلوه ذريعة يتوسل به إلى عبادة الله سبحانه، ويستعان به فيها بأن يعبد الله فيه، وبقصده والمسير إليه وغير ذلك، والدليل على ذلك ما يشـتمل عليه الكلام من كونه مباركاً وهدى للعالمين وغير ذلك، ويشعر به التعبير عن الكعبة بالذى ببكة فإن فيه تلويحاً إلى ازدحام النـاس عنـده فى الطواف والصـلاة وغيرهمـا من العبـادات والمناسك، وأما كونه أول بيت بنى على الأرض ووضع لينتفع به الناس فلا دلالة على ذلك من جهة اللفظ.

و المراد ببكة أرض البيت سـميت بكة لازدحام الناس فيها، وربما قيل: إن بكة هى مكة، وأنه من تبديل الميم باء كما فى قولهم: لازم ولازب وراتم وراتب ونحو ذلك، وقيل: هو اسم للحرم، وقيل: المسجد، وقيل: المطاف.

و المباركة مفاعلة من البركة وهى الخير الكثير، فالمباركة إفاضة الخير الكثير عليه وجعله فيه، وهى وإن كانت تشمل البركات الدنيوية والأخرويـة، إلا أن ظاهر مقابلتها مع قوله: (هُـدىً لِلْعالَمِينَ) أن المراد بها إفاضـة البركات الدنيويـة وعمدتها وفور الأرزاق وتوفر الهمم والدواعى إلى عمرانه بالحج إليه والحضور عنده والاحترام له وإكرامه فيؤول المعنى إلى ما يتضمنه قوله تعالى فى دعوة إبراهيم:

(رَبَّنا إِنِّى أَسْـكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (١).

وكونه هـدى هو إراءته للناس سـعادة آخرتهم، وإيصاله إياهم إلى الكرامة والقرب والزلفى بما وضـعه الله للعبادة، وبما شـرع عنده من

أقسام الطاعات والنسك ولم يزل منذ بناه إبراهيم مقصداً للقاصدين ومعبداً للعابدين ...

فهو هدى بجميع مراتب الهداية آخذة من الخطور الذهنى إلى الانقطاع التام الذى لا يمسه إلا المطهرون من عباد الله المخلصين.

على أنه يهدى عالم المسلمين إلى سعادتهم الدنيوية التى هى وحدة الكلمة وائتلاف الأمة وشهادة منافعهم، ويهدى عالم غيرهم بإيقاظهم وتنبيههم إلى ثمرات هذه الوحدة وائتلاف القوى المختلفة المتشتتة.

ومن هنا يظهر أولًا: أنه هدى إلى سعادة الدنيا والآخرة كما أنه هدى بجميع مراتب الهداية، فالهداية مطلقة.

وثانياً: أنه هدى للعالمين لا لعالم خاص وجماعة مخصوصة كآل إبراهيم أو العرب أو المسلمين؛ وذلك لما فيه من سعة الهداية.

الشيخ المكارم الشيرازى فى أمثله

«المبارك» يعنى كثير الخير والبركة، وإنما كانت الكعبة المعظمة مباركة لأنها تعتبر بحق واحدة من أكثر نقاط الأرض بركة وخيراً، سواء الخير المادى، أم المعنوى.

۱- إبراهيم: ۳۷.

ص: ۸۷

وأمـا البركات المعنويـة التى تتحلى بها هـذه الأرض وهـذه المنطقـة من اجتماع الحجيـج فيها، وما ينجم عن ذلك من حركـة وتفاعل ووحدة، وما يصحبه من جاذبية ربانية تحيى الأنفس والقلوب وخاصة فى موسم الحج فمما لا يخفى على أحد.

ولو أن المسـلمين لم يقصـروا اهتمامهم فى موسم الحـج على الجانب الصورى لهـذه الفريضـة بل أحيوا روحها، والتفتوا إلى فلسـفتها، لاتضحت حينذاك البركات المعنوية، وتجلت للعيان أكثر فأكثر، هذا من الناحية المعنوية.

وأما من الناحيـة الماديـة، فإن هـذه المدينـة رغم أنها أقيمت فى أرض قاحلـة لا ماء فيها ولا عشب، ولا صـلاحية فيها للزراعـة والرعى بقيت على طول التاريخ واحدة من أكثر المدن عمراناً وحركة، وكانت دائماً من المناطق المؤهلة خير تأهيل للحياة، بل وللتجارة أيضاً.

أجل، إن الكعبـة هـدى للعالمين فهى تجتـذب الملايين من الناس الـذين يقطعون إليها البحار والوهاد، ويقصـدونها من كلّ فـج عميق ليجتمعوا فى هـذا الملتقى العبادى العظيم، وهم بـذلك يقيمون هـذه الفريضـة فريضـة الحـجّ التى لم تزل تؤدى بجلال عظيم منذ عهد الخليل ۷.

ولقـد كانت هـذه البنيـة معظمة أبداً حتّى من قبل العرب الجاهليين، فهم كانوا يحجون إليها وإن مزجوا مناسك الحجّ ببعض خرافاتهم وعقائـدهم الباطلـة، إلّا أنهم ظلوا أوفياء لهـذه المناسک على أنها دين إبراهيم، وقـد كان لهـذه المناسک والمراسم الناقصـة، والخليطة أحياناً بالخرافات الجاهلية، أثرها فى سـلوكهم، حيث كانوا يرتدعون بسببها عن بعض المفاسد بعض الوقت، وهكذا كانت الكعبة سبباً للهداية حتّى للوثنيين ...

إن لهذا البيت من الجواذب المعنوية ما لا يستطيع أى أحد أن يقاومها ويصمد أمام تأثيرها الأخّاذ.

إن فى هذا البيت معالم واضـحة وعلائم ساطعة لعبادة الله وتوحيده، وفى تلك النقطة المباركة من الآثار المعنوية ما يبهر العيون ويأخذ بمجامع القلوب. وإن بقاء هذه الآثار والمعالم رغم كيد الكائدين وإفساد المفسدين الذين كانوا يسعون إلى إزالتها ومحوها لَمن تلك الآيات التى يتحدث عنها القرآن فى هذا الكلام العلوى.

الكعبة والروايات

هذه مجموعة من الروايات التى تلقى بظلالها على هذا المكان المبارك رأينا ذكرها كما هى من مصادرها الحديثية:

۱- روى أنه إنما سـميت كعبة لأنها مربعة، وصارت مربعة لأنها بحذاء البيت المعمور وهو مربع، وصار البيت المعمور مربعاً لأنه بحذاء العرش وهو مربع، وصـار العرش مربعـاً، لأـن الكلمات التى بنى عليها الإسـلام أربع وهى: سـبحان الله، والحمـد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

۲- ووضع الـبيت فى وسـط الأـرض لأـنه الموضع الـذى من تحته دحيت الأـرض، وليكون الفرض لأهـل المشـرق والمغرب فى ذلك سواء.

۳- وفى الدر المنثور، أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق الشعبى عن على بن أبى طالب ۷، فى قوله: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ)، قال: كانت البيوت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله.

وعن ابن شهرآشوب عن أمير المؤمنين ۷، فى قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ...) فقال له رجل: أهو أول بيت؟ قال: لا قـد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، فيه الهـدى والرحمـة والبركـة. وأول من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهـم، ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبناه قريش.

۴- عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى على ۷ فقال: ألا تحدِثنى عن البيت: أهو أول بيت وضع فى الأرض؟

قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. وذكر تمام الخبر فى كيفية بناء إبراهيم البيت.

۵- عن سماك، عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى علىّ ۷ فقال: ألا تخبرنى عن البيت؟ أهو أول بيت وضع فى الأرض؟

فقال: لا، ولكنه أول بيت وضع فى البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً.

۶- وفى رواية عن أبى عبدالله الصادق ۷ قال: موضع البيت بكة، والقرية مكة.

وفى العلل، عن الصادق ۷: موضع البيت بكة، والقرية مكة.

وفيه، أيضاً عنه ۷: إنما سميت بكة بكة لأن الناس يبكون فيها.

أقول: يعنى يزدحمون.

وفيه، عن الباقر ۷: إنما سميت مكة بكة لأنه يبك بها الرجال والنساء، والمرأة تصلى بين يديک، وعن يمينک، وعن شمالك ومعك ولا بأس بذلك إنما يكره ذلك فى سائر البلدان.

ص: ٨٨

و فيه، عن الباقر ۷ قال: لما أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه فى موضع البيت ثم جعله جبلًا من زبد ثم دحى الأرض من تحته، وهو قول الله: إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً، فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها.

٧- عن أبى ذَر، رضى الله عنه، قال: «قلت: يا رسول الله، أى مسجِد وضع فى الأرض أول؟

قال: «المسجِد الحرام».

قلت: ثم أى؟ قال: «الْمسجِد الأقصى». قلت: كم بينهما؟

قال: «أربعون سنة».

قلت: ثم أى؟

قال: ثُم حيث أدركت الصلاةَ فَصل، فكلها مسجد».

٨- أخبرنا إبراهيم بن يزيد التيمى، عن أبيه، قال سمعت أبا ذر يقول: قلت: يا رسول الله! أى مسجد وضع فى الأرض أولًا؟

قال: «المسجد الحرام، قلت: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتْكَ الصلاة بعد فصل، فإن الفضل فيه».

٩- عن ابن عباس قال: مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى البطحاء.

وأما بخصوص ما ورد فى بعض الروايات عن دحو الأرض من تحت الكعبة، فالسيد الطباطبائى يذهب الى عدم مخالفتها للكتاب حيث يقول: والأخبار فى دحو الأرض من تحت الكعبة كثيرة، وليست مخالفة للكتاب، ولا أن هناك برهاناً يدفع ذلك غير ما كانت تزعمه القدماء من علماء الطبيعة أن الأرض عنصر بسيط قديم، وقد بان بطلان هذا القول بما لا يحتاج إلى بيان.

ثم يقول: «و هذا تفسير ما ورد من الروايات فى أن الكعبة أول بيت، أى بقعة فى الأرض، وإن كان الظاهر من الآية ما تشتمل عليه الروايتان.. أى رواية ابن شهر آشوب ورواية الدر المنثور المذكورتان أعلاه».

الكعبة والطواف

فى أخبار مكة حديث منسوب إلى محمد بن على بن الحسين: وفى الأعلام حدثنا الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الحسين بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب: أنه قال: «كنت مع أبى على بن الحسين بمكة فبينما هو يطوف بالبيت وأنا وراءه إذ جاءه رجل شرجع من الرجال يقول طويل، فوضع يده على ظهر أبى، فالتفت أبى إليه فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول الله، إنى أريد أن أسألك، فسكت أبى وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من أسبوعه، فدخل الحجر، فقام تحت الميزاب، فقمت أنا والرجل خلفه فصلى ركعتى أسبوعه ثم استوى قاعداً، فالتفت إلىّ، فقمت فجلست إلى جنبه، فقال: يا محمد! فأين هذا السائل؟ فأومأت إلى الرجل، فجاء فجلس بين يدى أبى فقال له أبى: عم تسأل؟ قال: أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت لم كان وأنى كان وحيث كان وكيف كان؟ فقال له أبى: نعم من أين أنت؟ قال: من أهل الشام، قال: أين مسكنك؟ قال: فى بيت المقدس قال: فهل قرأت الكتابين؟ يعنى التوراة والإنجيل قال الرجل: نعم قال أبى: يا أخا أهل الشام! احفظ ولا تروين عنى إلا حقاً؛ أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً فقالت الملائكة: أى رب أخليفة من غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون، ويتباغضون ويتباغون؟ أى رب اجعل ذلك الخليفة منا فنحن لا نفسد فيها، ولا نسفك الدماء، ولا نتباغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، ونطيعك، ولا نعصيك. فقال الله تعالى: إنى أعلم ما لا تعلمون قال: فظنت الملائكة أن ما قالوا رداً على ربهم عز وجل وأنه قد غضب من قولهم، فلاذوا بالعرش، ورفعوا رؤوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرعون، ويبكون إشفاقاً لغضبه وطافوا بالعرش ثلاث ساعات، فنظر الله إليهم فنزلت الرحمة عليهم، فوضع الله تعالى تحت العرش بيتاً على أربع أساطين

من زبرجد وغشاهن بياقوتة حمراء، وسمى ذلك البيت الضراح، ثم قال الله تعالى للملائكة: طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش، قال: فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش وصار أهون عليهم من العرش، وهو البيت المعمور الذى ذكره الله عز وجل، يدخله فى كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبداً، ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال لهم: أبنوا لى بيتاً فى الأرض بمثاله وقدره، فأمر الله سبحانه من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، فقال الرجل: صدقت يا ابن بنت رسول الله ۹ هكذا كان» (۱).

الكعبة موقعاً وتأريخياً

نبدأ أولًا بذكر موقع الكعبة المشرفة، فهى أصل مدينة مكة المكرمة، وتقع فى وسط المسجد الحرام على شكل حجرة كبيرة مرتفعة البناء مربعة الشكل، ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً، ثم نشأت حول البيت الحرام مدينة مكة المكرمة التى صارت موطن قبيلة قريش الكبرى التى تضم ثلاثاً وعشرين قبيلة عربية ذرية إسماعيل ۷، كما تقع الكعبة المشرفة فى المركز الوسط للكرة الأرضية، ويعلوها فى السماوات العلى البيت المعمور الذى تطوف حوله الملائكة.

۱- انظر: أخبار مكة للأزرقى ۳۳: ۱- ۳۴

ص: ۸۹

إن مكة المكرمة تقع غرب الحجاز فی أرض محاطة بالجبال من جميع جهاتها، ولا يوجد لها سوى أربع مداخل، هی المدخل الشمالی الشرقی، ويفضی إلی وادی منی، والمدخل الشمالی الغربی ويفضی إلی وادی فاطمة، والمدخل الجنوبی ويؤدی إلی اليمن، والمدخل الغربی ويؤدی إلی سيناء جدة.

وتحدث المصادر الإسلامية والتاريخية أن الكعبة أسسها آدم ٧ وهناك من يذهب إلی أن الملائكة التی لم تنقطع عن زيارتها أبداً منذ بذرتها الأولی واستمرت زياراتها لهذه البقعة الطاهرة حتی ورد عن ابن عباس:

«أن جبريل ٧ وقف علی رسول الله ٩ وعليه عصابة حمراء قد علاها الغبار فقال له رسول الله ٩:

ما هذا الغبار أری علی عصابتك أيها الروح الأمين؟

قال: إنی زرت البيت فازدحمت الملائكة علی الركن، فهذا الغبارالذی تری مما تثير بأجنحتها» (۱).

فالملائكة هم الذين قاموا ببناء الكعبة فی هذا المكان بأمر السماء وبعد أن أذن لهم الله تعالی بذلك قبل خلق الإنسان مما يدل علی عراقة تاريخها وأنها تعرضت للتهديم بسبب الطوفان الذی وقع فی عهد النبی نوح ٧ فجددها إبراهيم الخليل ٧. ومن الجدير ذكره أن الكعبة جدد بناؤها اثنتی عشرة مرة.

لقد ظلت الكعبة المباركة مندثرة زمناً تحت الرمال، حتی عيّن الله سبحانه وتعالی موقع البيت لسيدنا إبراهيم ٧ وساعده فی عمارتها سيدنا إسماعيل ٧، وكان ذلك منذ قرابة أربعة آلاف عام، وبناء سيدنا إبراهيم يعتبر البناء الثانی للكعبة المشرفة، حيث ورد فی القرآن الكريم أن سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل رفعا قواعد البيت، مما يدل علی أنه كان موجوداً من قبل ذلك، وهو البناء الذی شيده الملائكة المكرمون؛

ويصف أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقی الكعبة التی بناها إبراهيم ٧ بأنها كانت بناء ذا جوانب أربعة، ارتفاعها تسعة أذرع وكان بابها إلی الأرض، وجعل سيدنا إبراهيم ٧ فی جدارها حجراً أسود علامة علی بداية الطواف حولها، ثم أمر الله تعالی نبيه إبراهيم ٧ بأن يؤذن فی الناس بالحج، وقد أسمع الله تعالی جميع خلقه هذا النداء.. وتفضل الله سبحانه وتعالی فجعل هذا البيت حرماً طاهراً آمناً يلجأ إليه الناس ويأمنون فيه علی أنفسهم. وأصبحت الكعبة بعد السنة الثانية من الهجرة النبوية الشريفة قبلة المسلمين، يتجهون إليها فی صلاتهم.

هذا، وإن اختيار أعرق البيوت وأقدمها ليكون قبلة للمسلمين، يعد أفضل من اختيار أی مكان وأی موقع آخر.. فالآية تشير إلی أسبقية الكعبة علی جميع الأماكن الأُخری، وإلی تاريخها الطويل الضارب فی أعماق الزمن، معتبراً ذلك أول وأهم ما تتسم به الآية المذكورة، وأن هدفها أن تكون للناس، وهی بيت الله كما تسمی وضعت لأجل الناس، وهذا التعبير يكشف عن حقيقة هامة وهی: أن كلّ ما يكون باسم الله ويكون له، يجب أن يكون فی خدمة الناس من عباده، وأن كلّ ما يكون لخدمة الناس وخير العباد فهو لله سبحانه.

وقدم الكعبة وأنها أول بيت وضع فی هذه الأرض يجعل لها فضيلة وميزة علی غيرها من البيوت الأخری.

ويتضح هذا مما دار بين الإمام الصادق ٧ وأبی جعفر المنصور الخليفة العباسی، وبين الإمام موسی الكاظم ٧ والمهدی العباسی حينما أرادوا توسعة المسجد الحرام بعد أن أخذ عدد المسلمين فی الازدياد، وعلی أثر ذلك كان يتزايد عدد الحجاج والوافدين إلی البيت الحرام، ولهذا كان المسجد الحرام يتعرض للتوسعة المستمرة علی أيدی الخلفاء فی العصور المختلفة.

فقد جاء فی تفسير العياشی أن أبا جعفر المنصور طلب أن يشتری من أهل مكة بيوتهم ليزيدها فی المسجد، فأبوا فأرغبهم، فامتنعوا فضاق بذلك، فأتی أبا عبدالله الصادق ٧ فقال له: إنی سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم، وأفنيتهم لنزيد فی المسجد، وقد منعونی ذلك فقد غمّنی غماً شديداً، فقال أبو عبدالله ٧: «أيغمك ذلك وحجتك عليهم فيه ظاهرة؟» فقال: وبما أحتج عليهم؟ فقال: «بكتاب الله»،

فقال: فی أی موضع؟ فقال: «قول الله عزّوجلّ:

(إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ)

قد أخبرک الله أن أول بیت وضع للناس هو الذی ببکة، فإن کانوا هم تولوا قبل البیت فلهم أفنیتهم، وإن کان البیت قبلهم فله فناؤه».

فدعاهم أبو جعفر المنصور فاحتج علیهم بهذا، فقالوا له: اصنع ما أحببت.

وقد جاء فی ذلک التفسیر أیضاً أن المهدی العباسی لما بنی فی المسجد الحرام بقیت دارٌ احتج إلیها فی تربیع المسجد، فطلبها من أربابها فامتنعوا، فسأل عن ذلک الفقهاء فکلّ قال له: إنه لا ینبغی أن یدخل شیئاً فی المسجد الحرام غصباً، فقال له علی بن یقطین: یا أمیرالمؤمنین! لو أنک کتبت إلی موسی بن جعفر ۷ لأخبرک بوجه الأمر فی ذلک، فکتب إلی والی المدینة أن یسأل موسی بن جعفر ۷ عن دار أردنا أن ندخلها فی المسجد الحرام فامتنع علینا صاحبها، فکیف المخرج من ذلک؟ فقال ذلک لأبی الحسن ۷، فقال أبو الحسن ۷: ولابدّ من الجواب فی هذا؟ فقال له: الأمر لابدّ منه، فقال له: اکتب:

«بسم الله الرحمن الرحیم، إن کانت الکعبة هی النازلة بالناس فالناس أولی بفنائها، وإن کان الناس هم النازلون بفناء الکعبة فالکعبة أولی بفنائها».

فلما أتی الکتاب إلی المهدی أخذ الکتاب فقبله لفرحه الشدید، ثم أمر بهدم الدار فأتی أهل الدار أبا الحسن ۷ فسألوه أن یکتب لهم إلی المهدی کتاباً فی ثمن دورهم فکتب إلیه أن ارضخ لهم شیئاً فأرضاهم.

۱- المصدر نفسه ۳۵: ۱.

ص: ۹۰

يقول الشيخ المكارم الشيرازى:

«إن فى هاتين الروايتين استدلالًا لطيفاً يتفق تماماً مع المقاييس والموازين القانونيـة المعمول بها أيضاً، فإن الاستدلال يقول: إن لمعبد تقصده الجماهير كالكعبـة، قـد بنى يوم بنى على أرض لا أحد فيها، الحق والأولوية فى تلك الأرض بقدر حاجته، وحيث إن الحاجة يوم اسّـس لم تكن تـدعو إلى أكثر من تلك المساحـة التى أقيم عليها أول مرّة كان للناس أن يسكنوا فى حريم الكعبـة، أما الآن وقد اشتدت الحاجة إلى مساحة أوسع كما كانت عليه لتسع الحجيج، فإن للكعبة الحقّ فى أن تستخدم أولويتها بالأرض» (۱).

وجاء الإسلام

حظيت الكعبـة المشرفة فى ظل الإسـلام ورسالته الخالدة ورسوله العظيم على مكانة كبيرة تتناسب وما أعدته لها السـماء من دور مهم وخطير فى بناء الإنسان المؤمن والمجتمع المؤمن والأمـة المؤمنـة نفسياً وروحياً ودينياً ووعياً ومعرفـة ... لهذا كان همّ الرسول ۹ وكان هـدفه الأول بعـد الانتصار على أعـدائه مشـركى مكـة هو إعادة دورها المرسوم لها منذ أذان نبى الله إبراهيم ۷ والذى غيبه المشركون وشوّهوه.. فأصدر ۹ أوامره بعـد فتـح مكـة بتطهير الكعبـة من الأصـنام والأوثان والتماثيل، وراح يكسو الكعبـة بكسوة من اليمن، وأمر بتطييبها.

ومن الثابت أن حدود المسـجد الحرام هى الدائرة المعروفة، دائرة المطاف نفسـها، وهذه الدائرة لم يكن لها سور ولا جدار معين متميز وإنما كانت بيوت قريش التى تحيط بدائرة المطاف تشكّل دور السور. وقد جعلوا بين كل بيتين أو ثلاثة ممراً ومنفذاً يدخل الناس منه إلى المسجد.

إذن لم يكن للكعبـة فى عهـد النبى ۹ سور متميز يحيـط بهـا، بل كانت بيوت قريش المجاورة له تحيط بها وتفتـح على المطاف الـذى يحيط بجسم الكعبة، ولم يحدث تغيير يذكر فى عمارة الكعبة فى عهد الرسول ۹ ولا فى عهد الخلافة الأولى.

ولما كان عهـد الخلافـة الثانية، ضاقت مساحة المطاف حول الكعبة بسـبب زيادة أعداد المسـلمين الآتين للحج، فطلب الخليفة عمر بن الخطاب من أهل قريش أن يفسـحوا مكاناً لتوسـيع المطاف، وذلك بشـراء منازلهم المطلّة على الكعبة، فلما رفضوا ذلك نزع ملكيتها ووضع الأموال فى بيت المال لمن يطلبها، وهـدمت البيوت المحيطـة بالمطاف القـديم ووسـعت مساحـة المطاف الـذى يحيط بالكعبة، وحتى لاـ تزحف بيوت قريش مرة أخرى على المطـاف الـذى يحيـط بالكعبـة قـام ببنـاء سور حول المطـاف من الخـارج بارتفـاع قامة الإنسان، وجعل فيه عدداً من الأبواب وكان ذلك فى السنة السابعة عشرة من الهجرة النبوية الشريفة.

وفى عام ۲۶ ه‍-، أجرى الخليفـة عثمان بن عفان توسـعة أخرى حول الكعبـة المشـرفة وسورها حيث تم توسـيع المطاف بعد هدم عدد آخر من بيوت أهـل قريش المحيطـة بسورهـا الخـارجى الـذى بناه الخليفـة الثانى من قبل، كما أنه بنى لأول مرة سـقائف ثلاثـة حول مساحة المطاف خصّصـها للصـلاة، وكانت هذه السـقائف تؤدى إلى أروقة؛ وبهذه التوسعة يكون الخليفة عثمان بن عفان أول من بنى مسجداً محاطاً بسور حول بناء الكعبة المشرفة.

ولم يكن لهـذا المسـجد منبر حتى أحضـر معاويـة بن أبى سـفيان منبراً معه حين حضوره لأخـذ البيعة لابنه يزيد من أهل مكة، ووضـع المنبر فى المسجد وكان ذلك عام ۴۷ ه‍-.

وفى الفترة التى سـيطر فيها عبـدالله بن الزبير على مكة المكرمة أجرى بعض التعديلات على عمارة الكعبة، وعندما سـيطر الأمويون مرة أخرى على مقاليـد الحكم أعـادوا بنـاء الكعبـة على مـا كانت عليه وقت الرسول ۹ وكـان ذلـك على يـد الحجاج بن يوسف، من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان.

وظلت الكعبة المشـرفة على هذا الشـكل لمدة لا تقل عن ألف عام بدون تغيير يذكر، اللهم إلا الإضافات التى قام بها الخليفة الوليد بن عبـد الملك الذى أجرى عمارة كبيرة فى المسـجد الحرام، وكذلك الإضافة التى تمت فى عهد الخليفة المهدى العباسـى، وأصبحت

الكعبة تتوسط صحن المسجد الحرام.

في عهد المماليك

ولما جاء حكم المماليك اهتمّ سلاطينهم بالمسجد الحرام، واعتنوا به ووالوه بالإصلاح والتجديد، فأوقفوا عليه الأراضي الزراعية والعقارات في مصر وبلاد الشام، وكان ذلك في عهد السلطان بيبرس البندقداري والمنصور قلاوون، والناصر محمد بن قلاوون والأشرف شعبان ..

ومن العمارات الهامة تلك التي قام بها السلطان الناصر فرج بن برقوق عام ۸۰۲ ه‍-، ففي يوم السبت ۲۸ شوال عام ۸۰۲ ه‍-، اجتاحت النيران رباطاً عند باب الحَزْوَرَة بالجانب الغربي من المسجد الحرام، ولم تلبث النيران أن انتقلت إلى سقف المسجد نفسه وعمت الجانب الغربي وأجزاء من الرواقين المقدمين من الجانب الشامي، وأدى الحريق إلى تخريب ثلث المسجد وتدمير مائة وثلاثين عموداً من أعمدة المسجد، فقام السلطان الناصر فرج بإصلاح ما فسد من البناء.

ومن أهم العمارة الأخرى التي قام بها السلطان الأشرف برسباي، فقد شملت المسجد كله تقريباً، إذ تم فيها إقامة عشرات من العقود الحجرية وتجديد الكثير من الأبواب وتعمير السقوف وطلائها وإصلاح سقف الكعبة المشرفة ورخامها وأخشابها وحلقات الحديد التي تربط كسوة الكعبة المشرفة، ثم كانت عمارة السلطان قايتباي عام ۸۸۵ ه‍- وشملت أجزاء كبيرة من المسجد الحرام وأبوابه ومآذنه.

في العهد العثماني

۱- الأمثل في التفسير: الآية.

ص: ۹۱

وانتقلت السيادة على الحجاز إلى العثمانيين، وبالتالى رعاية الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وصار السلطان العثمانى يلقب بخادم الحرمين الشريفين، وعلى الرغم من السيادة العثمانية على الأمصار كافة إلا أن بلاد مصر كولاية عثمانية ظلّت تتولى عمارة المسجد الحرام بأموال ومواد بناء ومهندسين وعمال مصريين، أجريت العمارة الأولى بعد زوال دولة المماليك على المسجد الحرام عام ۹۷۹ ه-/ ۱۵۷۱ م، حين رأى السلطان سليم الثانى أن يجدّد سقف الأروقة الأربعة للمسجد الحرام، وفى عهد السلطان أحمد (۱۰۱۲ ه- ۱۰۲۲ ه-) حدث تصدع فى جدران الكعبة وكذلك فى جدار الحجر، وكان من رأى السلطان هدم بناء الكعبة وإعادة بنائها من جديد، إلا أن المهندسين أشاروا عليه بدلًا من ذلك بعمل نطاق من النحاس الأصفر المطلى بالذهب، واحد علوى وآخر سفلى، ورغم ذلك لم تصمد الكعبة طويلًا وتهدمت جدرانها عقب أمطار غزيرة عام ۱۰۳۹ ه-، فأمر السلطان مراد الرابع بتجديدها على أيدى مهندسين مصريين عام ۱۰۴۰ ه-.

وكنتيجة للعمائر المختلفة التى تمت بالكعبة المشرفة فى العهد العثمانى، صار الحرم مستطيلًا أقرب إلى التربيع، وأصبحت المظلات التى تحيط بالمطاف من ثلاثة أروقة مقامة على صفوف من العقود والأعمدة الرخامية، ويغطى كل تربيع قبة ضحلة مقامة على مثلثات كروية، وتقوم الكعبة فى وسط المسجد الحرام من الخارج فى المتوسط ۱۹۲ متراً وعرضه ۱۳۲ متراً، وكان بخارج المطاف سقائف ثلاث على أعمدة من الرخام تواجه إحداها الجانب الغربى وكان يصلى بها إمام المالكية، والثانية تواجه الجانب الشمالى ويصلى بها إمام الحنفية، والثالثة تواجه الجانب الجنوبى ويصلى بها إمام الحنابلة، أما إمام الشافعية فكان يصلى خلف مقام إبراهيم.

وبجوار المطاف فى شرقى الكعبة نجد المنبر الرخامى، وكان قد بعث به السلطان سليمان عام ۹۶۶ ه- إلى المسجد الحرام حيث أقيم بدلًا من المنبر الخشبى، وكان هذا المنبر مصنوعاً بدقة وإتقان يشعران برقى الصناعة فى ذلك العصر.

الأسماء

هناك أسماء كثيرة ذكروها لمكة المكرمة، ولكثرتها ذكر قطب الدين النهروانى أن الفيروزآبادى قد صنف رسالة مفصلة فى ذكرها كما فى الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، وأن النووى قال فى هذا الخصوص: إننا لا نعرف من بين المدن ما يضاهى مكة والمدينة بكثرة الأسماء، ورد هذا فى معجم البلدان، وجامع اللطيف. وحتى أن محمد مهدى فقيهى انتهى به التقصى للوقوف على سبعين اسماً من أسماء مكة كما فى مقالته فى العدد الأول من مجلة ميقات الحج «أسماء مكة» صفحة ۱۸۷.

وهنا نكتفى بذكر عدد من أسمائها:

مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، والمقدسة، والناسّة بالنون، وبالباء أيضاً والحاطمة، والنساسة والرأس، وكوثى أو كوثاء، والبلدة، والبَنِيَّة، والكعبة.

وقد ورد منها أربعة فى القرآن الكريم:

مكة كما فى سورة الفتح ۲۴:

(وَهُوَ الَّذِی كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً).

وكذلك وردت بصيغة بكة، كما فى الآية ۹۶ من آل عمران:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ مُبارَكاً وهُدىً لِلْعالَمِينَ).

ووردت باسم أم القرى فى الآية ۹۲ من سورة الأنعام:

(وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِی بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها).

كما وردت باسم البلد الأمين كما فى الآية ۳ من سورة التين:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ).

وفى سبب تسميتها ببكة وجوه إضافة إلى ما ذكرناه فى اللغة أعلاه:

۱- لقلة مائها وزرعها وقلة خصبها، فهى مأخوذة من مككت العظم إذا لم تترك فيه شيئاً. وهو قول الأنبارى.

۲- لأن من ظلم فيها مكّه الله، أى استقصاه بالهلاك.

۳- لأنها وسط الأرض كالمخ وسط العظم. وهو قول الخليل بن أحمد.

ص: ۹۲

وبكـة قيل: إنها المسـجد، ومكـة الحرم كله يدخل فيه البيوت عن الزهرى وضـمرة بن ربيعة، وهو المروى عن أبى جعفر ۷ وقيل: بطن مكـة عن أبى عبيـدة. وقيل: بكة موضع البيت والمطاف ومكة اسم البلدة وعليه الأكثر. وقيل: بكة هى مكة والعرب تبدل الباء ميماً مثل سبد رأسه وسمده عن مجاهد والضحاك (۱).

والكعبـة فى اللغة العربية تسـمّى لتكعيبها وهو تربيعها. وقيل: لعلوها ونتوئها.. وأكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة. وقد وردت أسـماؤها فى الآيات القرآنية التالية:

الكعبة: (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ) (۲).

البيت: قال عز من قائل:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ) (۳).

وقال الله تعالى:

(فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ) (۴).

البيت العتيق: قال الله تعالى:

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (۵).

وقال سبحانه وتعالى:

(لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (۶).

البيت الحرام: قال الله جل جلاله:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً) (۷).

وقال عز من قائل:

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ) (۸).

البيت المعمور: كما فى قوله تعالى:

(وَالطُّورِ وَكِتابٍ مَسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) (۹).

البيت المحرم: قال تعالى:

(رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) (۱۰).

أما لفظة «الكعبة» فقد ذكرت فى القرآن الكريم فى موضعين هما:

قال الله تعالى:

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِى السَّماواتِ وَما فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُوانْتِقامٍ).

أركان الكعبة

أربعـة أركان للكعبة المشـرفة، جاء ترتيبها حسب بداية الطواف فيما جاءت تسـميتها باعتبار اتجاهاتها الأربعة تارةً، وتارة أخرى باعتبار

خصوصية فيها.

۱- انظر: الدر المصون فی علوم القرآن للسمین الحلبی ۳۱۵: ۳، ومجمع البیان للطبرسی: الآیة.

۲- المائدة: ۹۷.

۳- آل عمران: ۹۶.

۴- آل عمران: ۹۷.

۵- الحج: ۲۹.

۶- الحج: ۳۳.

۷- المائدة: ۲.

۸- المائدة: ۹۷.

۹- الطور: ۱- ۴.

۱۰- إبراهيم: ۳۷.

ص: ۹۳

الركن الشرقى: وهو الركن الذى يكون بجوار باب الكعبة ويُقابلُ بئر زمزم تقريباً، ويُسمى بالركن الشرقى لكونه باتجاه المشرق تقريباً، ويُسمَّى أيضاً بالركن الأسود لأن الحجر الأسود مُثَبَّتٌ فيه.

الركن الشمالى: وهو الركن الذى يلى الركن الشرقى حسب جهة الحركة فى الطواف، ويُسمَّى بالركن الشمالى لمواجهته للشمال تقريباً، وهو الركن الذى يكون على الجانب الشرقى من حِجْرِ إسماعيل، ويُسمَّى أيضاً بالركن العراقى لكونه باتجاه العراق.

الركن الغربى: وهو الركن الذى يلى الركن الشمالى حسب جهة الحركة فى الطواف، ويُسمَّى بالركن الغربى لمواجهته للمغرب تقريباً، وهو الرُكن الذى يكون على الجانب الغربى من حِجْرِ إسماعيل.

الركن الجنوبى: وهو الركن الذى يلى الركن الغربى حسب جهة الحركة فى الطواف، ويُسمَّى بالركن الجنوبى لمواجهته للجنوب تقريباً، ويُسمَّى أيضاً بالمُستجار.

إضاءة

ومن الحوادث المهمة التى حدثت فى الكعبة المشرفة، الولادة المباركة فى جوفها لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ٧، ومن الواضح أن لهذه الحادثة دلالات واضحة على منزلة الإمام أمير المؤمنين ٧ ومكانته المميزة، وهى فضيلة خصّه الله تعالى بها دون غيره.

فقد روى الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف القرشى الكنجى الشافعى المتوفى سنة: ۶۵۸ هجرية وآخرون من العلماء أنه: «عليّ بن أبى طالب ٧ لم يولد قبله ولا بعده مولود فى بيت الله الحرام سواه، إكراماً له بذلك وإجلالًا لمحله فى التعظيم».

وهناك العديد من المصادر تنقل هذه الحادثة توفر عليها كتاب على وليد الكعبة، للشيخ الحجة الميرزا محمد على الغروى الأردوبادى رحمه الله وقد تكفل بدراسة هذا الأمر ومصادره الكثيرة وما ورد فيها (۱).

هناك أجزاء هامة تحتل مكانها بالمسجد الحرام وحول الكعبة، منها:

المطاف: وهو البقعة التى تحيط بالكعبة، وهو مكسو بالرخام، ويبدأ الطواف من الحجر الأسود، ثم يجعل الكعبة على يساره ويمضى ويطوف سبعة أشواط حول الكعبة.

الحجر الأسود: وموقعه بالركن الجنوبى الشرقى من الكعبة، وأهمية هذا الحج، أنه يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده المؤمنين، كما ورد وهو حجر ثقيل بيضاوى الشكل أسود اللون يميل إلى الحمرة وقطره ۳۰ سم ويحيط به، وأنه من وضع سيدنا إبراهيم ٧ جعله بالكعبة ليبدأ الحجاج الطواف من عنده، فلا يحدث تقابل أو اضطراب بين الطائفين، وقد اختلف العلماء والمؤرخون حول حقيقة الحجر الأسود، فنقل النويرى عن ابن عباس قوله: ليس فى الأرض من الجنة إلا الركن الأسود فإنه جوهرة من جواهر الجنة، ومن التقاليد العامة بين المسلمين أن هذا الحجر المقدس أصله من الجنة وكان لونه أبيض، فاسودّ نتيجة ارتكاب أهل الأرض للمعاصى والآثام، وعلى كل أن من يعرف معنى العبادة يقطع بأن الملين لا يعبدون الحجر الأسود ولا الكعبة، ولكن يعبدون الله تعالى باتباع تعاليم شرعه وأداء مناسك أمرهم بها فى هذه البقعة المباركة ذات المعالم القيمة والآثار المباركة ..

أما الإطار الفضى فيقال: إن عبدالله بن الزبير أول من ربط الحجر الأسود بالفضة، ثم تتابع الخلفاء فى عمل الأطواق من فضة كلما اقتضت الضرورة لذلك.

الشاذروان: وهو جدار يلاصق جدار الكعبة مكسو بالرخام ارتفاعه حوالى ۵۰ سم، وأصل الشاذروان هو الأرض التى أنقصتها قريش من عرض جدار أساس الكعبة حين أعيد بناؤها وقت قصى بن كلاب.

الملتزم: وهو مكان يقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة المعظمة ومقداره نحو مترين ويسمى بالملتزم، وسمى بهذه التسمية لأن الحاج يلتزم هذا المكان للدعاء فيه، فهو موضع مبارك لإجابة الدعاء حيث يسنّ به الدعاء مع إلصاق الخدين والصدر والذراعين والكفين.. وكان الرسول ٩ يدعو عنده وعند الحطيم.

وقال ابن عباس رضـى الله عنه: إن ما بين الحجر والباب لا يقوم فيه إنسان فيدعو الله تعالى بشـىء إلا رأى فى حاجته بعض الذى يحب ..

الحطيم: وإنما سـمى بالحطيم إما لكثرة ازدحام الناس والطائفين فيه وإما لكونه موضع غفران الـذنوب، وغفرانها بمنزلـة تحطيمها، وهو موضع توبة آدم.

ويقول الكـاتب عمر المضواحى عن الحطيم: على يسـار بـاب الكعبـة المهيب وبين الملتزم والحجر الأسود إلى الـداخل منها يقع مكان (حطيم السيئات) حيث يتم فيه التضرع بالدعوات.

۱- راجع أيضاً: ميقات الحج، العدد ۱۶۸: ۱۴.

ص: ۹۴

باب التوبـة: وفى الجهـة الشـمالية والكلام ما زال للمضواحى من الكعبـة، على يمين الـداخل، باب صـغير يعرف بباب «التوبة» وهو فى الصـنعة والإتقان، يمتاز بمقاساته العادية وهو بنسبة قياس واحد إلى ثمانية مقارنة بباب الكعبة الخارجى الوافر البهاء والضخامة، ويؤدى باب التوبة المصـنوع من أندر قطع الأخشاب المكسوة بصفائح الذهب والفضة المشغولة، إلى درج حلزونى من الزجاج السميك يصل إلى سطح الكعبة.

حجر إسـماعيل: هو محل بنى فيه جدار هلالى الشـكل عند الضـلع الشـمالى الغربى من الكعبة، وقد يكون من ضـمن مساحته جزء من الكعبة.

الميزاب: للكعبة ميزاب وضـعته قريش حين بنتها سـنة ۳۵ من ولاـدة النبى ٩ على سـطح الكعبة فى الجهة الشـمالية بين الركن الشمالى والركن الغربى حين عملت لهـا سـقفاً وكـانت قبل ذلك بلا سـقف، ويمتـد نحو حجر إسـماعيل ٩ ليسـكب ماءه المتجمع على سـطح الكعبة عند سقوط الأمطار أو غسل سطحها فى بطن الحجر.

قـال الأزرقى: وذرع طول الميزاب أربعـة أذرع، وسـعته ثمانيـة أصابع فى ارتفاع مثلها. والميزاب ملبس بصـفايح ذهب داخله وخارجه، وكان الذى جعل عليه الذهب الوليد بن عبد الملك (۱).

وقد وقع تغيير وتبديل فى ميزاب الكعبة المشرفة، وذلك لسببين: أحدهما كان إذا اعتراه خراب عمل غيره، والثانى كان بعض الملوك أو الأغنياء من عظماء المسلمين يهدى للكعبة المعظمة ميزاباً فيركب فى الكعبة المشرفة، وينزع الذى قبله.

والميزاب الموجود فى الكعبة المشـرفة إلى العصـر الحاضر هو الميزاب الذى عمله السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود خان، عمله فى القسطنطينية، ثم جىء به وركب سنة ۱۲۷۶ ه-، وهذا الميزاب مصفح بالذهب. وقد أدخلت عليه ترميمات جزئية فى المسامير العلوية المانعة لوقوف الحمام عليه.

مقام إبراهيم: وهو مكان الحجر الذى قام عليه سـيدنا إبراهيم عند بنائه للكعبة وصـلّى عنده وتركه ملاصـقاً لجدار الكعبة ثم غير مكانه بعيداً عن الجدار، وقد ورد فى القرآن الكريم:

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلّىً).

ويقع إلى جهة الشـرق من الكعبة، وقد قام الخليفة المهدى العباسـى بإحاطته بحليات ذهبية. وإنما أشرت إلى المقام هنا لكونه كان فى بدايته ملاصقاً لجدار الكعبة وإلا فهو ليس جزءاً من بناء الكعبة الآن.

المآذن: وللمسجد الحرام سبع مآذن إلى جانب مآذن حديثة أضيفت له:

مئذنـة باب العمرة: وتقع فى الجهـة الشـمالية الغربية من المسـجد الحرام، وبناها الخليفة العباسـى فى عمارته للمسـجد عام ۱۳۹ ه-، ثم جددها صاحب الموصل عام ۵۵۱ ه-، ثم أصلحت مرة ثالثة عام ۸۴۳ ه- زمن السلطان حقمق المملوكى، ثم هدمها السلطان سليم خان وأعاد بناءها.

مئذنة باب الوداع: وقد أنشأها الخليفة المهدى العباسـى ثم جددها السـلطان المملوكى شعبان، وكانت قد سقطت عام ۷۷۱ ه- فجددها عام ۷۷۲ ه-.

مئذنة باب على: أنشأها الخليفة المهدى العباسى عام ۱۶۸ ه- ثم أعاد بناءها السلطان العثمانى سليمان خان.

هذا بالإضافة إلى مئذنة قايتباى التى تجاور باب السلام.

ومئذنـة باب الزيارة: التى أنشأها الخليفـة المعتضد العباسـى عام ۲۴۸ ه- ثم جددها السـلطان الأشـرف أبو النصـر برسـباى سلطان مصر وبلاد الشام والحجاز عام ۸۲۶ ه-.

والمئذنة السليمانية: التى بناها السلطان سليمان العثمانى.

وكان يؤذن من على جميع المآذن فى الصلوات الخمس قبل إدخال الكهرباء، وكان المؤذنون يرددون ما يقوله رئيس المؤذنين أو شيخهم الذى كان يؤذن من فوق قبة بئر زمزم ويتبعه الجميع.

الأبواب

نبدأ أولًا بباب الكعبة المشرفة الذى يرتفع عن أرض المطاف بحوالى ۵. ۲ وارتفاع الباب ۳.۰۶ متر وعرضه ۶۸. ۱، متر والباب الموجود اليوم هدية الملك خالد بن عبدالعزيز وقد تم صنعه من الذهب حيث بلغ مقدار الذهب المستخدم فيه للبابين حوالى ۲۸۰ كيلو جرام عيار ۹۹. ۹۹ بتكلفة إجمالية بلغت ۱۳ مليوناً و ۴۲۰ ألف ريال عدا كمية الذهب.

هذا، وللمسجد الحرام أبواب كثيرة تغير اسم بعضها على مرّ العصور، وبقيت بعض الأسماء كما هى دون تغيير، ويبلغ عدد أبواب المسجد الحرام ۲۵ باباً فى الإجمالى، منها ثمانية فى الشمال وسبعة فى الجنوب وخمسة فى الشرق وخمسة فى الغرب.

۱- أخبار مكة ۲۹۱: ۱.

ص: ۹۵

ومن المعلوم أن أبواب الحرم المكى خضعت لمجموعة من التغيير والتطوير، وإضافة أبواب جديدة حتى صارت أبواب المسجد الحرام «۱۱۲» باباً، وصنعت الأبواب من أجود أنواع الخشب، وكسيت بمعدن مصقول ضبط بحليات نحاسية حتى بدت فى كثير من الأحيان تحفة فنية رائعة.

وهذه بعض الأبواب المطلة على الشوارع العمومية من الجهات الأربع، وتوجد أبواب رئيسية معروفة فى الجهات الأخرى منها: باب الملك عبد العزيز، يقع فى الجنوب الشرقى.

أبواب الجهة الغربية

باب الحزورة: والحزورة اسم لسوق فى الجاهلية كانت فى هذا المكان وأدخلت فى مساحة المسجد الحرام وله أسماء أخرى مثل باب البقالية وباب الوداع؛ لأن الناس يخرجون منه عند سفرهم، وعليه نص تأسيس باسم السلطان الناصر فرج بن برقوق مؤرخ بعام ۸۰۴ ه-.

وباب العمرة: ويحمل هذا الاسم لأن المعتمرين من التنعيم يخرجون ويدخلون منه.

باب إبراهيم: نسبة إلى رجل اسمه إبراهيم الخياط كان يزاول عمله عند هذا الباب.

باب مدرسة الشريف غالب.

باب مدرسة الداوودية.

أبواب الجهة الجنوبية

باب بازان: يقع هذا الباب بأقصى الجهة الجنوبية، وسمى بهذا الاسم لقربه من عين ماء بازان.

باب البغلة: وعرف أيضاً بباب بنى سفيان، ثم باب الصفا، سمى بذلك؛ لأنه يلى الصفا، ويعرف أيضاً ب- «باب بنى مخزوم»؛ لأنهم كانوا يسكنون فى تلك الجهة.

وباب أجياد الصغير المعروف أيضاً ب- «باب الخلفيين».

وباب المجاهدية: ويقال له: باب الرحمة، ويسمى الآن باب أجياد؛ لأنه يقع فى مواجهة شارع أجياد.

وباب الحميدية: نسبة إلى السلطان عبد الحميد، واسمه القديم باب أم هانئ بنت أبى طالب.

وباب بنى تميم: ويعرف أيضاً بباب التكية لمواجهته للتكية المصرية التى كانت مبنيةً أمامه، ويعرف أيضاً باسم باب عجلان أو باب مدرسة الشريف عجلان أو باب بنى تميم.

أبواب الجهة الشرقية

باب السلام: ويعرف أيضاً بباب بنى شيبة، وهو الباب الذى يدخل منه الحجيج لأداء الطواف، وهذا الباب من تجديد السلطان سليمان خان عام ۹۳۱ ه-.

ثم باب قايتباى أو باب النبى؛ حيث كان الرسول ۹ يخرج ويدخل منه أو من جهته إلى دار زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها، وكان فى الموضع المعروف بمولد فاطمة الزهراء ۳ فى زقاق الصوع أو فى زقاق العطارين، كما سمى أيضاً بباب الجنائز لخروج الجنازات منه.

ثم باب العباس: وكان يقابل دار العباس بن عبد المطلب، وعليه نص باسم السلطان الأعظم مراد خان بن السلطان سليم عام ۹۸۸ ه-.

ثم باب على: ويعرف أيضاً بباب بنى هاشم، كما عرف أيضاً باسم البطحاء، وعليه نص تجديد باسم السلطان مراد خان عام ۹۸۴ ه-.

ومنها «باب الحريريين»: لأن الحرير كان يباع إلى جواره.

باب مدرسة السلطان قايتباى: وهذا الباب نافذ من المسجد الحرام إلى شارع المسعى.

الكعبة فى عصرنا

باختصار نشير إلى التطور الذى جعل المسجد الحرام كما هو عليه الآن، فالمسجد الحرام يتكون حالياً من مساحة مستطيلة ۱۹۲* ۱۳۲ متراً أى بمساحة إجمالية قدرها ۲۵۳۴۴ متراً، ويتوسط هذه المساحة الكعبة المشرفة ويحيط به من الجهات الأربع ظلات بها أروقة مغطاة بقباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية محمولة بدورها على عقود وأكتاف من الحجر.

ص: ۹۶

ونتيجة لتزايد أعداد المسلمين الوافدين لأداء فريضة الحج وتجديد مبانى الحرم كله ليصبح على الشكل الذى نراه اليوم فقد تمت توسعة ساحة المسجد فى عام ۱۳۷۷ ه‍- ۱۹۵۸ م وتجديد مبانى الحرم الشريف ليصل عدد المصلين والطائفين به الآن لأكثر من مليونين.

ويحيط بالحرم شارع عرضه ثلاثون متراً وهو من مظاهر تعظيم الكعبة المشرفة. وللمسجد الحرام ۲۵ باباً فى الإجمالى، منها ثمانية فى الشمال وسبعة فى الجنوب وخمسة فى الشرق وخمسة فى الغرب.

سدنة الكعبة ومفتاحها وكسوتها

وختاماً هذه وجيزة بسيطة أراها مناسبة عن موضوع سدانة الكعبة وعما يتعلق بمفتاحها وكسوتها:

فالسدانة لغة من سدن سدناً وسدانة وسداناً: خدم الكعبة. والسادن هو خادم الكعبة والجمع: سدنة. وتأتى بعدة معان فى معجم اللغة العربية مثل الأمين والحاجب.. وهو المسؤول عن أمور المسجد الحرام وما يرتبط به رعاية ونظافة وحفظاً ..

وسدانة الكعبة ترجع إلى تاريخ بنائها وتعنى القيام بجميع أمورها من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وغسلها وكسوتها وإصلاح هذه الكسوة إذا تمزقت واستقبال زوارها وكل ما يتعلق بذلك، فقد كان يقوم بأمر السدانة إسماعيل ۷ ثم من بعده ذريته، إلى أن كان عهد قصى بن كلاب فأخذ قصى سدانة الكعبة من خزاعة التى كانت قد استولت على السدانة بالقوة مدة ليست بالطويلة، وهى قبيلة هاجرت من اليمن بعد انفجار سد مأرب واتجهت إلى مكة وأقامت بها.

وقد ولد لقصى عبدالدار وعبد مناف وعبدالعزى وعبد قصى، وبعد وفاة قصى انحصرت السدانة فى عبدالدار وأبنائه حتى كان منهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة وابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة. وينتهى نسب سدانة الكعبة المشرفة الحاليين إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وقد أسلم عام الفتح على أصحّ الروايات وله صحبة ورواية عن النبى ۹.

وجميع آل الشيبى فى هذا العصر هم من أبناء الشيخ محمد بن زين العابدين، وينقسمون إلى أبناء الشيخ عبدالقادر بن على، وهم عائلة عبدالله، وحسن آل الشيبى، وأبناء عبدالرحمن بن عبدالله الشيبى، وهم محل احترام وإكرام كما دلت على ذلك الأخبار الواردة فى حقهم، ولا يزالون فى موضع الإكرام والرعاية عند عموم المسلمين، ولايزال وجودهم من معجزات رسول الله ۹ التى أخبر أمته بها وأن المفتاح سيبقى بأيديهم كما يبيّن القول المنسوب إلى جبريل أو إلى رسول الله ۹ حينما نزلت الآية الكريمة ۵۸ من سورة النساء:

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهْلِها ...).

يقول الخبر كما فى أسباب النزول للواحدى-: عثمان بن طلحة الحجبى من بنى عبد الدار، كان سادن الكعبة، فلما دخل النبى ۹ مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح، فطلب رسول الله ۹ المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلب رسول الله ۹ المفتاح منه فأبى وقال: لو علمت أنه رسول الله لما منعته المفتاح، فلوى على بن أبى طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب، فدخل رسول الله ۹ البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله ۹ علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك على، فقال له عثمان: يا على! أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق! فقال: لقد أنزل الله تعالى فى شأنك، وقرأ عليه هذه الآية فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله وأسلم، فجاء جبريل ۷ وقال:

«ما دام هذا البيت فإن المفتاح والسدانة فى أولاد عثمان. وهو اليوم فى أيديهم».

وفى رواية أن رسول الله ۹ حين أعاد المفتاح لعثمان قال:

«خذوها يا بنى أبى طلحة بأمانة الله، لا ينزعها منكم إلا ظالم. أو خذوها يابنى طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم».

وهنا ندع الكلام لأحد سدنة بيت الله لحرام، وهو نزار الشيبى ليحدّثنا عن شىء من تاريخ السدانة:

آلت إلينا السدانة منذ أيام جدنا قصى، وانتقلت بين أبناء ابنه عبدالدار الذى كان له خمسة أولاد، وكان لا يخرج فى رحلة الشتاء

والصيف فيعايره إخوانه بسبب ذلك، فسمعهم أبوه قصى فقال: والله لأشرفنك عليهم، فأعطاه سقاية الكعبة والسدانة والرئاسة والندوة والرفادة ولواء الحرب، وعندما جاء إخوانه، قالوا له: إنك أخذت كل الشرف، وما تركت لنا شيئاً، فقال: خذوها كلها إلا السدانة والرئاسة حيث كان هو رئيس قريش.

إن كبير سدنة بيت الله الحرام هو الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الشيبى، وهو الذى يوجد لديه مفتاح الكعبة، ويقال له: (الحجبى) أى الذى يحجب البيت، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون للكعبة المشرفة سدنة، أى من هم مسؤولون عنها، وأن يكون لها مفتاح.

ويواصل الشيبى حديثه قائلًا: إن الكعبة المشرفة تفتح مرتين فى السنة لغسلها، ويسمح بدخولها حينئذ لبعض كبار ضيوف الدولة وبعض العلماء والمشايخ، وأيضاً القائمون بغسلها.

ويضيف: تعلّق فى داخل الكعبة الهدايا التى قدمت لها، وبعض الموجودات بداخلها ربما تعود إلى ما بعد أن ضربها الحجاج بن يوسف الثقفى بالمنجنيق، يعنى تقريباً تعود إلى ۱۲۰۰ سنة، لكن هناك بلا شك أشياء تعود إلى عصور لاحقة، وأشياء أخرى حديثة ..

ص: ۹۷

وبعد هذا كان ختام كلامه عن كسوة الكعبة.

كسوة الكعبة

أثناء فريضة الحج وبعد أن يتوجه الحجاج إلى صعيد عرفة، يتوافد أهل مكة إلى المسجد الحرام للطواف والصلاة ومتابعة تولى سدنة البيت الحرام تغيير كسوة الكعبة المشرفة القديمة، واستبدالها بالثوب الجديد استعداداً لاستقبال الحجاج فى صباح اليوم التالى الذى يوافق عيد الأضحى.

وقبل هذا الوقت وفى منتصف شهر ذى القعدة تقريباً، يتسلم كبير السدنة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الشيبى فى حفل سنوى الثوب الجديد من الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوى بقاعة المناسبات الرئيسية فى مصنع كسوة الكعبة المشرفة بضاحية أم الجود بمكة. وبعد إحضار الثوب الجديد تبدأ عقب صلاة العصر مراسم تغيير الكسوة حيث يقوم المشاركون فى عملية استبدال الكسوة عبر سلّم كهربائى بتثبيت قطع الثوب الجديد على واجهات الكعبة الأربع على التوالى فوق الثوب القديم.

وتثبت القطع فى عرى معدنية خاصة (۴۷ عروة) مثبتة فى سطح الكعبة، ليتم فك حبال الثوب القديم ليقع تحت الثوب الجديد نظراً لكراهية ترك واجهات الكعبة مكشوفة بلا ساتر.

ويتولى الفنيون فى مصنع الكسوة عملية تشبيك قطع الثوب جانباً مع الآخر، إضافة إلى تثبيت قطع الحزام فوق الكسوة (۱۶ قطعة جميع أطوالها نحو ۲۷ متراً) و ۶ قطع تحت الحزام، وقطعة مكتوب عليها عبارات تؤرخ إهداء خادم الحرمين الشريفين لثوب الكعبة وسنة الصنع، ومن ثم تثبت ۴ قطع صمدية (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ) توضع على الأركان، و ۱۱ قطعة على شكل قناديل مكتوب عليها آيات قرآنية توضع بين أضلاع الكعبة الأربعة.

هذا وأن آخر قطعة يتم تركيبها هى ستارة باب الكعبة المشرفة وهى أصعب مراحل عملية تغير الكسوة، وبعد الانتهاء منها تتم عملية رفع ثوب الكعبة المبطن بقطع متينة من القماش الأبيض، وبارتفاع نحو مترين من شاذروان (القاعدة الرخامية للكعبة) والمعروفة بعملية إحرام الكعبة. ويرفع ثوب الكعبة لكى لا يقوم بعض الحجاج والمعتمرين بقطع الثوب بالأمواس والمقصات الحادة للحصول على قطع صغيرة طلباً للبركة والذكرى.

ويتم تسليم الثوب القديم بجميع متعلقاته للحكومة السعودية التى تتولى عملية تقسيمه كقطع صغيرة وفق اعتبارات معينة لتقديمه كإهداء لكبار الضيوف والمسؤولين وعدد من المؤسسات الدينية والهيئات العالمية والسفارات السعودية فى الخارج.

ويستهلك الثوب الواحد للكعبة نحو ۶۷۰ كيلو جراماً من الحرير الطبيعى و ۱۵۰ كيلو جراماً من سلك الذهب والفضة، ويبلغ مسطحه الإجمالى ۶۵۸ متراً مربعاً، ويتكون من ۴۷ لفة، طول الواحدة ۱۴ متراً وبعرض ۹۵ سنتيمتراً. ويكلف الثوب الواحد نحو ۱۷ مليون ريال سعودى.

ويعود إنشاء المصنع إلى بداية شهر محرم عام ۱۳۵۷ ه- بجوار البيت العتيق ليكون أول مصنع لكسوة الكعبة ..

ولمزيد المعلومات حول الكعبة انظر المراجع التالية:

- مجمع البيان، للشيخ الطبرسى
- تفسير الميزان، للسيد الطباطبائى
- التفسير الأمثل، للشيخ المكارم
- فى ظلال القرآن، لسيد قطب
- أسباب النزول، للواحدى
- تاريخ الرسل والملوك، للطبرى.

- مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت.

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور.

- أخبار مكة، للأزرقى

- إعلام الأعلام ببناء المسجد الحرام، للقطبى.

شؤون الحرمين الشريفين فى العهد العثمانى، عبد اللطيف هريدى.

ص: ۹۸

ص: ۹۹

شخصیات من الحرمین الشریفین (۲۳) أبو سعید الخدری

محمد سلیمان

مازال حدیثنا عن مدرسة الصحبة المبارکة لرسول الله ۹ من خلال الترجمة لرموزها، الذین خلد ذکرهم بعد أن صدقوا ما عاهدوا الله علیه فما أن ننتهی من رمز حتی ندخل مع رمز آخر ونموذج رائع لها.. مع صحابی وابن صحابی، إنه هذه المرة الصحابی الجلیل الخدری الخزرجی

الأنصاری، المولود فی السنة العاشرة قبل الهجرة النبویة الشریفة، والمعروف بکنیته أبوسعید الخدری، ولشهرته بها طغت علی اسمه، وهو سعد بن مالک بن سنان بن ثعلبة بن عبید بن الأبجر، وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصاری.. وعن ابن هشام اسمه سنان. وخدرة وخدارة بطنان من الأنصار، وهما ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج. وزعم بعض الناس أن خدرة هی أمالأبجر.

أما أمه، فهی أنیسة بنت أبی حارثة من بنی عدی بن النجار.

وأخوه لأمه قتادة بن النعمان (۱).

لقد کان هذا الصحابی وجهاً بارزاً مشهوراً من الأنصار ومن أفاضلهم، وکان من المحدِثین الکبار، وکان ذا علم ومعرفة وفقه، وله من الروایات الکثیرة مستقلًا فی روایتها أو مشارکاً مع غیره، و روایاته وأقواله تمیزت بأنها جاءت فی أمهات الأمور التی شکلت أساساً عظیماً وصرحاً کبیراً فی البناء العقائدی والتشریعی فی الإسلام وتاریخه ومبادئه وقیمه ..

ممن شهد بیعة الرضوان

(لَقَدْ رَضِیَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ إِذْ یُبایِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِی قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّکِینَةَ عَلَیْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِیباً ...) (۲).

فی السنة الثامنة للهجرة النبویة وقعت البیعة المعروفة ببیعة الرضوان انطلاقاً من الآیة المبارکة وما تحمله من رضاء الله تعالی عمن بایع رسوله ۹ فی الحدیبیة تحت الشجرة وهی شجرة السمرة، ولهذا تسمی بیعة الحدیبیة وبیعة الشجرة، وقلوبهم مملوءة بصدق النیة والیقین والصبر والوفاء بما عقدوا البیعة علیه.. فکان هذا الصحابی الجلیل أبو سعید الخدری واحداً من أولئک الصادقین حین شهد بیعة الرضوان، حین جاء رسول الله ۹ إلی الشجرة، فاستند إلیها وبایع الناس علی أن یقاتلوا المشرکین ولا یفروا.. وکان قد أرسل رسول الله ۹ عثمان بن عفان إلی أبی سفیان وأشراف قریش یخبرهم أنه لم یأت لحرب وإنما جاء زائراً البیت معظماً لحرمته، فاحتبسته قریش عندها فبلغ رسول الله ۹ والمسلمین أن عثمان قد قتل، فاطلق رسول الله ۹ قوله: لا نبرح حتی نناجز القوم ..

وهذا سبب البیعة ونصها، کما قال ابن اسحاق فی السیرة: فحدثنی عبدالله بن أبی بکر أن رسول الله ۹ قال حین بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتی نناجز القوم، فدعا رسول الله ۹ الناس إلی البیعة، فکانت بیعة الرضوان تحت الشجرة، فکان الناس یقولون، بایعهم رسول الله ۹ علی الموت، وکان جابر بن عبدالله یقول: إن رسول الله ۹ لم یبایعنا علی الموت، ولکنا بایعنا علی أن لا نفرّ.

لقد کان أبوسعید ممن بایعوا رسول الله ۹ علی أن لا تأخذهم فی الله لومة لائم، کما یحدثنا سهل بن سعد عن أبیه عن جده قال: بایعت النبی ۹ أنا وأبو ذر وعبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة وأبو سعید الخدری وسادس علی أن لا تأخذنا فی الله لومة لائم، فاستقال السادس فأقاله (۳).

یوم أحد

رغبته فی أن یکون مقاتلًا فی معرکة أحد حال دونها رفض رسول الله ۹ لأنه استصغره.. یقول أبو سعید: عرضت یوم أُحد علی النبی ۹ وأنا ابن ثلاث عشرة، فجعل أبی یأخذ بیدی ویقول: یا رسول الله! إنّه عبل ضخم العظام، و جعل نبی الله ۹ یصعِّد فی النظر ویصوِّبه، ثم قال ۹: رُدَّهُ، فردَّنی .. (۴)

وإن حرمه صغر سنّه عن وسام المشاركة في هذه المعركة فقد نال أبوه رضى الله عنه وسام الشهادة الكبير، وأنه بعيد عن النار، ففى خبر كما فى السيرة النبوية لابن هشام أن رسول ۹ يوم أحد وقع فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب ۷ بيد رسول الله ۹ ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائماً ومص مالك بن سنان أبو سعيد الخدرى الدم عن وجه رسول الله ۹ ثم ازدرده أى ابتلعه، فقال رسول الله ۹: من مس دمى دمه لم تصبه النار. وقد استشهد مالك بن سنان فى هذه الواقعة.

ابن الشهيد!

وإن لم يمنحه سنه فرصة قتال المشركين فى معركة أحد إلا أنه وتكريماً لمالك بن سنان ولابنه أبى سعيد أيضاً كان يدعوه رسول الله ۹ وبعض الصحابة: «ابن الشهيد»، كما ورد فى راوية طويلة يتحدث فيها أبو سعيد عن صحبته لعلى ۷ إلى اليمن، ورفض على ۷ استعمال إبل الصدقة من قبل أبى سعيد ومن معه ممن كان فى رفقة الإمام على ۷ قائلًا لهم:

«إنما لكم منها سهم كما للمسلمين».

إنه الحق والعدل والمساواة التى تميزت بها شخصية على ۷ ولم يدركها ويقدرها هؤلاء الأصحاب؛ مما جعل أبا سعيد يشكو ما يسمّونه غلظة على ۷ وتضييقه عليهم إلى رسول الله ۹ و هو ما تضمنه قوله: يا رسول الله ۹، ما لقينا من على من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق. وهنا يقول سعيد: فانتبذ أى اعتزل ناحية رسول الله ۹ وجعلت أنا أعدد ما لقينا منه حتى إذا كنت فى وسط كلامى ضرب رسول الله ۹ على فخذى، وكنت منه قريباً، وقال:

«سعد بن مالك ابن الشهيد، مه بعض قولك لأخيك على، فوالله، لقد علمت أنه أخشن فى سبيل الله».

۱- أنظر: مختصر تاريخ دمشق ۲۷۲: ۹؛ أسد الغابة؛ السيرة لابن هشام ۱۳۲: ۳؛ تهذيب الأسماء ۵۱۸: ۲؛ الاستيعاب فى تمييز الأصحاب.

۲- الفتح: ۱۸- ۲۱.

۳- كتاب السيرة النبوية ۲۸۳: ۴؛ مختصر تاريخ دمشق ۲۷۵: ۹؛ الإصابة فى تمييز الصحابة ۳۵: ۲.

۴- سير أعلام النبلاء ۱۶۹: ۳.

ص: ١٠٠

قال: فقلت في نفسـي: ثكلتك أمك، سعد بن مالك، ألا أراني كنت فيما يكره منذ اليوم وما أدرى؟ لا جرم، والله لا أذكره بسوء أبداً سرّاً وعلانيةً (١).

وإن استصـغر أبو سـعيد الخـدرى يوم أحـد فرد، إلا أنه شارك بعد ذلك مع رسول الله ٩ في اثنتى عشـرة غزوة، بدءاً بمعركة الخندق التى كانت أول مشاهده وبيعة الرضوان ... (٢)

وعن الخـدرى كمـا جـاء في أمـالي الطوسـي: أخبرنـا الشـيخ أبو جعفر الطوسـي، عن أبي عبـد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد [النعمـان] عن أبي الحسن مُحَمَّد بن المظفر البزاز، عن أحمـد بن عبيـد العطاردى، عن أبي بشـر بن بكير، عن زياد بن المنـذر، عن أبي عبد الله مولى بنى هاشم، عن أبي سعيد الخدرى، قال: ... لما كان يوم أحد شجَّ النبيُّ ٩ في وجهه وكُسِرت رباعيته، فقام ٩ رافعاً يديه يقول:

إنَّ الله اشـتدَّ غضـبه على اليهود أن قالوا: عزيرٌ ابن الله، واشتدَّ غضبه على النصارى أنْ قالوا: المسيح ابن الله، واشتدَّ غضبه على من أراق دمى، وآذاني في عترتى (٣).

ومما رواه أبو سعيد عن مجريات معركة أحد كما في مختصر تاريخ دمشق تفاصيل إصابة رسول الله ٩ كما في الخبر عنه:

كان أبو سـعيد الخدرى يحدث أن رسول الله ٩ أصيـب وجهه يوم أحـد، فـدخلت الحلقتان من المغفر في وجنته، فلما نزعتا جعل الدم يسـرب كما يسرب الشن، فجعل أبي مالك بن سـنان يملج الدم بفيه، ثم ازدرده، فقال رسول الله ٩: من أحب أن ينظر إلى من خـالط دمه دمي فلينظر إلى مالك بن سـنان. فقيل لمالك: تشـرب الـدم؟ فقال: نعم أشـرب دم رسول الله ٩. فقـال رسول الله ٩: من مس دمه دمي لم تصـبه النار. قال أبوسعيد: فكنا ممن رد من الشيخين لم نجز مع المقاتلة، فلما كان من النهار، وبلغنا مصاب رسول الله ٩، ونظر إلى سـلامته، فنرجع بذلك إلى أهلينا، فلقينا الناس منصـرفين ببطن قناة، فلم يكن همة إلا النبى ٩ ننظر إليه، فلما نظر إلى قال: سـعد بن مالـك؟ قلت: نعم بـأبي وأمي، فـدنوت منه فقبلت ركبته وهو على فرسه، ثم قـال: آجرك الله في أبيـك. ثم نظرت إلى وجهه فإذا في وجنتيه مثل موضع الدرهم في كل وجنة، وإذا شـجة في جبهته عند أصول الشـعر، وإذا شـفته السفلى تدمى، وإذا رباعيته اليمنى شظية، وإذا على جرحه شـيء أسود. فسألت: ما هـذا على وجهه؟ فقالوا: حصـير محرق، وسألت: من دمى وجنتيه؟ فقيل: ابن قميئة. فقلت: من شجّه في جبهته؟ فقيل: ابن شـهاب. فقلت: من أصاب شفته؟ فقيل: عتبة. فجعت أعدو بين يديه حتى نزل ببابه، فما نزل إلا حملًا، وأرى ركبتيه مجحوشتين، يتكئ على السعدين: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، حتى دخل بيته.

فلما غربت الشمس وأذن بلال بالصلاة، خرج رسول الله ٩ على مثل تلك الحال، يتوكأ على السعدين، ثم انصرف إلى بيته، والناس في المسـجد يوقـدون النيران، يتكمدون بها من الجراح، ثم أذن بلال بالعشاء حين غاب الشـفق، فلم يخرج رسول الله ٩، وجلس بلال عند بـابه حتى ذهب ثلث الليل، ثم ناداه: الصـلاة يا رسول الله. فخرج رسول الله ٩ وقـد كان نائماً. قال: فرمقته فإذا هو أخف في مشـيته منه حين دخل بيته، فصـليت معه العشاء، ثم رجع إلى بيته وقـد صف له الرجال ما بين بيته إلى مصـلاه يمشـي وحـده حتى دخل، ورجعت إلى أهلي فخبرتهم بسـلامة رسولالله ٩ فحمـدوا الله على ذلـك ونـاموا، وكانت وجوه الخزرج والأوس في المسـجد على باب النبى ٩ يحرسونه فرقاً من قريش أن تكر .. (٤)

عفته وطاعته!!

عرف هذا الصـحابي بعفة النفس وشدة الامتثال لأمر رسول الله ٩ والأخذ بنصحه وإرشاده ولثقته المطلقة بوعد الله ورسوله ٩. لما سمع رسول الله ٩ يعـد المتعففين عن المسألة بأن الله تعالى سـيغنيهم من فضـله وإحسانه وقد جاء يسأل الرسول ٩ وقد بلغت به الحاجة مبلغاً عظيمـاً حتى أنه ربـط على بطنه الحجر من شـدة الجوع إلا ـ أنه آثر الصبر والاحتمـال رجـاء ما عنـدالله تعالى، وقـد تحقق له ما وعـد به رسول الله ٩ فأغناه الله من فضله.

ومما قاله أبو سعيد نفسه بعد استشهاد أبيه وبعد ما ألم بأهله العوز: استشهد أبي يوم أحد، وتركنا بغير مال، فأصابتنا حاجة شديدة. قال:

فقـالت لى أمى: أى بنى! ائت النبى ٩ فاسأله لنا شـيئاً. فجئته فسـلمت وجلست، وهو فى أصحابه جالس فقال واستقبلنى: إنه من استغنى أغناه الله، ومن اسـتعف أعفه الله، ومن اسـتكف أكفه الله. قال: قلت: ما يريد غيرى. فانصـرفت ولم أكلمه فى شـىء. فقالت لى أمى: ما فعلت؟ فأخبرتها الخبر. قال: فصبّرنا الله عز وجل ورزقنا شيئاً. فبلغنا، حتى ألحت علينا حاجة شديدة أشدّ منها. فقالت لى أمى: ائت النبى ٩ فاسأله لنا شيئاً. قال: فجئته وهو فى أصحابه جالس، فسلمت وجلست، فاستقبلنى وعاد بالقول الأول وزاد فيه: ومن سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف. قال: قلت: الياقوتة ناقتى خير من أوقية، فرجعت ولم أسأله.. فرزق الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالًا منا (۵).

وعن هلال بن حصن قال: نزلت على أبى سعيد الخدرى فضمنى وإياه المجلس. قال: فحدث أنه أصبح ذات يوم وقد عصب على بطنه حجراً من الجـوع فقـالت له إمرأته أو أمه: ائت النـبى ٩ فاسـأله فقـد أتـاه فلاـن فسأله فأعطاه وأتاه فلان فسأله فأعطاه. فقال: قلت: حتى ألتمس شيئاً، قال: فالتمست فأتيته، قال حجاج: فلم أجد شيئاً فأتيته وهو يخطب فأدركت من قوله وهو يقول:

«مَنِ اسْـتَعَفَّ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنِ اسْـتَغْنَى يُغْنِهِ اللهُ وَمَنْ سَأَلَنَا إمَّا أنْ نَبْـذُلَ لَهُ وَ إمَّا أنْ نُوَاسِـيَهُ ... وَمَنْ يَسْـتَعِفُّ عَنَّا أوْ يَسْـتَغْنِى أَحَبُّ إلَيْنَا مِمَّنْ يَسْأَلُنَا».

قال: فرجعت فما سألته شيئاً، فما زال الله تعالى يرزقنا حتى ما أعلم فى الأنصار أهل بيت أكثر أموالًا منا (۶).

جرأته فى الحق!!

عمّار والفئة الباغية: الخدرى يعرف جيداً أن معاوية وجنده وأتباعه هم أهل الباطل، كيف لا وهو الذى روى ما ذكره رسول الله ٩ بحق عمار بن ياسر أنه هو الذى تقتله الفئة الباغية، وهو ما حدث بالفعل فى معركة صفين حينما كان عمار يحمل راية الحق التى يمثلها أمير المؤمنين على ٧

١- انظر: مختصر تاريخ دمشق ٣٥١: ١٧.

٢- انظر: السيرة النبوية ٨۵: ٣.

٣- بحار الأنوار ٧١: ٢٠؛ وذكر هذه الرواية ايضاً صاحب كنز العمال، غزوة أحد: ٣٠٠۵٠

۴- انظر: مختصر تاريخ دمشق ٢٧۵: ٩- ٢٧۶.

۵- المصدر نفسه ٢٧۶: ٩- ٢٧٧.

۶- صـحيح البخارى كتاب الزكاة باب الاسـتعفاف عن المسألة ١۵١: ٢- ١۵٢؛ صـحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزكاة باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا ١۴۴: ٧- ١۴۵.

ص: ۱۰۱

ويخوض عمار معركة ضارية ضد جند الشام ومعاوية يقدمهم، فعن أبى سعيد الخدرى قال: ... كنا نعمر المسجد وكنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبى ٩ فجعل ينفض التراب عنه [عن رأس عمار خ ل] ويقول: [يا عمار] ألا تحمل كما يحمل أصحابك؟ قال: إنى أريد الأجر من الله تعالى.

قال: فجعل ينفض التراب عنه ويقول: ويحك تقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار.

قال عمار: أعوذ بالرحمن- أظنه قال-: من الفتن (۱).

ولأن أبا سعيد الخدرى ٢ كان قوالًا بالحق لا يخاف فى الله لومة لائم، كان لا يضنّ بكلمة نصح حتى للظالمين أو كلمة حق يقولها فى ساحتهم وفى بلاطهم، ومن مواقفه وأقواله التى هى مصداق لهذا:

موقفه من معاوية زعيم الفئة الباغية التى قتلت الصحابى الكبير عمار بن ياسر رضوان الله تعالى عليه فقد ذهب إلى معاوية بن أبى سفيان ليوصل إليه صوت الحق ولا يخاف لومة لائم، قال شعبة عن أبى سلمة: سمعت أبا نضرة عن أبى سعيد رفعه: لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه. وفى رواية: إذا شهده أو علمه. وقال أبو سعيد: فحملنى ذلك على أن ركبت إلى معاوية فملأت أذنيه ثم رجعت. وفى رواية أخرى: دخل أبو سعيد الخدرى على معاوية فسلم ثم جلس فقال: الحمد لله الذى أجلسنى منك هذا المجلس، سمعت رسول الله ٩ يقول: «لا- يمنعن أحدكم، إذا رأى الحق أن يقول به»، وإنه بلغنى عنك يا معاوية كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا. فعدد عليه أشياء من فعاله ومما بلغه عنه. فقال له معاوية: أفرغت؟ قال: نعم. قال: فانصرف. فخرج أبو سعيد من عنده وهو يقول: الحمدلله، الحمد لله.

موقفه من مروان بن الحكم: كان له موقف من الرجل الذى أنكر على مروان بن الحكم تقديم خطبة العيد على الصلاة، يشهد بذلك، فلم يكتف أبو سعيد الخدرى بتعضيده، بل أنكر بيده حيث جذب مروان محاولًا منعه من صعود المنبر لأداء الخطبة قبل الصلاة، غير أن مروان تغلب عليه وصعد المنبر وخطب قبل الصلاة، كما جاء ذلك فى صحيح مسلم.

ولم يكتف أبو سعيد الخدرى بتعضيد الذى أنكر على مروان بل أنكر أبو سعيد الخدرى على مروان بن الحكم تقديم الخطبة على الصلاة ولم يكتف أبو سعيد بالإنكار باللسان، بل أنكر بيده؛ حيث جذب مروان محاولًا منعه من صعود المنبر لأداء الخطبة قبل الصلاة، وكانا قد جاءا معاً، غير أن مروان تغلب عليه وصعد المنبر وخطب قبل الصلاة، كما جاء ذلك فى الصحيحين (۲).

ما حدث له فى واقعة الحرة

.. فى مدينة رسول الله ٩ وبعد أن أباحها مسلم بن عقبة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون الأموال، فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة، فخرج أبو سعيد الخدرى حتى دخل فى كهف فى الجبل، فبصر به رجل من أهل الشام، فجاء حتى اقتحم عليه الغار. قال أبو مخنف: فحدثنى الحسن بن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى، قال: دخل إلىّ الشامى يمشى بسيفه، قال: فانتضيت سيفى فمشيت إاليه لأرعبه لعلّه ينصرف عنى، فأبى إلا الإقدام علی، فلما رأيت أن قد جد شمت سيفى ثم قلت له:

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَکَ لِتَقْتُلَنِی ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِیَ إِلَيْکَ لأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (۳)

فقال لى: من أنت لله أبوك! فقلت: أنا أبو سعيد الخدرى، قال: صاحب رسول الله ٩؟ قلت: نعم، فانصرف عنى (۴).

ومن طريق يزيد بن عبد الله بن الشخير، قال: خرج أبو سعيد يوم الحرة فدخل غاراً فدخل عليه شامى فقال: أخرج. فقال: لا أخرج وإن تدخل على أقتلك فدخل عليه فوضع أبو سعيد السيف وقال: بؤ بإثمك قال: أنت أبوسعيد الخدرى؟ قال: نعم. قال: فأستغفر لى.

وتعرض للضرب والاعتداء على يد جيش يزيد بن معاوية بعد واقعة الحرة.. يقول عن ذلك: لزمت بيتى ليالى الحرة فلم أخرج، فدخل علىّ نفر من أهل الشام فقالوا: أيها الشيخ! أخرج ما عندك. فقلت: ما عندى مال. قال: فنتفوا لحيتى وضربونى ضربات، ثم عمدوا إلى بيتى فجعلوا ينقلون ما خفّ لهم من المتاع، حتى أنهم عمدوا إلى الوسادة والفراش فينفضون صوفهما ويأخذون الظرف، حتى لقد

رأيت بعضهم أخذ زوج حمام كان فى البيت، ثم خرجوا (۵).

مما قاله علماء الرجال فى توثيقه وعلمه واستقامته

الخـدرى والذى كان أحد الثابتين فكرياً على معرفة الحق، وأحد الراسـخين فى دعم الحقيقة، له فى كتب الرجال مكانة مرموقة واحتل منزلة كبيرة فى أقوالهم، ونحن هنا نتطرق باختصار إلى ما تيسر لنا من كل ذلك.

و قبل أن نـذكر أقوال العلماء فيه نـذكر ما قاله الإمام الصادق ٧ عنه حيث ذكره بتبجيـل وتكريم، ونصّ على اسـتقامته فى طريق الحق: «كان من أصحاب رسول الله ٩، وكان مستقيماً».

١- كشف الغمة ٣۵٨: ١.

٢- مختصر تاريخ دمشق ٢٧۴: ٩؛ الإصابة فى تمييز الصحابة ٣۵: ٢. وغيرهما.

٣- المائدة: ٢٨.

۴- تاريخ الطبرى ٣۵٧: ٣، أحداث سنة ۶٣.

۵- مختصر تاريخ دمشق ٢٧٨: ٩.

ص: ۱۰۲

من أصحاب رسول الله ٩، رجال الشیخ (٣). وعدّه فی أصحاب أمیرالمؤمنین ٧ قائلًا: سعد بن مالک الخزرجی، یکنی أبا سعید الخدری الأنصاری العربی المدنی (٢). وعده البرقی فی أصحاب رسول الله ٩، قائلا: «وأبوسعید الخدری الأنصاری: عربی مدنی، واسمه سعد بن مالک، خزرجی.

وفی الأصفیاء من أصحاب أمیرالمؤمنین ٧ قائلًا: «أبوسعید الخدری عربی أنصاری.

وقال الکشی فی ترجمة أبی أیوب الأنصاری: «قال الفضل بن شاذان: هو من السابقین الذین رجعوا إلی أمیرالمؤمنین ٧».

وتقدم فی ترجمة جندب بن جندب الغفاری فی روایة العیون عن الرضا ٧ عدّه من الذین مضوا علی منهاج نبیهم ٧ ولم یبدلوا. وقال الکشی فی ترجمته: أبوسعید الخدری: حمدویه، قال: حدثنا أیوب عن عبدالله بن المغیرة، قال: حدثنی ذریح عن أبی عبدالله ٧، قال: ذکر أبوسعید الخدری فقال: کان من أصحاب رسول الله ٩ وکان مستقیماً، فقال: فنزع ثلاثة أیام فغسله أهله ثم حملوه إلی مصلاه، فمات فیه.

محمد بن مسعود، قال: حدثنی الحسین بن أشکیب، قال: أخبرنا محسن بن أحمد، عن أبان بن عثمان، عن لیث المرادی، عن أبی عبدالله ٧ قال: «إن أبا سعید الخدری کان قد رزق هذا الأمر وإنه اشتدّ نزعه فأمر أهله أن یحملوه إلی مصلاه الذی کان یصلی فیه، ففعلوا فما لبث أن هلک».

حمدویه قال: حدثنا یعقوب بن یزید، عن ابن أبی عمیر، عن الحسین بن عثمان، عن ذریح، قال: سمعت أبا عبدالله ٧، یقول: کان علی بن الحسین ٨، یقول: «إنی لأکره للرجل أن یعافی فی الدنیا ولا یصیبه شیء من المصائب. ثم ذکر أن أبا سعید الخدری وکان مستقیماً- نزع ثلاثة أیام فغسله أهله ثم (حملوه) حمل إلی مصلاه فمات فیه.

وطریق الصدوق إلیه فی وصیة النبی ٩، إلی علی ٧، التی أولها: «یا علی إذا دخلت العروس بیتک»: محمد بن إبراهیم بن إسحاق الطالقانی ٢ عن أبی سعد الحسن بن علی العدوی، عن یوسف بن یحیی الإصبهانی أبی یعقوب، عن أبی علی إسماعیل ابن حاتم، قال: حدثنا أبوجعفر أحمد بن زکریا بن سعید المکی، قال: حدثنا عمر بن حفص عن إسحاق بن نجیح عن حصیف، عن مجاهد، عن أبی سعید الخدری (١).

کما شهد بمناقبه الفریق الآخر وأنه کان من فقهاء الصحابة وفضلائهم البارعین، فعن حنظلة بن أبی سفیان الجمحی، عن أشیاخه أنهم قالوا: لم یکن من أحداث الصحابة أفقه من أبی سعید الخدری، وفی روایة: أعلم. (٢)

وقال ابن کثیر: کان من نجباء الصحابة، وفضلائهم، وعلمائهم.

وقال الخطیب البغدادی: وکان أبو سعید من أفاضل الأنصار، وحفظ عن رسول الله ٩ حدیثاً کثیراً ..

قال الإمام الذهبی: الإمام المجاهد مفتی المدینة حدث عن النبی ٩ فأکثر وأطاب.

وهو من المکثرین من الحدیث وکان من أفقه أحداث الصحابة.

وقالوا عنه: إنه روی عن النبی ٩ الکثیر.

وروی عن الخلفاء الأربعة، وغیرهم.

روی عنه من الصحابة: ابن عباس وابن عمر وجابر، وغیرهم.

روی عنه من کبار التابعین: سعید بن المسیب، وأبو عثمان النهدی، وطارق بن شهاب، ومن بعدهم عطاء، ومجاهد، وغیرهم.

وقالوا: إنه روی أبو سعید الخدری ألفاً ومائة وسبعین حدیثاً بالمکرر، اتفق البخاری ومسلم علی ثلاثة وأربعین حدیثاً، وانفرد البخاری بستة عشر حدیثاً، وانفرد مسلم باثنین وخمسین حدیثاً (٣).

ملاحظة مهمة

كان أبو سعيد الخدرى رضوان الله تعالى عليه مكثراً للرواية كما ذكرنا، ولهذا الأمر أسبابه التى منها:

إن أبا سعيد أعلن إسلامه وهو ما زال صغيراً، فكان له عند قدوم النبى ٩ المدينة إحدى عشرة سنة، و هو سن صفاء الذهن والقدرة على الحفظ والتحصيل.. وكان لملازمته الطويلة للنبى ٩ والتى دامت عشر سنوات وهى المدة التى قضاها ٩ بالمدينة المنورة لم يفارقه أبوسعيد فيها.. وكان لتأخر وفاته، دور كبير فى منحه وقتاً كافياً لتبليغ ما تحتفظ به ذاكرته من أحاديث وما يتوفر عليه من علوم، فقد عاش بعد وفاة النبى ٩ فترة زمنية طويلة، نحو خمس وستين سنة، وفى هذه الفترة احتاج الكثيرون إلى علمه، فتكاثر عليه طلاب العلم ينهلون من علمه ويحفظون عنه ما سمع من رسول الله ٩، وحدّث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين، ويشهد بهذا أسناد رواياته، وقام هؤلاء بتبليغ ما سمعوا منه ..

١- انظر النهاية:؛ رجال الحديث للسيد الخوئى، رجال النجاشى:؛ أمالى الطوسى،؛ تاريخ بغداد:،؛ سير أعلام النبلاء:،؛ تاريخ دمشق:؛ الوافى بالوفيات:.

٢- أنظر: أسد الغابة فى معرفة الصحابة؛ والإصابة فى تمييز الصحابة.

٣- انظر فى هذا كله من ترجم له، كسير أعلام النبلاء ١٦٨: ٣؛ الإصابة فى تمييز الصحابة ٣٥: ٢؛ ومختصر تاريخ دمشق ٢٧٨: ٩- ٢٧٩. تهذيب التهذيب ٤١٦: ٣؛ و المعارف: ١٥٣؛ الاستيعاب ٤٨٩: ۴؛ أسد الغابة ٢٨٩: ٢؛ والإصابة ٣٥: ٢.

ص: ۱۰۳

هذا، ولتعدد مصادر التحمل بالنسبهٔ لأبی سعید أهمیته فی کثرهٔ روایاته، فکما تحمل الحدیث عن الرسول ۹ فلقد تحمل الحدیث عن کبار الصحابهٔ.. وأیضاً لتفرغه للتحدیث والفقه، مما جعله أن یکون أحد الفقهاء المحدثین ..

هذا، وأن هناک قواسم مشترکهٔ جامعهٔ بین الصحابهٔ المکثرین لروایهٔ الأحادیث عن رسول الله ۹ یتمثل بطول ملازمتهم لرسول الله ۹ وإن اختلفوا فی مدتها، وبتأخر وفاتهم، فلقد مکثوا بعد وفاهٔ الرسول ۹ فترهٔ زمنیهٔ کان فیها متسع لأن یحدثوا الناس ویستفید هؤلاء من علمهم. کما أن مصادر تحملهم تعددت، فنراهم قد تحملوا عن رسول الله ۹ وتحملوا عن کبار الصحابهٔ، وإن کانوا فی الأعم الأغلب یحذفون الواسطهٔ بینهم وبین الرسول ۹ لثقتهم بمن حدثوهم. ولم ینفردوا بما حدثوا به عن رسول الله ۹ بل شارکهم غیرهم من الصحابهٔ فی روایهٔ کثیر مما رووا، فروایات أبی سعید الخدری لحدیث الغدیر ولحدیث الثقلین ولغیرهما لم ینفرد بروایتها وحده، بل هناک العدید من الصحابهٔ رووا هذه الأحادیث .... ولهذا نجدهم یروی أحدهم عن عدد، وعدد یروی عنهم، کما هو الحال مع أبی سعید الخدری؛ فقد روی عن النبی ۹ مباشرهٔ وعن أبیه وأخیه لأمه قتادهٔ بن النعمان، وأبی بکر وعمر وعثمان وعلی، وزید بن ثابت وأبی قتادهٔ الأنصاری، وعبدالله بن سلام وأسید بن حضیر، وابن عباس وأبی موسی الأشعری، ومعاویهٔ وجابر بن عبد الله.

وعنه ابنه عبد الرحمن وزوجته زینب بنت کعب بن عجرهٔ، وابن عباس، وابن عمر، وجابر، وزید بن ثابت، وأبو أمامهٔ بن سهل ومحمود بن لبید وابن المسیب، وطارق بن شهاب وأبو الطفیل وعطاء بن أبی رباح، وعطاء بن یسار وعطاء بن یزید وعیاض بن عبد الله بن أبی سرح، والأغر بن مسلم وبشر بن سعید وأبو الوداک وحفص بن عاصم، وحمید بن عبد الرحمن بن عوف وأخوه أبو سلمهٔ بن عبد الرحمن، ورجاء بن ربیعهٔ والضحاک المشرقی، وعامر بن سعد بن أبی وقاص، وعبد الله بن خباب، وسعید بن الحارث الأنصاری، وعبد الله بن محیریز، وعبد الله بن أبی عتبهٔ مولی أنس، وعبد الرحمن بن أبی نعم، وعبید بن حنین، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبی صعصعهٔ، وعبد الرحمن بن بشر بن مسعود، وعبید بن عمیر، وعقبهٔ بن عبد الغافر، وعکرمهٔ، وعمرو بن سلیم وقزعهٔ بن یحیی ومعبد بن سیرین، ونافع مولی بن عمر، ویحیی بن عمارهٔ بن أبی حسن، ومجاهد، وأبو جعفر الباقر، وأبو سعید المقبری، وأبو عبد الرحمن الحبلی، وأبو عثمان النهدی، وأبو سفیان مولی بن أبی أحمد، وأبو صالح السمان، وأبو المتوکل الناجی، وأبو نضرهٔ العبدی، وأبو علقمهٔ الهاشمی، وأبو هارون العبدی وغیرهم.

قال حنظلهٔ بن أبی سفیان عن أشیاخه: وروی عن خلائق غیرهم ..

حبه وولاؤه لأئمهٔ أهل البیت النبوی

لقد عاصر هذا الصحابی الجلیل من المعصومین الرسول الأعظم ۹ فنال بذلک وسام الصحبهٔ المبارکهٔ فکان ممن حمل معه الأمانهٔ ... وممن بذل کل غال ونفیس من أجل إعلاء کلمهٔ الحق، وکان ممن حفظ عن رسول الله ۹ سنناً کثیرهٔ وروی عنه علماً جماً، وکان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم ..

وقد عاصر أربعهٔ من أئمهٔ أهل البیت: بدءاً بالإمام علی، ثم الإمام الحسن، والإمام ا لحسین، والإمام علی بن الحسین ۸ وکان واعیاً صادقاً فی ولائه لهم.. ویعدّ من أجلاء الصحابهٔ الذین کانت لهم مواقف مشرفهٔ مع أئمهٔ أهل البیت: .. انطلاقاً من صدق حبه ومودته لهم، وتحمل الأذی فی سبیله هذا.

فهو إضافهٔ إلی أنه لم یترک مرافقهٔ أمیر المؤمنین علی ۷، وکان إلی جانبه فی معرکهٔ النهروان، ظل ولاؤه مستمراً مدافعاً عنه حتی بعد انتقال الإمام علی إلی جوار ربه ..

وهذه واحدهٔ من روایاته رضوان الله تعالی علیه فی حب أئمهٔ أهل البیت:

تقول الروایهٔ: حدَّثنا مُحَمَّد بن الفضل بن زیدویه الجلاب الهمدانی، قال: حدَّثنا إبراهیم بن عمرو الهمدانی، قال: حدَّثنا الحسن بن إسماعیل، عن سعید بن الحکم، عن أبیه، عن الأوزاعی، عن یحیی بن أبی کثیر، عن أبی‌سلمهٔ، عن أبی سعید الخدری، قال رسول الله

۹: «من رزقه الله حبَّ الأئمة من أهل بيتى فقد أصاب خير الدنيا والآخرة، فلا يشكّنَّ أحد أنَّه فى الجنة، فإنَّ فى حب أهل بيتى عشرين خصلة، عشر منها فى الدنيا وعشر منها فى الآخرة؛

أما التى فى الدنيا فى الزهد، والحرص على العمل، والورع فى الدين، والرغبة فى العبادة، والتوبة قبل الموت، والنشاط فى قيام الليل، واليأس مما فى أيدى الناس، والحفظ لأمر الله ونهيه عزَّ وجلَّ، والتاسعة بغض الدنيا، والعاشرة السخاء.

وأما التى فى الآخرة، فلا ينشر له ديوان، ولا ينصب له ميزان، ويعطى كتابه بيمينه، ويكتب له براءة من النار، ويبيض وجهه، ويكسى من حلل الجنة، ويشفع فى مائة من أهل بيته، وينظر الله عزَّ وجلَّ إليه بالرحمة، ويتوج من تيجان الجنة، والعاشرة يدخل الجنة بغير حساب.

فطوبى لمحبى أهل بيتى» (۱).

ونحن هنا نكتفى بما رواه أبو سعيد فى أمهات المسائل التى ابتنى عليها المذهب الإمامى:

وكان فى عداد رواة حديث الثقلين وحديث الغدير، وحديث المنزلة ... وهى التى شكلت أسس المذهب الإمامى، الذى يستقى علومه وأحكامه وأصول اعتقاده من مدرسة أهل البيت:، وهم العدل الثانى فى حديث الثقلين المشهور.. وكان من الذين شهدوا لعلى ۷ بالولاية يوم الغدير:

۱- أنظر: الخصال ۵۱۵: ۲، ح ۱.

ص: ۱۰۴

روی أن علیاً ۷ قام فحمد الله وأثنی علیه، ثمّ قال: أنشِدُ الله من شهد یوم غدیر خُمٍّ إلّا قام.. فقام سبعة عشر رجلًا، وکان أبو سعید الخدری واحداً منهم.

وقد ذکره الشیخ المفید فی کتاب الجمل فی عداد من بایع أمیر المؤمنین علیاً ۷ قائلًا فی مقدمة ذلک: ونحن نذکر الآن من جملة مبایعی أمیر المؤمنین ۷ الراضین بإمامته الباذلین أنفسهم فی طاعته ... إلی أن قال: فممن بایع أمیر المؤمنین ۷ بغیر ارتیاب ودان بإمامته علی الإجماع والاتفاق، واعتقد فرض طاعته والتحریم لخلافه ومعصیته، الحاضرون معه فی حرب البصرة وهو ألف وخمسمائة رجل من وجوه المهاجرین الأولین السابقین إلی الإسلام والأنصار البدریین العقبیین وأهل بیعة الرضوان، من جملتهم سبعمائة من المهاجرین وثمانمائة من الأنصار سوی أبنائهم وحلفائهم وموالیهم وغیرهم من بطون العرب والتابعین بإحسان ...

وعد من الأنصار «أبو سعید الخدری» واحتل فی قائمة الشیخ المفید الرقم الرابع.. (۱)

فأین هذا الکلام مما أورده السید الأمین دون رد فی کتابه فی رحاب أئمة أهل البیت الجزء الثانی الصفحة ۴ تحت عنوان (المتخلفون عن بیعته) وبعد أن ذکر ما قالته بعض المصادر عن القاعدین عن بیعته ۷ قال: ونحن نذکر أسماء المتخلفین مأخوذة من مجموع ما ذکره هؤلاء وهم: ... أبو سعید الخدری ...

ولم أجد فی مروج الذهب ولا فی أسد الغابة هذا، إلا أن الطبری ذکر ذلک بسنده عن عبد الله بن الحسن قال: لما قتل عثمان بایعت الأنصار علیاً إلا نفیراً یسیراً منهم حسان بن ثابت، وکعب بن مالک، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعید الخدری و ... کانوا عثمانیة (۲).

وهو خبر واحد مضادّ بغیره ومخالف لسیرة الرجل ومواقفه وروایاته وشهادته للإمام بحدیث الغدیر ..

إلا أنی لم أجد فی کتاب وقعة صفین لنصر بن مزاحم المنقری المتوفی سنة ۲۱۲ هجریة اسمه فیمن شارک إلی جانب الإمام علی ۷ فی معرکة صفین، ولم أجد لغیابه عن هذه المعرکة تفسیراً ..

وقد شارک فی معرکة النهروان، وله فیها حدیث رواه عن رسول الله ۹ حیث قال: سمعت رسول الله ۹ یقول:

«إنَّ قَوماً یخرُجُون، یَمرُقون مِن الدِّینِ مروق السَّهم مِن الرمیة ..»

وفی الخرائج والجرائح (۳) روی عن أبی سعید الخدری ... أنَّ النبیَّ ۹ قسَّم یوماً قسماً، فقال رجل من تمیم: اعدلْ، فقال: ویحک ومن یعدل إذا لم إعدل؟!

قیل: نضرب عنقه؟

قال: لا، إنَّ له أصحاباً یحقِّر أحدکم صلاته وصیامه مع صلاتهم وصیامهم، یمرقون من الدین مروق السهم من الرمیة، رئیسهم رجل أدعج إحدی ثدییه مثل ثدی المرأة.

قال أبو سعید: إنی کنت مع علی حین قتلهم فالتمس فی القتلی [بالنهروان] فأتی به علی النعت الذی نعته رسول الله ۹.

وقد امتاز العدید من روایاته الکثیرة بنقل مآثر و مناقب رسول الله ۹ و آل البیت: ونحن نکتفی بشیء منها.

وبدایة نذکر روایته هذه التی توضح رأیه ووصفه الذی لم یحد عنه، وهو یجیب حین سئل عن علی ۷:

عن مالک المازنی، قال: أتی تسعة نفر إلی أبی سعید الخدری، فقالوا:

یا أبا سعید! هذا الرجل الذی یکثر الناس فیه ما تقول فیه؟

فقال: عمَّن تسألونی؟

قالوا: نسأل عن علیّ بن أبی طالب ۷

قال: أما إنکم تسألونی عن رجل أمرّ من الدفلی، وأحلی من العسل، وأخف من الریشة، وأثقل من الجبال، أما والله ما حلا إلا علی ألسنة المؤمنین، وما خفَّ إلا علی قلوب المتقین، ولا أحبه أحد قط لله ولرسوله إلا حشره الله من الآمنین، وإنه لمن حزب الله، وحزب

الله هم الغالبون.

والله ما أمرَّ إلا على لسان كافر، ولا أثقل إلا على قلب منافق، وما زوى عنه أحد قط ولا لوى ولا تحزب ولا عبس ولا بسر ولا عسر ولا مضر ولا التفت ولا نظر ولا تبسم ولا تجرَّى ولا ضحك إلى صاحبه ولا قال أعجب لهذا الأمر، إلا حشره الله منافقاً مع المنافقين.

وَسَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُوْنَ. (۴)

۱- انظر الصفحة ۱۰۵ من كتاب الجمل.

۲- تاريخ الطبرى ۶۹۸: ۲. دار الكتب العلميةبيروت.

۳- الخرائج و الجرائح ۶۸: ۱، ح ۱۲۷.

۴- الشعراء: ۲۲۷.

ص: ۱۰۵

نأتی الآن إلی أحادیث أخری:

حدیث الثقلین

وقد جاء هذا الحدیث بصیغ متعددة وبطرق عدیدة عن مجموعة من الصحابة والتابعین، حتی قال ابن حجر فی صواعقه: ولهذا الحدیث طرق کثیرة عن بضعه وعشرین صحابیاً ... وأبو سعید الخدری کان واحداً من الصحابة الذین قال السمهودی علی ما روی عنه المناوی فی فیض القدیر: وفی الباب ما یزید علی عشرین من الصحابة..

... عن أبی سعید قال: قال رسول الله ۹: «إِنِّی تَارِکٌ فِیکُمْ الثَّقَلَیْنِ، أَحَدُهُمَا أَکْبَرُ مِنْ الآخَرِ: کِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلی الأَرْضِ وَعِتْرَتِی أَهْلُ بَیْتِی، وَإِنَّهُمَا لَنْ یَفْتَرِقَا حَتَّی یَرِدَا عَلَیَّ الحَوْضَ».

... عن أبی سعید الخدری عن النبی ۹ قال: «إِنِّی أُوشِکُ أَنْ أُدْعَی فَأُجِیبَ وَإِنِّی تَارِکٌ فِیکُمْ الثَّقَلَیْنِ کِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَل وَعِتْرَتِی، کِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلی الأَرْضِ وَعِتْرَتِی أَهْلُ بَیْتِی، وَإِنَّ اللطِیفَ الخَبِیرَ أَخْبَرَنِی أَنَّهُمَا لَنْ یَفْتَرِقَا حَتَّی یَرِدَا عَلَیَّ الحَوْضَ فَانْظُرُونِی بِمَ تَخْلُفُونِی فِیهِمَا».

... عن أبی سعید الخدری قال: قال رسول الله ۹: «إِنِّی قَدْ تَرَکْتُ فِیکُمْ الثَّقَلَیْنِ أَحَدُهُمَا أَکْبَرُ مِنْ الآخَرِ؛ کِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَل حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلی الأَرْضِ، وَعِتْرَتِی أَهْلُ بَیْتِی، أَلا إِنَّهُمَا لَنْ یَفْتَرِقَا حَتَّی یَرِدَا عَلَیَّ الحَوْضَ».

... عن أبی سعید الخدری قال: قال رسول الله ۹: «إِنِّی قَدْ تَرَکْتُ فِیکُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِی، الثَّقَلَیْنِ أَحَدُهُمَا أَکْبَرُ مِنْ الآخَرِ؛ کِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلی الأَرْضِ، وَعِتْرَتِی أَهْلُ بَیْتِی، أَلَا وَإِنَّهُمَا لَنْ یَفْتَرِقَا حَتَّی یَرِدَا عَلَیَّ الحَوْضَ» (۱).

آیة التطهیر و حدیث الکساء

عن أبی سعید الخدری عن النبی قال حین نزلت: وَ أْمُرْ أَهْلَکَ بِالصَّلاةِ قال: «کان نبی الله یجیئ إلی باب علی الغداة ثمانیة أشهر» فیقول: «الصلاة یرحمکم الله إِنَّمَا یُرِیدُ اللهُ لِیُذْهِبَ عَنکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیرًا.

عن أبی سعید الخدری قال: «إن رسول الله جاء إلی باب علی أربعین صباحاً بعد ما دخل علی فاطمة الزهراء ۳ فقال: «السلام علیکم أهل البیت! ورحمة الله وبرکاته، الصلاة یرحمکم الله، إِنَّمَا یُرِیدُ اللهُ لِیُذْهِبَ عَنکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً».

عن أبی سعید الخدری عن النبی قال حین نزلت: وَ أْمُرْ أَهْلَکَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَیْهَا (۲) کان یجیء نبی الله ۹ إلی باب علی صلاة الغداة ثمانیة أشهر یقول: الصلاة، رحمکم الله إِنَّمَا یُرِیدُ اللهُ لِیُذْهِبَ عَنکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیرًا.

عن أبی سعید الخدری فی قوله تعالی: إِنَّمَا یُرِیدُ اللهُ لِیُذْهِبَ عَنکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیرًا. قال: «نزلت فی خمسة: رسول الله وعلی وفاطمة والحسن والحسین» (۳).

وفی أمالی الشیخ الطوسی (۴): أخبرنا أبو عمر، قال: أخبرنا أبو العباس، عن یعقوب بن یوسف بن زیاد، عن مُحَمَّد بن إسحاق بن عمار، عن هلال بن أیوب الصیرفی ... عن عطیة قال: سألت أبا سعید الخدری عن قوله تعالی: إِنَّمَا یُرِیدُ اللهُ لِیُذْهِبَ عَنکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیرًا.

قال:

نزلت فی رسول الله ۹ وعلی وفاطمة والحسن والحسین:.

حدیث المنزلة

رواة هذا الحدیث من الصحابة أکثر من ثلاثین، وربّما یبلغون الأربعین بین رجل وامرأة. یقول ابن عبد البر فی الإستیعاب عن هذا الحدیث: هو من أثبت الأخبار وأصحّها.

وأبو سعید واحد منهم:

قال رسول الله ۹ لعلی بن أبی طالب ۷ فی غزوة تبوک: اخلفنی فی أهلی.

فقال علی ۷: یا رسول الله! إنی أکره أنْ یقول العرب: خذل ابن عمه وتخلف عنه.

فقال: أما ترضی أن تکون منی بمنزلة هارون من موسی؟

قال: بلی.

۱- راجع: صحیح الترمذی ۳۰۸: ۲، وابن حجر فی صواعقه، والمتقی فی کنز العمال؛ والطبرانی فی الکبیر؛ وراجع: فضائل الخمسة فی الصحاح الستة وغیرها من کتب أهل السنة ۵۲: ۲- ۶۰. انظر سنن الترمذی. کتاب المناقب عن الرسول. باب مناقب أهل بیت النبی. رقم: ۳۷۱۸. و مسند أحمد بن حنبل. کتاب باقی مسند المکثرین. باب مسند أبی سعید الخدری. رقم: ۱۰۶۸۱، ۱۰۷۰۷، ۱۰۷۷۹، ۱۱۱۳۵.

۲- طه: ۱۳۲.

۳- انظر: مختصر تاریخ دمشق ۳۴۲: ۹؛ طبقات المحدثین ۱۴۹: ۴، ح ۹۱۵؛ أخرجه الطبرانی فی المعجم الأوسط ۱۵۲: ۸، ح ۸۱۲۷؛ الدارقطنی فی المؤتلف والمختلف ۲۱۲۱: ۴؛ الخطیب فی المتفق والمفترق ۱۱۵۸: ۲، ح ۷۲۳.

۴- أمالی الطوسی ۲۵۴: ۱، ح ۲۸.

ص: ۱۰۶

قال ٩: فاخلفنی.

وفی روایة قوله ٩ لعلی ٧: «أنت منی بمنزلة هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی».

سفینة نوح

وفی کفایة الأثر (۱): حدَّثنا علی بن الحسین [الحسن خ ل] بن مُحَمَّد بن مبدة [مندة خ ل] قال: حدَّثنا أبو مُحَمَّد هارون بن موسی رضی الله عنه قال: حدَّثنا أحمد بن مُحَمَّد بن [سعید] قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن غیاث الکوفی، قال: حدَّثنا حماد بن أبی حازم المدنی قال: حدَّثنا عمران بن مُحَمَّد بن سعید بن المسیب، عن أبیه عن جده، عن أبی سعید الخدری، قال: ...

صلی بنا رسول الله ٩ الصلاة الأولی ثُمَّ أقبل بوجهه الکریم علینا فقال: معاشر أصحابی! إنَّ مَثَلَ أهل بیتی فیکم کمثل سفینة نوح وباب حطَّة فی بنی إسرائیل، فتمسَّکوا بأهل بیتی بعدی والأئمة الراشدین من ذریتی فإنکم لن تضلوا أبداً.

فقیل: یا رسول الله! کم الأئمة بعدک؟

فقال: اثنا عشر من أهل بیتی، أو قال: من عترتی.

معرفة المنافقین

حدثنا قتیبة، حدثنا جعفر بن سلیمان، عن أبی هارون، عن أبی سعید الخدری، قال: «إنّا کنّا لنعرف المنافقین نحن معشر الأنصار لبغضهم علیَّ بن أبی طالب» (۲).

خاصف النعل

وفی بحار الأنوار (۳) عن أمالی الشیخ الطوسی: أبو عمر، عن ابن عقدة، عن یعقوب بن یوسف، عن أحمد بن حماد، عن فطر بن خلیفة وبرید بن معاویة العجلی، عن إسماعیل بن رجاء، عن أبیه، عن أبی سعید الخدری، قال: ...

خرج إلینا رسول الله ٩ وقد انقطع شسع نعله فدفعها إلی علی ٧ یصلحها، ثُمَّ جلس وجلسنا حوله کأنما علی رؤوسنا الطیر.

فقال: إنَّ منکم لمن یقاتل علی تأویل القرآن کما قاتلت الناس علی تنزیله.

فقال أبو بکر: أنا هو یا رسول الله؟

قال: لا.

فقال عمر: أنا یا رسول الله؟

فقال: لا، ولکنه خاصف النعل.

قال أبو سعید: فأتینا علیاً ٧ نبشره بذلک فکأنه لم یرفع به رأساً فکأنه قد سمعه قبل.

یوم الغدیر

حدیث الغدیر، هذا الحدیث الذی بلغ حد التواتر عند جمیع المسلمین وحفظته أمهات المصادر، من الأحادیث التاریخیة الهامة و المصیریة التی أدلی بها رسول الله ٩ فی السنة الأخیرة من حیاته المبارکة، و هی من الأحادیث التی تثبت إمامة الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب ٧ و توجب ولایته علی جمیع المؤمنین بعد ولایة الله تعالی و ولایة رسوله المصطفی ٩ بکل صراحة و وضوح.

ثم إن حدیث الغدیر حدیث متواتر رواه المحدثون عن أصحاب النبی ٩ و عن التابعین بصیغٍ مختلفة، تؤکد جمیعها علی إمامة الإمام أمیر المؤمنین ٧، مراده الأصلی واحد و إن اختلفت بعض عبارات الحدیث.

الخوارزمی عن أبی سعید الخدری ٢ قال: إن النبی ٩ لما دعا الناس إلی غدیر خم، أمر بما کان تحت الشجرة من شوک، فقم، وذلک یوم الخمیس، ثم دعا الناس إلی علی فأخذ بضبعه فرفعها، حتی نظر الناس إلی بیاض إبطیه، ثم لم یتفرقا حتی نزلت هذه الآیة:

الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الإِسْلامَ دِیناً (۴).

فقال رسول الله ٩: «الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتى والولاية لعلى. ثم قال:

١- كفاية الأثر: ٣٣- ٣۴.

٢- انظر: الترمذى، المناقب عن الرسول، ح ٣۶۵٠.

٣- بحارالأنوار ٢٩۶: ٣٢، ح ٢۵۶.

۴- المائدة: ۴.

ص: ۱۰۷

«اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله».

فقال حسان بن ثابت: یا رسول الله! أتأذن لی أن أقول أبیاتاً؟

فقال: «قل ببرکة الله تعالی». فقال:

ینادیهم یوم الغدیر نبیهم

بخم وأسمع بالرسول منادیا

بأنی مولاکم نعم وولیکم

فقالوا ولم یبدوا هناک التعامیا

إلهک مولانا وأنت ولینا

ولا تجدن فی الخلق للأمر عاصیا

فقال له: قم یا علی فإننی

رضیتک من بعدی إماماً وهادیا

فمن کنت مولاه فهذا ولیه

فکونوا له أنصار صدق موالیا

هناک دعا اللهم وال ولیه

وکن للذی عادی علیاً معادیا.

وفی مختصر تاریخ دمشق عن أبی سعید الخدری:

أما نصب رسول الله ۹ علیاً بغدیر خم، فنادی له بالولایة، هبط جبریل ۷ بهذه الآیة: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الإِسْلامَ دِیناً (۱).

وقال أیضاً: نزلت هذه الآیة: یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ (۲) علی رسول الله ۹ یوم غدیر خم فی علی بن أبی طالب (۳).

الرایة

وعن أبی سعید قال: أخذ رسول الله ۹ الرایة فهزها، ثم قال: من یأخذها بحقها؟ فجاء الزبیر فقال: أنا، فقال: أمطَ أی «تنح». ثم قام رجل فقال: أنا، فقال: أمط. ثم قام آخر فقال: أنا، فقال: أمط، فقال رسول الله ۹: والذی أکرم وجه محمد، لأعطینها رجلًا لا یفر بها. هاک یا علی، فقبضها، ثم انطلق حتی فتح الله علیه فدک وخیبر، وجاء بعجوتها وقدیدها (۴).

ولایة علی ۷

وفی أمالی الشیخ المفید: ۹۰، مجلس ۱۷، ح ۳: حدَّثنا الشیخ الجلیل المفید، قال: أخبرنی أبو الحسن علی بن بلال المهلّبی، قال: حدَّثنا عبد الله بن راشد الأصفهانی، قال: حدَّثنا إبراهیم بن مُحَمَّد الثقفی، قال: أخبرنا إسماعیل بن صبیح، قال: حدَّثنا سالم بن أبی سالم البصیر.

عن أبی هارون العبدی، قال: کنت أری [رأی] الخوارج لا رأی لی غیره حتَّی جلست إلی أبی سعید الخدری رحمه الله فسمعته یقول: أمر الناس بخمس، فعملوا بأربع وترکوا واحدة.

فقال له رجل: یا أبا سعید! ما هذه الأربع التی عملوا بها؟

قال: الصلاة والزکاة والحج وصوم شهر رمضان.

١- المائدة: ۴.

٢- المائدة: ۶٧.

٣- انظر: مختصر تاريخ دمشق ٢۵٩: ١٧؛ ينابيع المودة: ١١۵. ومصادر أخرى.

۴- مختصر تاريخ دمشق ٣٣٠: ٩.

ص: ١٠٨

قال: فما الواحدة التى تركوها؟

قال: ولاية على بن أبى طالب ٧.

قال الرجل: وإنَّها لمفترضة؟

قال أبو سعيد: نعم، ورب الكعبة.

قال الرجل: فقد كفر الناس إذن!

قال أبو سعيد: فما ذنبى؟

وهذه متفرقات ممّا رواه أبو سعيد الخدرى:

حمل الحديث

وفى حثه على حمل الأحاديث عبر التحدث بها وتذاكرها فإن إحياء الحديث بتذاكره والعمل به، وبذلك يتم حفظ أحاديث رسول الله ٩ والمعرفة بها والتوسع فى فهمها خصوصاً بين أهله وترويجها وتبليغها وعدم نسيانها، لأنه وكما ورد فى الحديث الشريف: «آفة العلم النسيان، وإضاعته أن تحدث به غير أهله».

وهو ما ورد عن الإمام على ٧ حدثنا وكيع، قال حدثنا كهمس بن الحسن عن عبد الله بن بريدة أنه قال: قال على: «تزاوروا وتذاكروا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يدرس».

لهذا جاءت العبارة التى أصبحت شعاراً للمذاكرة، وهى قولهم: «إحياء الحديث مذاكرته». ومنها انطلق هذا الصحابى فى حثه الناس على التحدث لما فى ذلك من فوائد كبيرة.. ومن فوائد التحدث والمذاكرة فى الحديث أنه سبب كبير وداع عظيم للتنافس المحمود بين طلبة العلم.

فعن على بن الجعد أنه قال: حدثنا شعبة عن سعيد بن يزيد سمع أبا نضرة يحدث عن أبى سعيد قال: تحدثوا فإن الحديث يهيج الحديث. (١)

ثواب صلاة الجماعة

وفى بحار الأنوار (٢): روى الشهيد الثانى ١ فى شرحه على الإرشاد من كتاب الإمام والمأموم للشيخ أبى محمد جعفر بن القمى بإسناده المتصل إلى أبى سعيد الخدرى، قال:

قال رسول الله ٩: «أتانى جبرئيل مع سبعين ألف ملك بعد صلاة الظهر، فقال: يا مُحَمَّد! إنَّ ربك يقرئك السلام وأهدى إليك هديتين لم يهدهما إلى نبيٍّ قبلك، قلت: وما تلك الهديتان؟

قال: الوتر ثلاث ركعات، والصلاة الخمس فى جماعة.

قلت: يا جبرئيل! وما لأمتى فى الجماعة؟

قال: يا مُحَمَّد! إذا كانا اثنين كتب الله لكل واحد بكل ركعة مائة وخمسين صلاة، وإذا كانوا ثلاثة كتب لكل واحد بكل ركعة ستمئة صلاة، وإذا كانوا أربعة كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفاً ومئتى صلاة، وإذا كانوا خمسة كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفين وأربعمئة، وإذا كانوا ستة كتب الله لكل واحد بكل ركعة أربعة آلاف وثمانمئة صلاة، وإذا كانوا سبعة كتب الله لكل واحد بكل ركعة تسعة آلاف وستمئة صلاة، وإذا كانوا ثمانية كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة تسعة عشر ألفاً ومئتى صلاة، وإذا كانوا تسعة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة ستة وثلاثين ألفاً وأربعمئة صلاة، وإذا كانوا عشرة كتب الله لكل واحد بكل ركعة سبعين ألفاً وألفين وثمانمئة صلاة، فإنْ زادوا على العشرة فلو صارت السماوات كلها مداداً والأشجار أقلاماً، والثقلان مع الملائكة كُتّاباً لم يقدروا أن يكتبوا ثواب ركعة واحدة.

یا مُحَمَّد! تکبیرة یـدرکها المؤمن مع الإمام خیر من ستین ألف حجة وعمرة، وخیر من الدنیا وما فیها سـبعین ألف مرة، ورکعة یصـلیها المؤمن مع الإمام خیر من مئـة ألف دینار یتصـدق بها علی المساکین، وسـجدة یسـجدها المؤمن مع الإمام فی جماعة خیر من عتق مئة رقبة.

وعن طول یوم القیامة تَعْرُجُ الْمَلائِکَةُ وَ الرُّوحُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ (۳).

نسب إلی أبی سعید أنه قال: قیل: یا رسول الله! ما أطول هذا الیوم؟!

فقال: والذی نفس محمد بیده إنه لیخف علی المؤمن حتی یکون أخف علیه من صلاة مکتوبة یصلیها فی الدنیا.

۱- انظر أحمد بن حنبل فی مسنده؛ ومختصر تاریخ دمشق؛ وکنز العمال؛ وغیرها.

۲- بحارالأنوار ۱۴: ۸۸- ۱۵، ح ۲۶.

۳- المعارج: ۴.

ص: ۱۰۹

وأبو سعید الخدری من رواهٔ حدیث اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ کما فی سیرهٔ ابن هشام (۱).

والحدیث: أن جبریل ۷ أتی رسول الله ۹ حین قبض سعد بن معاذ من جوف اللیل معتجراً بعمامهٔ من إستبرق، فقال: یا محمد! من هذا المیت الذی فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟

فقام رسول الله ۹ سریعاً یجر ثوبه إلی سعد، فوجده قد مات.

«إن أهل الجنهٔ لیتراءون أهل الغرف من فوقهم کما یتراءون الکوکب الدری الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بینهم، قالوا: یا رسول الله تلک منازل الأنبیاء لا یبلغها غیرهم؟ قال: بلی، والذی نفسی بیده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلین». رواه الشیخان البخاری ومسلم.

وعن أبی سعید الخدری عن النبی ۹ قال:

«إن فی الجنهٔ مئهٔ درجهٔ، ولو أن العالمین اجتمعوا فی إحداهن وسعتهم».

وقال سعید بن منصور: حدثنا خلف بن خلیفهٔ عن العلاء بن المسیب عن أبیه عن أبی سعید قلنا له: هنیئاً لک برؤیهٔ رسول الله ۹ وصحبته قال: إنک لا تدری ما أحدثنا بعده.

قال ابن أبی سلمهٔ: قلت لأبی سعید الخدری: ما تری فی ما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمرکب والمطعم؟ فقال:

یا ابن أخی کُل لله، واشرب لله، وکلّ شیء من ذلک دخله زهو أو مباهاهٔ أو ریاء أو سمعهٔ فهو معصیهٔ وسرف.

المرأهٔ تسأل

هناک اهتمام أکید من قبل الإسلام بالمرأهٔ المسلمهٔ، واهتمام متمیز من قبل الرسول ۹ واحترام واضح لما تریده مادام لا یخالف شریعهٔ ولا منهجاً دینیاً وأخلاقیاً واجتماعیاً.. وکانت المرأهٔ فی ذلک الوقت لها رأیها وهی ذات مکانهٔ عظیمهٔ راحت تسخرها لخدمهٔ المشروع الإسلامی.. حتی برزت طائفهٔ من النساء العالمات المبلغات، فقد روی البخاری ومسلم عن أبی سعید الخدری قال: جاءت امرأهٔ إلی رسول الله ۹ فقالت: یا رسول الله! ذهب الرجال بحدیثک، فاجعل لنا من نفسک یوماً نأتیک فیه، تعلمنا مما علمک الله، قال: اجتمعن یوم کذا وکذا، فاجتمعن، فأتاهنّ النبی ۹ فعلمهن مما علمه الله.. وقد تبادرن النساء إلی مجالس الرسول الخاصهٔ بهن، وقد أثنی رسول الله ۹ علیهن ودعا لهن فقال: «رحم الله نساء الأنصار لا یمنعهن حیاؤهن أن یسألن عن أمور دینهن».

وفاته

وحتی قبیل وفاته لم یترک الروایهٔ عن رسول الله ۹ وقد ضمن وصایاه العدیدهٔ قولًا لرسول الله ۹.

فعن ابنه عبد الرحمن أن أباه قال له: یا بنی! إنی قد کبرت سنی وحان منی، خذ بیدی، فاتکأ علی حتی جاء البقیع مکاناً لا یدفن فیه فقال: إذا أنا هلکت فادفنی هاهنا، ولا تضربن علی فسطاطاً ولا تمشین معی بنار، ولا تبک علی باکیهٔ، ولا تؤذنن أحداً، ولیکن مشیک بی خبباً. فجعل الناس یأتونی فیقولون: متی تخرج به؟ فأکره أن أخبرهم وقد نهانی، فقلت: إذا فرغت من جهازه، فخرجت به من صدر یوم الجمعهٔ، فوجده البقیع قد ملئ علی ناساً.

ولما حضرته الوفاهٔ تقول ابنته: لما حضر أبو سعید بعث إلی نفر من أصحاب رسول الله ۹ فیهم: ابن عباس وابن عمر وأنس بن مالک وجابر بن عبد الله فقال: لا یغلبنکم ولد أبی سعید، إذا أنا مت فکفنونی فی ثیابی التی کنت أصلی فیها وأذکر الله فیها ...

وعن أبی سلمهٔ بن عبد الرحمن قال: دخلت علی أبی سعید الخدری عند موته فدعا بثیاب جدد فلبسها ثم قال: سمعت رسول الله ۹ یقول: إن المیت یبعث فی ثیابه التی یموت فیها. فإذا مت فلا تتبعونی بنار ولا تجعلوا علی قطیفهٔ حمراء ولا تبک علی باکیهٔ.

ومن وصایاه أیضاً عند احتضاره: إذا حملتم فأسرعوا، أی أسرعوابی.

توفی هذا الصحابی الجلیل رضوان الله علیه فی خلافهٔ عبد الملک بن مروان، وحین استولی الحجاج علی الکعبهٔ بعد قتله عبد الله بن

الزبير، وكان عمر أبى سعيد الخدرى ٧۴ سنة، بالمدينة يوم الجمعة. وقال أبو الحسن المدائنى: مات سنة (۶٣)، وقال العسكرى: مات سنة (۶۵) ..

ويقال: قبره يقع فى خارج البقيع فى الجهة الشرقية الشمالية منه على قارعة الطريق المؤدى للحرة الشرقية، وقد اختار أبو سعيد هذا المكان ليدفن فيه فى حياته، فيما يقال: إنه دفن بالبقيع نفسه، إلى جوار قبر فاطمة بنت أسد رضوان الله تعالى عليها.

١- سيرة ابن هشام ٢۶٢: ٣.

ص: ١١٠

ص: ١١١

ص: ۱۱۲

أجوبة الاستفتاءات آية‌الله العظمی السید علی الخامنئی

الاقتداء بأهل السنّة

س: هل تجوز الصلاة خلف السنة جماعة؟

ج: تجوز الصلاة جماعة خلفهم إذا كانت للحفاظ علی الوحدة الإسلامية.

س: محل عملی یقع فی إحدی المناطق الکردیة، وأکثریة أئمة الجمعة والجماعة هناک هم من أهل السنة، فما هو حکم الاقتداء بهم؟ وهل تجوز غیبتهم؟

ج: لا إشکال فی المشارکة فی الصلاة معهم فی جمعتهم وجماعاتهم، وأما الغیبة فلیجتنب عنها.

س: فی أماکن المعاشرة والمخالطة مع أبناء السنة عند المشارکة فی صلواتهم الیومیة، نعمل مثلهم فی بعض الموارد، مثل الصلاة مع التکتف، عدم رعایة الوقت والسجود علی السجاد، فهل مثل هذه الصلاة تحتاج إلی إعادة؟

ج: إذا کان حفظ الوحدة یقتضی ذلک کله فالصلاة معهم صحیحة ومجزیة، حتی وإن کان بالسجود علی السجاد وأمثال ذلک، ولکن لا یجوز التکتف فی الصلاة معهم إلا إذا اقتضت الضرورة ذلک.

ص: ۱۱۳

س: فى مكة والمدينة نصلى جماعة مع أبناء السنة وذلك استناداً إلى فتوى سماحة الإمام الخمينى ۱، وفى بعض الأوقات ومن أجل إدراك فضيلة الصلاة فى المسجد كأداء صلاة العصر أو صلاة العشاء بعد صلاة الظهر والمغرب نصلى فرادى فى مساجد أهل السنّة من دون تربة ونسجد على السجاد، فما هو حكم هذه الصلوات؟

ج: فى الفرض المذكور محكومة بالصحة.

س: كيف تكون مشاركتنا نحن الشيعة فى الصلاة فى مساجد البلدان الأخرى مع أبناء السنة حيث يصلون مكتوفى الأيدى؟ وهل يجب علينا المتابعة فى التكتف مثلهم، أو نصلى بلا تكتف؟

ج: يجوز الاقتداء بأهل السنّة إذا كان لأجل رعاية الوحدة، والصلاة معهم صحيحة ومجزية، ولكن لا يجب، بل لا يجوز التكتف فيها، إلا إذا كانت هناك ضرورة تقتضى ذلك أيضاً.

س: عند المشاركة فى صلاة الجماعة مع أهل السنة ما هو حكم التصاق خنصر القدم بخنصر قدمى الشخصين الواقفين على طرفى المصلى فى حال القيام التى يلتزمون بها؟

ج: لا يجب ذلك، ولو فعله لم يضرّ بصحة الصلاة.

س: أبناء السنة يصلون المغرب قبل أذان المغرب، ففى موسم الحج أو فى غيره هل يصح لنا الاقتداء بهم والاكتفاء بتلك الصلاة؟

ج: ليس معلوماً أنهم يصلون قبل الوقت، ولكن لو لم يحرز المكلف دخول الوقت لم يصح منه الدخول فى الصلاة، إلا إذا اقتضت مراعاة الوحدة ذلك أيضاً، فلا مانع حينئذ من الدخول فى الصلاة معهم وفى الاكتفاء بتلك الصلاة.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبِیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبهٔ/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـهٔ فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّهٔ" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیهٔ الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابِذهٔ هذه المدینهٔ، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرهٔ الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بِساحهٔ صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَهِ ۱۳۴۰ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۳۸۰ الهجریّهٔ القمریّهٔ)، مؤسَّسهً و طریقهً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّهٔ" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَهِ ۱۳۸۵ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۴۲۷ الهجریّهٔ القمریّهٔ) تحتَ عنایهٔ سماحهٔ آیهٔ الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَهِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّهٔ و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّهٔ، ثقافیّهٔ و علمیّهٔ...

الأهداف: الدّفاع عن ساحهٔ الشیعهٔ و تبسیط ثَقافهٔ الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّهٔ، تخلیف المطالب النّافعهٔ – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلهٔ أو الرّدیئهٔ – فی المحامیل (=الهواتف المنقولهٔ) و الحواسیب (=الأجهزهٔ الکمبیوتریّهٔ)، تمهید أرضیّهٍ واسعهٍ جامعهٍ ثَقافیّهٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعهٔ ثقافهٔ القراءهٔ و إغناء أوقات فراغهٔ هُواهٔ برامِجِ العلوم الإسلامیّهٔ، إنالهٔ المنابع اللازمهٔ لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرهٔ فی الجامعهٔ، و...

- مِنها العَدالهٔ الاجتماعیّهٔ: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزهٔ الحدیثهٔ متصاعدهً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبرازِ المَرافِقِ و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافهِ الاسلامیّهٔ و الإیرانیّهٔ – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطهٔ الواسعهٔ للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبهٔ، نشرهٔ شهریّهٔ، مع إقامهٔ مسابقات القِراءهٔ

ب) إنتاجُ مئات أجهزهٍ تحقیقیّهٔ و مکتبیهٔ، قابلهٔ للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّهِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکهٔ و... الأماکن الدینیّهٔ، السیاحیّهٔ و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّهٔ" www.Ghaemiyeh.com و عدّهٔ مَواقِعَ اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّهٔ، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّهٔ

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابهٔ الأسئلهٔ الشرعیّهٔ، الاخلاقیّهٔ و الاعتقادیّهٔ (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرهٔ SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّهٔ و اعتباریّهٔ، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّهٔ، الجوامع، الأماکن الدینیّهٔ کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامهٔ المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسهٔ" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسهٔ

ی) إقامهٔ دورات تعلیمیّهٔ عمومیّهٔ و دورات تربیهٔ المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلهٔ السَّنَهٔ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.